

يسوع المسيح المخلّص والإله الحقيقيّ

القدّيس نكتاريوس العجائبيّ

أسقف المدن الخمس

تعاونية النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.

يسوع المسيح المخلّص والإله الحقيقيّ

سلسلة «تعَرَّف إلى كنيسَتك» ٣٠

يسوع المسيح المخلّص والإله الحقيقيّ

القدّيس نكتاريوس العجائبيّ أسقف المدن الخمس

نقلته إلى العربيّة من الترجمة الإنكليزيّة
الأنسة مها عفيش

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م.م.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.

أنجزت مَطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر حزيران ٢٠١٣

شكر

إلى جميع الذين وفّروا لي الدعم من دَون غاية سوى مجد اسم الله القدّوس، وفضّلوا أن يبقوا مستترين بتواضعهم، بعد أن أمدّوني بكلّ أشكال المحبّة: الصلاة الحارّة، والسند الروحيّ، والمعنويّ، والمساعدة العمليّة. وليذكركم قدّيسنا المحبوب في شفاعاته أمام العرش الإلهيّ.

ألا باركنا الله جميعًا واحتضننا في أحشاء رحمته وغفر خطايانا وذنوبنا، آمين.

معرّبة الكتاب
مها عفيش

هذه الترجمة

هي الطبعة العربيّة لكتاب بعنوان CHRISTOLOGY، صدر بالانكليزيّة عن دير القدّيس نكتاريوس في نيويورك، الولايات المتّحدة الأميركيّة، في العام ٢٠٠٦. ونحن ننشرها الآن ببركة الدير المذكور وصلوات آبائه وأدعيتهم بانتشار الكتاب والمنفعة الروحيّة لقرّائه.

تمهيد الترجمة الإنكليزيّة

الابن وكلمة الله هو حكمة الله الأزليّة والمكتومة (١كورنثوس ٢: ٧). إنّه *«صورة الله غير المنظور وبكر كلّ الخليقة»* (كولوسي ١: ١٥)، الله الكائن من قبل الدهور.

في وقت ما من التاريخ، اتّخذ الابن والكلمة جسدًا ـ ذا نفس عاقلة وذهنيّة ـ من الدم الأكثر طهارة، دم الدائمة البتوليّة والدة الإله... صار الله إلهًا-إنسانًا: إلهًا كاملاً وإنسانًا كاملاً. وباتّخاذه الطبيعة البشريّة في أقنوم الكلمة الإلهيّ، رفعها إلى أعلى درجة من الكمال وألّهها (القدّيس نكتاريوس، التعليم المسيحيّ).

ومع ذلك، ورغم أنّه *«جاء إلى خاصّته وخاصّته لم تقبله»* (يوحنّا ١: ١٢)، رغم أنّه أعطانا معرفة الله الأكيدة والكاملة، وكشف لنا الحبّ الإلهيّ الأزليّ والكامل، وأعطانا جسده الكلّيّ القداسة ودمه البريء من الدنس، لمغفرة الخطايا والحياة الأبديّة، ومنحنا إنجيله المقدّس ميراثًا أمينًا لا يخيب، لأجل خلاصنا، فإنّنا في جهلنا، أنكرناه ورذلناه وصلبناه. وأكثر من ذلك: ما زلنا ننكره ونرذله ونصلبه كلّ يوم.

ونلاحظ اليوم أنّ الإنسان يبحث بقلق، أكثر من أيّ وقت مضى، لاكتشاف معنى الحياة وإيجاد أجوبة على أسئلته وهمومه الوجوديّة. والمؤسف أنّ فشل فلسفة القرون الوسطى واللاهوت السكولاستيكيّ وما لحقهما من «تنوير» الغرب المتمركز حول الإنسان، قد أبعدا الناس عن الحقيقة. كما أنّ خبرة التقنيّات المعاصرة، الروحيّة والنفسيّة، هذه الخبرة المواهبيّة والجذّابة، أو بالحريّ المخدِّرة، ما زالت

تقود الإنسان بعيدًا عن معرفة الله الحقيقيّ، مثلها مثل المنهجيّات والنظريّات التي تقوم على تجاوز المرء ذاته، إلى جانب ما نصادفه من وفرة الأديان المنظورة والمذاهب. كلّ هذه تُبعد الإله الحقيقيّ وحده، الإله-الإنسان يسوع المسيح، لتُحلّ محلّه أصنامًا وآلهة غريبة يقول عنها واضع المزامير: «*صنع أيدي البشر*» (مزمور ١٣٤: ١٥).

نحن بالتأكيد نحترم تمامًا تاريخ جميع الأمم والشعوب. ونقرّ بأنّ الله يسمح بوجود أوضاع متميّزة لكلّ شخص، وندرك الظروف التي يبتدعها التاريخ للأممِ المتنوّعةِ الأقطار وذات التقاليد الدينيّة الخاصّة. لذا فإنّنا نقف إجلالاً أمام تنوّع الأديان المصادَفة. ورغم ذلك فمن المستحيل ألاّ نلاحظ ما قد تأكّدنا منه بالخبرة: وبشكل خاصّ «*ليس بأحد غيره الخلاص، وليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص*» (أعمال ٤: ١٢). وبالحقيقة كيف يمكننا أن نغفل شهادة الرسول والإنجيليّ يوحنّا الأكيدة، الذي اعترف «*أنّ يسوع هو المسيح... وإن آمنّا به تكون لنا حياة باسمه*» (يوحنّا ٢٠: ٣١)، وهو ما يشكّل اعترافًا بإيماننا لا مساومة فيه؟...

...يهدف هذا الكتاب المؤلّف من فصول مترجمة من مؤلَّف القدّيس نكتاريوس «في الخريستولوجيا»، إلى تنوير الإنسان المعاصر في معرفة الله الحقيقيّ وتوجيهِه بعيدًا عن «الطرق المسدودة» المحيطة به. إنّ هدف هذا الكتاب، كما ينوّه القدّيس نكتاريوس في مقدّمته، هو الاعتراف بالحقيقة والإيمان بالمسيح، وتشديد إيمان المسيحيّين: «حتّى يصبحوا راسخين، غير متزعزعين في الإيمان، ويحيوا كما يليق بإنجيل المسيح ويشتركوا في مباراة الإيمان بالإنجيل، غير مخوَّفين بشيء من المقاوِمين (فيليبّي ١: ٢٨)، ويعيشوا إلهيًّا، صاحين، مستقيمين في هذا

العالم الحاضر، منتظرين الرجاء المبارَك وظهور مجد ربّنا العظيم ومخلِّصنا يسوع المسيح المجيد (تيتوس ٢: ١٢-١٣)» (القدّيس نكتاريوس)...

...وأخيرًا نصلّي لكي ترسِّخنا نعمة ربّنا يسوع المسيح، الإله الحقيقيّ وحده، بشفاعات القدّيس نكتاريوس، وتعينَنا في ممارسة إيماننا الحيّ بيقظة حتّى إنّ روحنا، المنجذبة بقوّةٍ بمحبّةِ إلهنا القدّوس، تسبِّح من دون انقطاع اسم الثالوث القدّوس الذي ينبغي له كلّ تمجيد وإكرام وسجود إلى دهر الداهرين، آمين.

الأرشمندريت يوسف
٢ تشرين الأوّل ٢٠٠٦
تذكار القدّيس الشهيد في رؤساء الكهنة كبريانوس
والقدّيسة الشهيدة يوستينة البتول.

مقدّمة كتاب القدّيس نكتاريوس الأصليّ

عزيزي القارئ،

كان هدفنا الرئيس في تجميع هذا الكتاب الذي أنت تحمله الآن وعنوانه «يسوع المسيح المخلِّص والإله الحقيقيّ»، هو توطيد إيمان المسيحيّين حتّى يصبحوا راسخين وغير متزعزعين في الإيمان، ويحيوا كما يليق بإنجيل المسيح ويشتركوا في مباراة إيمان الإنجيل، غير مخوَّفين بشيء من المقاومين (فيليبّي ١: ٢٨) ويعيشوا إلهيًّا، صاحين، مستقيمين في هذا العالم الحَاضر، منتظرين الرجاء المبارَك وظهور مجد ربّنا العظيم ومخلِّصنا يسوع المسيح الذي بذل نفسه لأجلنا ليفتدينا من كلّ إثم ويطهِّر لنفسه شعبًا خاصًّا غيورًا في الأعمال الحسنة (تيتوس ٢: ١٢-١٣).

كان هذا هدف العمل الحاضر. وحين قمنا بتجميع هذا الكتاب بذلنا كلّ الجهود الممكنة ليكون التأليف أقرب ما يمكن إلى الكمال، بغية جعل نجاحه أكثر تأكيدًا. أصلّي من كلّ قلبي ليكون مبدع خلاصنا ومتمّمه، الكلّيُّ القداسة، معينًا لنا جميعًا لكي يتحقّق بالكلّيّة الهدف المشوّق إليه.

أثينا، في ١٦ أيلول ١٩٠٠

شفيعكم الحارّ لدى الله

نكتاريوس، أسقف المدن الخمس

وعميد كلّية ريزاريو

القسم الأول
انتظار الأمم

الفصل الأوّل
يسوع هو الطريق والحقّ والحياة

«أنا هو الطريق والحقّ والحياة»

(يوحنّا ١٤: ٦)

يا لها من كلمات مبهجة! ويا للسلطان الذي تحويه! ولكم هذه الرسالة رائعة وممدوحة! ويا لهذه البشرى السارّة والمحبَّبة للبشر!

هذه الكلمات مفعمة بالحياة وترضي رغبات القلب البشريّ كليًّا. يا لنغمتها المبهجة! ولكم هي مطربة هذه الأنباء! بالحقيقة ما أجمل الشفاه التي تبشّر بإنجيل السلام، التي تحمل البشرى المفرحة بالأمور السارّة! (رومية ١٠: ١٥). كم هي جذلة كلمات الذي ينبئ الجنس البشريّ بوصول انتظار الأمم! كم هي معبِّرة هذه الكلمات! كم هي جليلة وإلهيّة! *«أنا هو الطريق والحقّ والحياة»* (يوحنّا ١٤: ٦). هذه الكلمات تحوي كنزًا كاملاً، كنزًا يُغْني كلّ البشريّة. إنّها تحوي خلاصة كلّ رغبات البشريّة على مدى كلّ الأزمنة.

بهاؤها سماويّ، ويتعذّر وصف الفرح الذي تحمله. تردادها يسحر آذان السامعين مثل لحن سماويّ. وكشعاع من نور الشمس، تبدِّد سحائبَ الجهل القاتمة، وتنير البشريّة (التي كانت قابعة في *«الظلمة... وظلال الموت»* (متّى ٤: ١٦))، وتوقظها من سبات الخمول، وتقودها في غمار مباراة الحياة. إنّها تجعل عيون النفس الذهنيّةَ (noetic) تشعّ، وتقوّيها، وتخوّلها التحديق في نور الحقيقة والتوصّل إلى معرفة الله المتجسّد، انتظارِ الأمم، ابنِ الإنسان: الذي يقرّ بأنّه الطريق والحقّ والحياة.

وهكذا تحقّقت رغبات الجنس البشريّ الأبديّة وظهرت النعمةُ المخلِّصة وبزغ الضوءُ واستنار الذهن وأبعِد الظلام وزال الظلّ واستيقظ مَن كان نائمًا. الآن أصبح الإنسان قادرًا على السير في الطريق القويم المفضي إلى الخلاص. مَن كان جاهلاً الحقيقة أضحى الآن قادرًا على إدراك جمالها الذي لا يوصف، وعلى إبعاد عبء الجهل الذي جثم بثقله على صدره قرونًا كاملة وكدَّر أفكاره. كان جهل الحقيقة ظلامًا وظلال الموت. والجهلُ حوّل البشريةَ عن درب الحقيقة، فصارت محاطة بالكآبة والظلام. لهذا يشبِّه النبيّ الحقيقة المعتلَنة بنور عظيم: «*الشعب الجالس في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا*» (متّى ٤: ١٦ وأشعياء ٩: ٢)، إذ ظهر بالحقيقة نور عظيم. وبما أنّه نور الصلاح، فقد أنار البشريّة التي عاينت انتظارَ الأمم، مخلِّصَ العالم، ابنَ الإنسان المنتظَر: الطريق والحقّ والحياة.

سعى الشعب إلى الطريق والحقّ والحياة، فحقّق الله رغبةَ الإنسانيّة المتّقدةَ هذه بإرساله ابنه الوحيد الذي أعلنه للبشرية حين سقط أوّل إنسان مخلوق. بحث الإنسان عن درب الحقيقة المؤدّي إلى الحياة الأبديّة لأنّه أدرك أنّه تاه بعيدًا عنه. بحث الإنسان عن الحقيقة لأنّ الكذب أغرق الأرض. بحث عن الحياة لأنّ الموت الروحيّ كان مسيطرًا.

تاقت البشريّة إلى مجيء المخلِّص المعلَن عنه، المعلِّم والفادي. كان الأنبياء والرجال الملهَمون من الله قد سبقوا فأعلنوا وتنبّأوا بقدومه وعزّوا البشريّة وأوصوها بأن تنتظر المعلّم الآتي الذي سوف يعلِّم الحقيقة كلّها. وما قول المخلِّص: «*أنا هو الطريق والحقّ والحياة*» سوى إعلان عن وصوله، وجواب للإنسانيّة التي كانت بانتظاره. هذا

القول يشهد باكتمال نبوءات الأنبياء وتحقّقها، وكان ظهورًا لـمَن تاقوا إلى وصول المخلِّص، فحقّق رغبات البشريّة العطشى وروى ظمأها. خفَّف أثقال النفوس المرهقة بالأعباء وأنارها في وسط الظلام. كان هذا القول رجاء الذين في اليأس، وفرح الحزانى، وتهليل العالم وابتهاج الأمم. كان النغمة المحبوبة التي انتظرتها البشريّة على مدى قرون عديدة. كان صوت الفادي المتوقع. كان صوت انتظار الأمم، صوت ابن الإنسان.

الفصل الثاني
حول اسم: «ابن الإنسان»

كانت عبارة «ابن الإنسان» التي استعملها الربّ تحديدًا موجَزًا لشخصه كلّما تكلّم على نفسه، الاسم الذي به أُنبئت البشريّة بمخلِّصها وفاديها الآتي. ويؤيّد العهد القديم وجهة النظر هذه، إذ يُذكَر في سفر التكوين أنّ الله، حين كان يلعن الحيّة المسؤولة عن سقطة الإنسان، أنبأ الحيّة بأنّ بذرة المرأة سوف تسحق رأسها: *«وأجعل عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه»* (تكوين ٣: ١٥). فاعتبرت كلّ سلالة آدم أنّ هذه اللعنة الموجّهة إلى الحيّة هي بالحريّ خبر سار للجنس البشريّ. وبعد أن حصل الجنس البشريّ على هذا الوعد، انتظر بذرة المرأة، ابن المرأة، الذي هو «ابن الإنسان». فقد استُعملت الكلمة العبريّة Zara، التي ترجمتها السبعينيّة[1] بعبارة «بذرة»، في الكتاب المقدّس، حيثما وردت، محلّ عبارة «ابن». إذ استعملت حنّة، أمّ النبيّ صموئيل، كلمة Zara حين كانت تسأل الله عن ابن. ولكنّها أضافت إليها، إذ هي امرأة ذات زوج، كلمةَ anasim (Zara anasim)، ما معناه بذرة رجل، أو ابن رجل (راجع ١ملوك ١: ١١).

وعلى العكس تغيب عبارة «مِن رجل» في الوعد الذي قطعه الله، فلا نجد سوى «ابن امرأة» (Zara isa). وهكذا أصبح مفهومًا

---

[1] على عهد الملك بطليموس الثاني، فيلادلفوس (٢٨٥-٢٤٦ ق.م.) قام اثنان وسبعون عالمًا يهوديًا يجيدون اللغتين اليونانيّة والعبريّة معًا، بترجمة العهد القديم من اليهوديّة إلى اليونانيّة، في الإسكندريّة بمصر. وأُطلق على هذه الترجمة اسم السبعينيّة.

أنّ الكلمة استُعملت للدلالة على أنّ المخلِّص الآتي، الذي سوف يسحق رأس الحيّة، سيكون ابن المرأة التي حبلت من دون رجل، أي ابن إنسانٍ واحد. وهكذا عَنَت العداوةُ بين بذرة العذراء التي لم تتزوّج وبذرةِ الحيّة، العداوةَ المستقبليّة بينِ «ابن الإنسان» والشيطان.

كلّ الشعوب والأمم انتظرت المخلِّص على هذا النحو. فكان وصول مخلِّص وفادٍ انتظارًا عموميًّا للأمم كافّة. وكما بدت الأمم بانتظار مخلِّص، على المنوال عينه كان هذا الانتظار مضمون عبادة إسرائيل. لقدً انتظروا، عبر المخلِّص المرتقَب، أن تتلقّى البشريّة كلّ الصلاح الآتي. انتظروا عبره إبطال استبداد الشيطان، وتحرّر الجنس البشريّ من عبوديّة العدوّ، والمصالحة والشركة مع الله. ويصف النبيّ والملك داود المخلص المنتظَر هذا، وفادي البشريّة على أنّه: «ابن الإنسان» (مزمور ٢: ٧، ١٠٩). كما يسمّي النبيّ دانيال المخلِّص الآتي «المسيح الأمير» الذي رآه في رؤيا بشكل «ابن الإنسان»، كما يحدّد أيضًا موعد وصوله (دانيال ١٠: ١٦).

فكان اسم، «ابن الإنسان»، الاسم الدقيق للمخلِّص والمميِّز له، الاسم الذي به انتظرته كلّ أمم الأرض. وتاليًا استعمل مخلِّصنا هذا الاسم الذي يميِّزه كلّما تكلّم على نفسه. وعلى سبيل المثال، في الفصل الثامن والعشرين من إنجيل متّى، في كلّ مرّة كان الربّ يتكلّم على نفسه، كان يدعو نفسه «ابن الإنسان». كما يستعمل الإنجيليّون الآخرون، مرقس ولوقا ويوحنّا، تحديدًا مماثلاً في ما يخصّ هذا الاسم. أمّا الأسماء التالية: «يسوع المسيح» و«عمّانوئيل» و«ابن المبارَك» و«ابن داود»، فهي عاجزة، حين تُستعمل بمفردها، عن نقل المعنى الذي يعبِّر عنه اسمُ «ابن الإنسان» المميّز. وحده «يسوع» يعبِّر عن معنى كونه

مخلِّص البشريّة. بينما يحمل اسم «المسيح مسيّا» معنى صفات المخلِّص النبويّة والكهنوتيّة والملكيّة. وأمّا الاسمان «ابن المبارَك» و«ابن داود»، فالأوّل يعبِّر عن طبيعة المسيح الإلهيّة، بينما يعبِّر الثاني عن طبيعته البشريّة وسلالته. وهكذا فلم يكن أيٌّ من هذه الأسماء المذكورة أعلاه قادرًا، بمفرده، على إعطاء معنى كامل وتامّ لشخص ربّنا، لأنّ كلاً منها يعبّر عبر خاصّيّة واحدة فقط من خصائصه ويشير إليها. فكان من الضروريّ أن يصف نفسه وصفًا شاملاً، مستعملاً اسمًا قادرًا على الإشارة إلى كلّ سماته. اعتبر الربّ والإله-الإنسان أنّ لقب «ابن الإنسان» هو الوصف الأكثر ملاءمة لشخصه، لأنّه يعطي وصفًا كاملاً للإله-الإنسان ويعبِّر عن كلّ صفاته.

الفصل الثالث
حول انتظار الأمم

حفظت الأمم كلّها وعد الله في ذاكرتها بشكل حيّ، هذا الوعد المتعلّق بمجيء المخلّص والفادي، وخبّأته في أعماق أفئدتها ككنز وميراث لا يثمَّن. لم تنسَ أمّة على الإطلاق وعد الخلاص، بل حافظت عليه مهما فسدت ومهما هجرت الإله الحقيقيّ، مثل تراث معنويّ، مثل مرساةِ رجاءٍ على مرّ كلّ القرون، وكاحتجاج على استبداد الشيطان ومملكةِ الشرّ. اليهود واليونانيّون والرومان والمصريّون والصينيّون والفرس والهنود والعرب، وحتّى سكّان العالم الجديد، جميعهم انتظروا مجيء إلهٍ مخلِّص آتٍ بهيئة بشريّة، سوف يعلِّم الحقيقة الكاملة بهدف إبطال الشرّ وإحلال السلام، وجعل كلّ الأمم إخوة وجلب ملكوت السماء على الأرض.

وما زال اليهود ينتظرون «ابن المبارَك» الذي سيظهر في وسطهم بهيئة بشريّة. فقد ذُكر في الكتاب المقدّس أنّ رئيس الكهنة سأل يسوع: *«أأنت المسيح، ابن المبارَك؟»*، وأنّ يسوع قال له: *«أنا هو. وسوف تعاينون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوّة وآتيًا في سحائب السماء»* (مرقس ١٤: ٦١-٦٢). وفي جواب يسوع هذا عن سؤال رئيس الكهنة عمّا إذا كان هو «ابن المبارَك»، يجيب يسوع بالإيجاب، مساويًا شخص المسيح «ابن المبارَك» بشخص «ابن الإنسان». وانتظرت السامريّة مَن سوف يعلمهم الحقيقة كاملة ويعلن كلّ شيء لهم. «ابن الإنسان» الذي تكلّم مع المرأة السامريّة (يوحنّا ٤: ٢٦) اعترف بأنّه هو الشخص

المنتظَر.

آمن الصينيّون بأنّ رجلاً قدّيسًا سوف يُرسل من السماء، وهو يَعلم كلّ شيء ويملك كلّ قدرة في السماء وعلى الأرض. وحافظوا على تقليدٍ مفاده أنّه سيظهر إلى غربهم رجلٌ قدّيس ويلهم إيمانًا فوريًّا. وتذكر كتبهم المقدّسة زمنًا تعود فيه كلّ الأمور إلى حالتها الأصليّة ما أن يظهر بطلٌ، راعٍ، قائد كلّيّ القداسة ومعلّم كونيّ للحقيقة الأسمى. وقد شهد كونفوشيوس[٢] قائلاً: «أنا كونفوشيوس، سمعت بأنّه سوف يظهر في البلدان الغربيّة رجل قدّيس سيقوم بأعمال لا عدّ لها، بأنّه سوف يكون مُرسَلاً من السماء وسيحكم العالم بأسره». وتبدو هذه النّبوءة قد تحقّقت في شخص ربّنا يسوع المسيح الذي قال لتلاميذه بعد قيامته: *«دُفع إليّ كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض»* (متّى ٢٨: ١٨).

كما انتظر العرب مجيء محرِّر ومخلِّص للأمم. وانتظر اللاّب[٣] بيرون أو كيمفادوكسين. وكذا سكّان تايلاندا الذين وضعوا رجاءهم في سومونا كودام. وانتظرت الشعوب الأميركيّة مخلِّصًا من الشرق، بينما انتظر المكسيكيّون أحد ملوكهم القدماء الذي سوف يزور شعبه من جديد، ويعود من الشرق بعد أن يكون قد سافر حول العالم كلّه. كما انتظر الفرس نبيًّا عظيمًا دعوه «كلمة الله» سوف يكون وسيطًا بين الله والإنسان. وكان للهنود أيضًا الإيمان عينه، إذ انتظروا تجسّد

---

[٢] فيلسوف صينيّ عاش بين ٥٥١-٤٧٩ ق.م.

[٣] شعب عاش في Lapland (منطقة في شمال النروج والسويد وفنلندا وروسيا) قصار القامة، كبار الرؤوس، ذوو خدود مرتفعة وأنوف مسطّحة وما إلى ذلك من السمات المغوليّة.

بيرشنون أو براهما[٤] ليداوي كلّ الشرّ الذي أدخله الثعبان العظيم كالي أو كاليغاس.

وإلى ذلك انتظر اليونانيّون معلِّمًا سوف يرشد العالم في الحقّ[٥]. وعُرفت في التقليد أسطورة تقول بأنّ القدير سوف يأتي من السماء وإيّاه يدعو الجميع مخلِّصًا، وأنّه لن يكون بمقدوره أن يلغي قوّة الشرّ بأيّة طريقة من الطرائق، إلاّ إذا كابد هو نفسه آلامًا كثيرة.

ويذكر بلوتارخيوس[٦] في كتاباته عن إيزيس وأوزيريس[٧] مثالاً على ذلك في معرض شرحه المستفيض عن لاهوت الفرس، حين أصبحت الأمور الشرّيرة مختلطة بالصالحة، ويبدو العالم وكأنّه غير مضبوط. ويعتقد العديد من الرجال الحكماء (بمَن فيهم زرادشت[٨] الذي عاش قبل الطروادييّن بـ٥٠٠ عام) بوجود إلهَين غريمَين: أورومازس وأريمانيوس، الأوّل إله الخير والثاني إله الشرّ (وما بينهما ميثراس). ويشير بلوتارك إلى نبوءةٍ تؤكّد ما يلي: «ولكن يأتي زمن محدّد حين يصدر قرارٌ بأنّ أريمانيوس المتورّط في جلب الطاعون والمجاعة، سوف

---

[٤] هو جوهر روح الكون الأسمى والأزليّ في «الحلوليّة» الهندوسيّة.

[٥] أفلاطون، الألسيبياد الثانية، ٣١.

[٦] ولد بلوتارك قبل العام الـ٥٠ وتوفيّ العام الـ١٢٠. واستعمل قراءاته التاريخيّة وخبرته الشخصيّة في آن في مجال السياسة. كان هدفه أن يضرب مثلاً عن الفضيلة الشخصيّة في مهن رجال عظام ويغضّ الطرف في الوقت عينه عن بشاعاتهم.

[٧] إيزيس هي آلهة الخصب عند المصريّين وشقيقة أوزيريس وزوجته. يصوّرونها مع إكليل من قرون البقر وقرص الشمس. أوزيريس عند المصريّين القدماء إله العالم السفليّ وقاضي الأموات، زوج إيزيس وشقيقها.

[٨] أسّس الزرادشتيّة، وهو نظام الديانة القديم عند الفرس قبل اعتناقهم الإسلام. عاش زرادشت، بحسب التقليد الفارسيّ نحو السنة الـ٦٠٠٠ ق.م. ولكن أيًّا من الأكاديميّين الغربيّين لا يقبل بهذا التاريخ. وتقترح دراسة حديثة التاريخ ١٢٠٠ ق.م. وتشمل مبادئ الزرادشتيّة الموجودة في كتاب Zend-Avesta الاعتقاد بحياة أخرى وبالصراع المتواصل بين روح الخير الكونيّ (أورمازد) وروح الشرّ (أحريمان)، وأنّ الخير سوف ينتصر في النهاية.

يُباد بهما نهائيًّا ويختفي. ثمّ تصبح الأرض مسطحًا مستويًا وعندها ستكون هناك طريقة واحدة للعيش، وطريقة واحدة لحكم شعب مبارَك جميع أفراده يتكلّمون لغة واحدة. ويقول ثيوبومبوس إنّ الحكماء يعتقدون بأنّ إلهًا سيَهزِم والآخر سيُهزم، كلّ واحد بدوره على مدار ثلاثة آلاف سنة، وأنّهما سوف يتقاتلان ويتحاربان بعد ذلك لمدّة ثلاثة آلاف سنة أخرى، وكلّ واحد سوف يُبطل أعمال الآخر. وفي النهاية تزول الهاوية (Hades). وبعدها يصبح الناس سعداء، ولن يعودوا بحاجة إلى طعام ولا يعانون أيّ حزن. ويكون أنّ الإله الذي سعى من أجل إحداث كلّ هذه الأمور، سوف يستكين ويرتاح لمدّة من الزمن، وليس لوقت طويل بالحقيقة، ولكنّ الإله يرتاح بقدر ما يمكن أن يحتاج الرجل العادي إلى النوم»[٩].

في الأسطورة المصريّة عن «حورس»، يبدو انتظار الشعب وصولَ مخلِّص واضحًا جدًّا. ويمثّل أوزيريس وأيزيس بدء النشاط والألم. ويقومُ شيطان شرّير تحوّل إلى تنّين هائج بملء الأرض والمحيط كليهما بالشرّ. ويكون أنّ صبيًّا، فاديًا، يولد لإيزيس وأوزيريس، يُدعى «حورس»، يصرع التنّين ويعيد السعادة والسلام.

ويقرّ فولاجيروس بأنّه لم يوجد قطّ شعب، في أيّ مكان من العالم، لم يكن يعيش على مثل هذا الانتظار. ويستنتج العالم الجيولوجيّ المعروف كيوف أنّه: «يستحيل أن تكون مجرّد الصدفة هي التي أحدثت تلك الاشتقاقات العالميّة. فإنّ أفكار أمم ليس بينها سوى القليل من التفاعل ولا يربطها أيّ أمر مشترك على صعيد اللغة أو الديانة أو

[9] Plutarch, Moralia, Isis and Osiris, Trans. Franck C. Babbit. Cambridge: Harvard University Press, 1936, Vol 5, p 115.

الشعب، لا يمكن أن تتّفق حول موضوع ما إلاّ إذا كان أساس هذه الأفكار هو الحقيقة».

كم هو جليّ تقليد الأمم هذا! وكم يؤكّد جليًّا، في داخل نقاوته الكاملة، الترتيبَ الكامل لتاريخ الإنسان، المتواصل وغير المتجزّئ، منذ ابتداء العالم! ففيه نجد التقليد: سقوط الإنسان من طريق الشيطان، وخلاص الإنسان من طريق المسيح، ومعركة الإلحاد ضدّ تعليم المخلِّص، وسيطرة التقوى من طريق انتقال الحقيقة المعلَنة، ثمّ إعادة إحلال السلام وملكوت الله على الأرض.

مَن يغفل عن رؤية التماثل، في الأمور المذكورة أعلاه، مع نبوءات النبيّ أشعياء الذي سبق وأخبر الذين كانوا على وشك أن يستقبلوا المخلِّص بأنّ: «*صوت صارخ في البرّيّة: أعِدّوا طريق الربّ واجعلوا سُبل إلهنا في الصحراء قويمة. كلّ وادٍ يرتفع وكلّ جبل وتل ينخفض والمنعرج يقوَّم ووعر الطريق يصير سهلاً ويتجلّى مجد الربّ ويعاينه كلّ بشر لأنّ فم الربّ قد تكلّم*» (أشعياء ٤٠: ٣-٥). ويتنبّأ سقراط أيضًا بصوت مهيب مثل أشعياء آخر، أنّه من طريق الله وحده يمكن أن يتحرّر الإنسان من الخطيئة. إليكم ما يقول: «لن تجدوا أيّها السادة آخر مثلي بسهولة، وإن أخذتم بنصيحتي سوف تنقذون حياتي. ولكن ربّما تستفيقون من نعاسكم قبل أن ينقضي وقت طويل، وفي انزعاجكم، تأخذون بنصيحة أنيتوس وتُجهزون عليّ بلطمة واحدة من دون اكتراث؛ وربّما تستغرقون في النوم بعدها حتّى نهاية حياتكم، إلاّ إذا أرسل اللهُ أحدًا، حرصًا منه عليكم، ليحلّ محلّي»[١٠].

[10] Plato, *The Last Days of Socrates, "Apology"*, Trans. Tredennick, Hugh. Torrant, Harold. London: Penguin Books Ltd., 1954, p.63.

وكان المقام[11] في ديلفوس، كما يذكر بلوتارك، حارسَ النبوءة الغامضة الأكثر قدمًا التي تتحدّث عن ولادة في المستقبل لابنٍ للإله أبّولو، سوف يعيد ملكوت الاستقامة على الأرض. إنّه المعلّم الذي يخبر سقراطُ الألسيبياد عنه مشيرًا عليه بتأخير التقدمة إلى حين وصول ابن هذا الإله، الذي منه سوف نتعلّم «كيف يجب أن نتصرّف تجاه الآلهة والبشر»: «آه يا آلسيبياد، لا تطلب شيئًا من الآلهة. لننتظرْ حتّى يأتي شخص مرسَل من السماء يعلّمنا كيف علينا أن نتصرّف تجاه الآلهة والبشر. ولنأمل ألاّ يكون يوم الإرسال هذا، يومُ النعمة الإلهيّة، بعيدًا جدًّا»[12].

وتبدو نبوءة سقراط هذه وكأنّها تعبّر عن روح كلمات المرأة السامريّة التي بادرت يسوع بالقول: «أعلم أنّ مسيّا الذي يُقال له المسيح يأتي فمتى جاء ذاك يخبرنا بكلّ شيء» (يوحنّا ٤: ٢٥).

وعلى نحو مماثل، برهن الحكيم موريقيوس، بأقصى ما يكون من التحقّق، أنّ هناك تقاليد غير مذكورة تتحدّث عن سقوط الإنسان والإعلان عن مسيّا الآتي، قد رأت النور في زمن رؤساء الآباء وانتقلت في كلّ أنحاء الشرق، وعلّمت كلّ العالم الوثنيّ في ذلك الوقت، أن ينتظر وصول شخص مجيد وقدّيس قرابة زمن مجيء يسوع المسيح.

ويقول باسكال بوحي إلهيّ: «لاحظوا أنّ مسيّا كان منتظرًا باستمرار ومعبودًا منذ إنشاء العالم؛ وأنّ نبوءة مسيّا قد أُبلِغت للإنسان الأوّل مباشرة بعد سقطته؛ ومنذ ذلك الحين وُجد على الدوام أناس

---

[11] بالإنكليزيّة oracle وهو عند اليونانيّين والرومان القدماء المكان الذي يأتي إليه الناس لاستشارة الآلهة. وكانت دلفوس مدينة في فوسيس القديمة، في اليونان، ومكانًا مشهورًا تجري فيه احتفالات للإله أبّوللو.

[12] Plato, Second Alcibiades, 13 – 14.

تنبّأوا، بكشفٍ إلهيّ، عن ولادة الفادي الذي سوف يخلّص شعبه؛ وأنّ ابراهيم تنبّأ، بإيحاء من الله، بولادة مسيّا من ذرّيّته؛ وأنّ موسى والأنبياء بعده أعلنوا عن زمن مجيء مسيّا وأسلوب هذا المجيء... وأخيرًا أنّ يسوع المسيح قد أتى بالحقيقة كما أُخبر عنه سابقًا؛ هذا بديع!»[١٣]

أمّا في أسطورة باندورا وبروميثيوس فقد أُهمل التقليد المتعلّق بتألّم فادي الإنسانيّة الآتي. وبقي في قرارة صندوق باندورا أملٌ: مرساة خلاص الجنس البشريّ. وتقول الأسطورة إنّ كلّ الشرّ قد دخل إلى العالم عبر المرأة حين تأثّرت سلبًا فعصيت رغبةً منها بالمعرفة. ووُجد في صندوق باندورا الغامض، رغم امتلائه بالأغراض الرديئة، شيءٌ صالح في القعر: خيرٌ آتٍ، خير يحتوي على أملٍ، أمر يوازن الشرّ سوف يعيد إلى العالم السلام بعد أن كان متعكرًا. باختصار: وُجدت في صندوق باندورا خلاصةُ كلّ التاريخ الدينيّ للجنس البشريّ. واختبأت في أسطورة باندورا الحقيقة حول الخطيئة الجَدّيّة وترقّب الجنس البشريّ للفادي الآتي.

في نهاية تراجيديا بروميثيوس للكاتب أسخيلاوس[١٤] يدخل هرمس ليحصل من بروميثيوس على توضيح بخصوص نبوءته الفظيعة التي تفوّه بها عن زفس. ولكن بروميثيوس يرفض وحينها يتنبّأ هرمس بإدانته المتواصلة، على الشكل التالي:

«لن يكون لك فرار. في البدء هذا الجرف الوعر
مع الرعد والتماع البرق،
سوف يقطعك الأب إربًا ويخفي جسدك

[13] Blaise Pascal, *Pensées*, London. Penguin Books, 1995, p. 116.

[١٤] كاتب يونانيّ ألّف مسرحيّات تراجيديّة وعاش بين ٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م.

ملفوفًا في مشبك صخريّ داخل أعماقه؛
ويكون عليك أن تمضي فترة من الزمن مملّة
قبل أن ترى النور من جديد، وقد عاد.
ثمّ ينقضّ عليك كلب زفس المجنّح، النسر الأحمر،
ويقطع أشلاء كبيرة من لحمك،
كضيف غير مدعوّ يصنع منك كلّ يوم مأدبة فاخرة.
كبدك المدمّى حتّى السواد يصبح وجبته.
ولا تتوقّع نهاية لهذا الألم
إلى أن يأتي إلهٌ ويظهر نفسه خَلَفًا
ليحمل عذاباتك على نفسه ويرتضي
النزول إلى الهاوية التي لا ضوء فيها
وظلمات أعماق الجحيم»[15].

لقد اشتهى بروميثيوس أنّ يصبح مساويًا لله فحُكِم عليه بعقاب مخيف. ومع ذلك، فهو، في أعماق هذا العقاب، يحتضن الرجاء بفادٍ ما. وتشارك المرأة إيو مع الرجل هذا المصير المزدوج، وعبرها وحدها سوف يظهر فاديهما المشترك، وستكون ولادته بالواقع ذات طابع معجز. وسوف يأتي هذا الولد إلى العالم، بقوّة الله، من المرأة الملقّحة التي حافظت على عذريّتها تامّة ـ إذ يسمي أسخيلاوسُ إيو «عذراء نقيّة» ـ وسوف يدلّ اسم هذا الولد على سلالته المعجزة، الذي سيكون ابن الله وابن امرأة، وبالنتيجة إلهًا وإنسانًا معًا. سوف يهدّئ عدل والده الساخط تجاه الإنسان، ويبيد العدوّ، مصدر الشرّ،

[15] Aeschylus, *Prometheus Bound*, Trans. David Grene, Chicago: University of Chicago Press, 1956, verses 1015-1028.

والمسؤولَ عن كلّ عذاب بروميثيوس. فيهوي هذا العدوّ من عرشه وتتحقّق اللعنات التي وجّهها له منذ البدء حاكمُ السماء.

تتضمّن أسطورة بروميثيوس هذه تتضمّن كاملَ الوعد الذي أعطاه الله للإنسان بخصوص الفادي الذي سوف يسحق رأس الأفعى، الشيطان، مصدر الشرّ، والذي سيحلّ سيطرة قدرته، ولكن بشكل آخر مُصاغ بالاستعارات، ولكنّه هو ذاته في الجوهر.

وعلى هذا النحو نجد حدث سقوط الإنسان وارتداده على الله في جميع تقاليد الأمم بشكل متفاوت، إلى جانب الوعد وانتظار محرِّر وسيط كمخلِّص للإنسان. وممّا سبق يصبح التالي أيضًا واضحًا جدًّا: هناك مصدر واحد خلّاق ومصدر دينيّ واحد، إله واحد. لقد وجدت في البدء عائلة واحدة: العائلة التي خطئت تجاه الله، والتي حصلت على الرحمة من الله، والتي حصلت على المواعد وحافظت عليها بالتقليد على مرّ كلّ الأجيال اللاحقة التي تفرّقت في أقطار وجه الأرض.

الفصل الرابع
لقد أعلن الله عن مجيء الفادي

في العالم الوثني، تنبّأ رجال ونساء ملهَمون من الله، عن مجيء فادي الجنس البشريّ الآتي. وتؤكّد الشهادات المحفوظة حقيقة هذه الأقوال. فقد أرشد الله، بأبوّته للجنس البشريّ أجمع، حتّى الوثنيّين، باتّجاه الإيمان بالفادي الآتي، بإعلانه لهم مجيئه القادم. ويعبِّر ثيوفيلوس الأنطاكيّ عن الرأي ذاته في الرسالة إلى أوتوليكوس، ويشهد بالآتي: «وأمّا رجال الله الذين حملوا في أنفسهم الروح القدس وأصبحوا أنبياء، لكونهم ملهَمين وحكَّمهم الله، فقد أصبحوا متعلّمين من الله، قدّيسين وأبرارًا. ولذا اعتُبِروا هم أيضًا مستحقّين هذه المكافأة: أنّ عليهم أن يصبحوا أدوات لله ويقتنوا الحكمة التي منه. تكلّموا بهذه الحكمة بخصوص خلق العالم وكلّ ما عداه من الأمور. كما تنبّأوا بأوبئة ومجاعات وحروب. ولم يكونوا واحدًا أو اثنين فقط، بل كثرةً، وظهروا في أزمنة وأوقات متنوّعة وسط اليهود. ووُجدت العرّافات[١٦] أيضًا عند اليونانيّين. وتكلّموا جميعًا عن أمور متّفقة ومنسجمة مع

---

[١٦] باليونانيّة Σίβνλλα (بالإنكليزيّة Sibyl) ومعناها «رغبة الله» أو «إرادة الله». كانت العرّافات نساء يتنبّأن فرديًّا، وكنّ بالعادة كاهنات من الأزمنة القديمة، معروفات فقط في الأسطورة، كما يعلم الجميع. وكان للعرّافات تأثير في رأي عامّة الشعب عبر نبوءاتهنّ. وكانت الأكثر شهرة بينهنّ العرّافة التي اقترن اسمها بمدينة إريثريا. ولكن وُجدت أيضًا عرّافة في ديلفوس. كما ذُكرت عرّافة من بابل. وأصبحت عرّافة Cumae التي عاشت في القرن السادس ق.م. على درجة كبيرة من الأهمّيّة بفضل تأثيرها في روما. ونجد إشارات إلى بعض العرّافات عند أسخيلاوس (٤٥٨ ق.م.) كما عند فيرجيل (٧٠-١٩ ق.م.). وكان فنّ الكتابة في اليونان يحفظ منذ القديم أقوال النبوءات، ثمّ بدأت هذه العادة بالانتشار نحو السنة ٧٥٠ ق.م. وفي ما بعد بدأت بعض المدن بصنع مجموعات رسميّة من النبوءات. (Vid. W. Burkert, *Greek Religion,* Cambridge, Harvard University Press, 2000)

بعضها البعض، عمّا حدث قبلهم وفي أيّامهم على السواء، وعن الأمور التي تحقّقت في أيّامنا هذه: لذا فإنّنا مقتنعون أيضًا بخصوص الأمور التي سوف تحدث مستقبلاً، لكون الأولى قد تحقّقت أيضًا»[١٧].

كما تكلّم كليمنضس الإسكندريّ بشكلٍ مشابه وليس فقط على الأنبياء، بل على الفلاسفة اليونانيّين أيضًا من أمثال سقراط وأفلاطون وغيرهما[١٨]. وعلى نحو مشابه يقرّ أوريجانِس بدرجات متفاوتة من الإلهام الإلهيّ حتّى بين الوثنيّين. ولكن لِمَ يفترض بنا أن ننكر الإلهام الإلهيّ عند الوثنيّين؟ أيعرف الله المحابَاة؟ ألعلّه أبو الأمّة اليهوديّة وحدها؟ أم أنّ فادي البشريّة الآتي هو أيضًا فادي كلّ البشريّة؟ أم لعلّ الله لليهود فقط وليس أيضًا للوثنيّين؟ فلِمَ عليه إذًا أن يهمل الأمم حتّى تغرق في عدمِ الإيمان وفي اليأس؟ لِمَ عليه ألاّ يحضِّرهم هم أيضًا بالمثل لاقتبال المخلِّص والفادي الآتي، بخَاصّة وأنّه عرف، وهو الكلّيّ المعرفة، أنّ الأمم سوف تمجِّده وتعبده وتؤمن به؟ لذلك حصلت الأمم على موهبة الوحي الإلهيّ وأنبأ رجال وثنيّون، كانوا ملهَمين من الله، بمجيء فادٍ ومخلِّص للعالم.

ويشهد تاسيتوس[١٩]، وهو مؤرّخ رومانيّ، بأنّ كلّ الأمم تطلّعت إلى اليهوديّة كمحورٍ لرجائها المشترك، إذ منها سيظهر المَلك المرتَقب: «بشكل عامّ كان الجَميع واثقًا بالنبوءات القديمة التي قالت إنّ الشرق سينتصر قريبًا، وإنّهم سيعاينون بعد وقت قصير مَن سوف يحكمون

---

[17] «*Theophilus to Autolycus*», Book 2, Chapter 9.

[18] «*The Stromata, or Miscellanious*», Book 1, Chapter 5.

[١٩] وُلد تاسيتوس في إيطاليا في العام ٥٦ م. وكان بليغًا ذائع الصيت، واختار أن يدوّن تاريخ روما. له مؤلّفات متعدّدة اعتمد فيها من ناحية على أعمال تاريخيّة هي الآن مفقودة، ومن ناحية أخرى على مدوّنات عامّة وعلى خبرته الشخصيّة.

العالم آتين من اليهوديّة»[٢٠].

وحين سافر أوغسطس إلى ديلفوس للتقصّي عن النبوءة المتعلّقة بخلَفه، كما جاء في مؤلَّف «التاريخ الكنسيّ» لسويدان ونيكيفوروس كالليستوس، حصل على الجواب التالي:

«يأمرني طفل يهوديّ، هو ملك الآلهة المباركين،
بأن أخرجِ من هذا المعبد وأعود إلى الهاوية من جديد.
فارحل إذا بصمت من هياكلنا».

وقد وُلد ربّنا يسوع المسيح في عهد أوغسطس المذكور هذا. وتنشد كنيستنا مع إنجيل القدّيس لوقا: «حين ملك أوغسطس وحده على الأرض، انتهت ممالك البشر الكثيرة، وأنتَ حين أصبحت إنسانًا من العذراء النقيّة تحطّمت آلهة العبادة الوثنيّة الكثيرة»[٢١]. وكثيرة أمثال هذه النبوءات التي تتحدّث عن انتظار الأمم[٢٢].

---

[20] *Histories*, Book 5, Chapter 13, Trans. Alfred J. Church & Williams J. Brodribb. New York: Random House Inc. 1942, p 666.

[٢١] كتاب الميناون.

[٢٢] قالت القدّيسة العظيمة في الشهيدات كاترينا في معرض ردّها على ادّعاء أحد الفلاسفة بأنّ أحدًا من المعلّمين القدماء لم يأتِ على ذكر المصلوب: «لكي نؤكد حقيقة أنّ القدماء قد تكلّموا عليه بالفعل، لنسمع ما تقوله كاتبتكم الواسعة المعرفة سيبيل عن تجسّده الإلهيّ وصلبه الخلاصيّ: «ظهر واحد وسار على هذه الأرض المنفيّة، هذا الذي أصبح جسدًا من دون خطيئة وحلَّ بألوهته الأهواء التي لا علاج لها من دون عذاب. وإذ حسده شعب كافر، حُكم عليه بالموت والتعليق». واسمعْ كلمات أبّولو الصادقة الذي اعترف، رغم إرادته، بالإله غير المألوم، مكرَهًا بقدرة الله غير المحدودة: «الذي تألّم هو إشعاع ثالوثيّ سماويّ. الذي تألّم هو الله، رغم أنّ الألوهة كانت غير معرّضة للألم. وكان له، في الوقت عينه، جسد مائت، رغم أنّه غير مائت. إنّه إله وإنسان. لقد احتمل الموت، والصليب، والسخرية والدفن...» وهلمّ جرًّا. وهكذا أقرّ أبّولو بأنّ المسيح هو الإله الحقيقيّ وأنّه مساوٍ في الأزليّة للآب غير المولود، الذي هو مصدر كلّ الأشياء ومبدؤها وأساسها» (The lives of the Holy Women Martyrs, Buena Vista: Holy Apostles Convent, 1991, p. 506). كما أدرجت عرّافة إريثريا اسم يسوع في أبياتها المتعلّقة بالدينونة: «حين تظهر إشارة الدينونة سوف تتصبّب الأرض عرقًا، وسيأتي مِن السماء مَن سيصبح ملك الأبديّة ويظهر ليدين كلّ أحدٍ وكلّ العالم. وسوف يرى المؤمنون وغير المؤمنين معًا اللهَ العليّ مع

كما يشهد المؤرّخ الرومانيّ سويتونيوس[٢٣] على الحدث عينه بلهجة مماثلة، فيقول: «امتلأ الشرق كلّه بحديث عن الرأي القديم الراسخ أنّ الله قد سبق وحدّد أنّه سيظهر مِن اليهوديّة في ذلك الزمان مَن سوف يحكمون العالم»[٢٤].

ويقول الشاعر الروماني فيرجيلوس[٢٥] في معرض تفسيره نبوءة تلفّظت بها عرّافاتٌ قديمات العهد وتعلن عن مجيء ملكٍ ينبغي أن يعترف به كلُّ الذين يرغبون بالخلاص، وإذ فشل في محاولة تطبيق هذه النبوءة على حاكم شاب من تلك الحقبة (لم يُذكر اسمه): «لقد حضرتْ أخيرًا السنون التي غنّتها العرّافة. وأضحى وشيكًا ابتداءُ ترتيبِ الأزمنة اللامتناهي. ها قد أُرسل جيل جديد من السماء... إنّ ولادَة هذا الابنِ التي سوف تُنهي عصر الحديد وتقيم العصر الذهبيّ على الأرض كلّها، سوف تكون قاعدة حُكمكم الملائم وحرّيّتكم الخالصة. وستظهر هذه العلامة عن الحقبة الجديدة إبّان عهدكم، يا بوليون. ومن ثمّ، إن بقيت آثار لتعدّيات الشعوب، فسوف تتنفّس الأرض بأجمعها لأنّها تحرّرت من الخوف الذي أبقاها في العبوديّة لسنين عديدة». كما يقول في القصيدة ذاتها: «الذي عبره ستتحقّق كلّ هذه المعجزات، سوف يحصل على الحياة من حضن الألوهة، ويكون متميّزًا عن كلّ

القدّيسين في نهاية الزمان. وهو، حاملاً جسدًا، سوف يدين أرواح البشر من على منبر». وتشكّل الأحرف التي تبدأ بها الأبيات، باليونانيّة، كلمة ΙΗΣΟΥΣ التي معناها «المسيح» (St. Nicodemos the Hagiorite, Unseen Warfare, Athens: N. Panagopoulos, 1989, p. 252).

[٢٣] كان سويتونيوس معاصرًا لتاسيتوس.

[24] Suetonius, *Lives of the Ceasars,* Trans. Catherine Edwards, Oxford: Oxford University Press, 2000, p. 262.

[٢٥] وُلد فيرجيليوس في سنة ٧٠ ق.م. وتأثّر في الشعر بنماذج إسكندرانيّة. ومن مؤلّفاته: *Early Poems, Eclogues, Aeneid*.

الكائنات السماويّة ويظهر أعلى منهم، وسوف يحكم العالم، بإحلاله السلام بقدرة أبيه... لذا فاحضرْ يا ابنِ السماء المشتهى، أيّها الجذع العظيم لزفس! لقد اقترب الزمان المعلَن عنه. إحضر لتستلم الشرف العظيم الذي يخصّك. ها العالم بأسره يرتعش لمجيئك. الأرض والمحيط والسماوات ترتعد. وكلّ الأشياء تثب مع اقتراب الحقبة الجديدة.

كما تكلّم أفلاطون بوحي إلهيّ[٢٦]. لنسمعه يعلن، على غرار أشعياء الجهير، موتَ الصليب ًالذي قاساه البارّ الذي تألّم بسبب برِّه: «ينبغي لنا أن نعرّيه من كلّ شيء عدا استقامته، ويجب أن تكون صورتنا له مرسومة بطريقة معاكسة تمامًا لصورة الرجل غير المستقيم. ويجب أن تكون لرجُلنا المستقيم أسوأ سمعة بعمل السيّئات، رغم أنّه لم يرتكب عملاً سيّئًا، وهكذا يمكننا أن نختبر استقامته فنرى إن كانت تضعف بإزاء انعدام شعبيّته وكلّ ما يذهب معها. يجب أن ننشر عنه، مدى الحياة، سمعة الخبث التي لا يستحقّها، ونجعله يلتصق بمساره المختار حتّى الموت. بهذه الطريقة، وبعد أن ندفع الحياة البارّة والحياة غير البارّة كلاًّ إلى حدّها الأقصى، سوف نتمكّن من أن نفصل في أيّهما الأسعد... وسوف يقولون إنّ الرجل البارّ، كما صوّرناه، سيُجلد، ويُعذَّب ويُسجن، وسوف تُقتلع عيناه. وبعد أن يكابد كلّ مهانة،

[٢٦] حين نزل المسيح إلى الجحيم ليبشّر النفوس المسجونة، لم يصدّق بشارته سوى الذين كانوا يملكون في ذواتهم بضع بذور من التقوى والفضيلة في حياتهم على الأرض، فتحرّر هؤلاء من الجحيم. ويقول القدّيس نيقوذيموس إنّ هذه كانت حال كلّ الأبرار الذين عاشوا إمّا قبل الناموس أو بعده، إلى جانب العديد من اليونانيّين والفلاسفة. وهو يستشهد بهذه القصّة المستحقّة الذكر عن أفلاطون والتي دوّنها نيكيتاس من Serres: سوف يقوم إنسان مسيحيّ ويدين أفلاطون الحكيم بإفراط، منتقدًا إيّاه على أنّه ملحد وشرّير. ورغم ذلك فقد ظهر أفلاطون لهذا الشخص في حلم وقال له: « لا تنتقدني، يا عزيزي من دون هدف. فأنا لا أنكر كوني رجلاً خاطئًا، ومع ذلك فعندما نزل المسيح إلى الجحيم، كنتُ أوّل من آمن به» (*An Interpretation of the General Epistles,* Thessaloniki: Orthodoxos Kypseli, 1986, p. 275).

سوف يُصلب. وفي النهاية يتعلَّم أنّ على الإنسان ألاّ يبتغي أن يكون بارًّا، بل أن يبدو بارًّا»[٢٧].

مَن الذي لا يرى تطابقًا عظيمًا في المقابلة بين هذه الكلمات وتلك التي تفوّه بها أشعياء الذي يتنبّأ بآلام الربّ، الذي لم يظهر صالح غيره على الأرض؟ هاكم ما يتنبّأ به أشعياء الجهير الصوت عن هذا الإنسان الصالح: «*بذلت ظهري للسياط وخدّيّ للطمات ولم أردّ وجهي عن الإهانات والبصاق... هو حمل آلامنا واحتمل أوجاعنا فحسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومذلّلاً. طُعن بسبب معاصينا وسُحق بسبب آثامنا. نزل به العقاب من أجل سلامنا وبجرحه شُفينا... كحمل سيق إلى الذبح، كنعجة صامتة أمام الذين يجزّونها ولم يفتح فاه. بالإكراه وبالقضاء أُخذ فمَن يفكّر في مصيره؟ قد انتُزع من أرض الأحياء وبسبب معصية شعبي ضُرب حتّى الموت... مع أنّه لم يصنع عنفًا ولم يوجد في فمه مكر... لأنّه أسلم نفسه إلى الموت وأحصي مع العصاة*» (أشعياء ٥٠: ٦، ٥٣: ٤-١٢؛ راجع متّى ٢٧ ومرقس ١٤ ولوقا ٢٢، ٢٣ ويوحنّا ١٩).

ونقرأ عن انتظار الأمم في مؤلَّف مكاريوس، رئيس أساقفة موسكو، «اللاهوت العقائديّ»: «كان من الضروريّ أن تنتشر حقائقُ الإيمان، وخصوصًا المواعدُ المتعلّقة بالفادي التي أعطيت منذ البدء للجنس البشريّ بأكمله، والتي انتقلت بالتقليد الشفويّ من الآباء إلى البنين، ومن الأجداد إلى الأحفاد، لتنتشر في كلّ أرجاء الأمم وتصل حتّى إلى الذين تحوّلوا في ما بعد إلى دروب الكفر والوثنيّة. ورغم أنّه كان محتّمًا على هذه الحقائق، التي امتزجت بالاعتقادات الجديدة عند

---

[27] Plato, *The Republic,* Part I, Book II. London: Penguin Books, 1987, p. 48.

الأمم الوثنيّة، أن تتساقط عنها تدريجيًّا نقاوتُها الأصليّة ونزاهتها، وأن تتغيّر، فقد حملت، حتّى في صورتها المتغيّرة هذه، وحفظت للوثنيّين التّقاليدَ المتعلّقة بالتكوين وحالة الإنسان الأولى، وسقوط الأبوَين الأوّلين في الفردوس وخصوصًا، وما هو أكثر دلالة من الكلّ، التقليدَ المتعلّق بفادي الجنس البشريّ وانتظارَ مجيئه».

الفصل الخامس
إشارات مجيء الفادي وعلاماته

يذكر سويتونيوس في «سيَر حياة القياصرة» حدثًا لوحظ جزئيًّا، بحسب شهادة يوليوس ماراثوسٍ: «لوحظت في روما عمومًا معجزة بشّرت بأنّ الطبيعة تنجب ملكا للشعب الرومانيّ. فقلِق مجلس الشيوخ إلى أقصى الحدود وأقرّ أنّه يجب عدم ترك أيّ طفل وُلد في تلك السنة يعيش»[٢٨]. وبقي هذا القرار من دون تنفيذ. وأمّا قرار هيرودوس فقد نُفّذ بالقوّة. لقد فُرض مرسوم هيرودس على جميع المولودين الذكورِ، بمَن فيهم ابنه نفسه، خوفًا من أن يخلعه عن العرش الحاكمُ المنتظَر. أثبت هذا الحدث أيضًا، فضلاً عن الكتاب المقدّس، على يد المؤرّخ الوثنيّ ماكروفيوس الذي ذكر: «حين علم أوغسطس بأنّ هيرودوس، ملك اليهود، أدرج ابنه في عداد الأطفال الذي قتلهم في سوريا، الذين لم يتعدَّ عمرهم السنتين، هتف: «إنّه لمن الأفضل أن يكون المرء خنزيرًا عند هيرودوس من أن يكون ابنًا له»»[٢٩].

وعن توقُّع حضور المسيّا في تلك الحقبة، يذكر أيضًا المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس[٣٠]: «وأمّا الآن، فأكثر ما دفعهم للشروع في هذه

---

[28] Suetonius, *Lives of the Ceasars,* Trans. Catherine Edwards, Oxfords: Oxford University Press, 2000, p. 90.

[٢٩] هذا تلاعب لفظيّ باليونانيّة، إذ إنّ كلمة خنزير (νίής) وكلمة ولد (νίός) لا تختلفان سوى بحرف صوتيّ واحد (Makrovios, *Chronicles,* Book 2, chapter 4).

[٣٠] كان فلافيوس يوسيفوس (٣٧-١٠٠) ابن كاهن، متعلّمًا جدًّا، ترقّى إلى مرتبة محترمة في المجتمع اليهوديّ، والتحق بالفريسيّين في عمر التاسعة عشرة. في ما بعد خدم القائد الرومانيّ تيطس كمترجم ووسيط. وبعد دمار أورشليم السنة ٧٠ م. استقرّ في روما كعميل للإمبراطور ونال حقوق مواطن رومانيّ. تشكّل أعماله المصدر

الحرب هو نبوءة غامضة وُجدت أيضًا في كتاباتهم المقدّسة كيف أنّه قرابة ذلك الوقت، سوف يصبح أحد مواطنيهم حاكمًا للأرض المسكونة»[٣١].

وهكذا فقد أحسّت جميع الأمم بالحاجة إلى مجيء المخلِّص، وكانت جميعها بانتظاره. كان هناك صوت سرّيّ يتكلّم في قلوب الأمم مذكّرًا إيّاها بالوعد الإلهيّ، ومعيدًا إضرام ترقّبها للمخلِّص المُعلَن. كان الشوق إلى حضور المخلِّص يتعاظم ويتوضّح بجلاء بمقدار ما كانت تتكاثر كلّ البلايا. كلّ الشرور كانت تتزايد وترهق كاهل البشريّة، والفساد الأخلاقيّ يُغرق كلّ طبقات المجتمع. ومع ذلك فما عاد يبزغ في أيّ مكان أيّ أمل بالخلاص. كان الكفر والإلحاد على وشك السيطرة على العالم. وقد دوّنت صفحات التاريخ في متونها انحطاطَ الإنسان المطلقَ.

الرئيس لتاريخ اليهود من عهد أنطيوخوس إيبفانيس (١٧٥-١٦٣ ق.م.) وحتّى سقوط ماسادا السنة ٧٣. وتعتبر رواية يوسيفوس العيانيّة عن آخر سنوات المقاومة، وبشكل أخصّ عن دمار أورشليم على يد تيطس، ذات قيمة قصوى من أجل فهم هذه الأحداث فهمًا حقيقيًّا. كما يُعتبر مؤرّخًا موثوقًا جدًّا ويصعب أن نبالغ في أهمّيّة إسهام يوسيفوس في فهمنا حقبة العهد القديم من حيث البيئة الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة.

[31] Wiliam Whiston, *The Works of Josephus,* Peabody: Hendrickson Publications, 1987, p. 743.

الفصل السادس
كان مجيء الفادي ذا ضرورة قصوى

يعلّمنا التاريخ أنّه خلال حقبة شيارون والأباطرة، وليس فقط مَن كانوا فاسدين، بل أيضًا الذين أشاد الناس بهم لصلاحهم، أنّ الأخلاق تدهورت وانحطّ الجنس البشريّ. عاد الناس لا يؤمنون بوجود الآلهة ولا بخلود الروح. وشاعت هذه العبارة على عهد نيرون: «Post mortem nihil» أو «لا شيء بعد الموت». وأيضًا عبارة: «Ipsaque mors nihil» التي ترجمتها: «والموت ذاته لا شيء». واعتبر الناس الدينونة الآتية والمكافأة، أسطورةً واختلاقًا. ويشير يوفيلّيانوس إلى أنّه حتّى الأولاد الصغار اعترفوا بأنّهم لا يصدّقون بوجود حياة أخرى وممالك تحت الأرض. «esse aliquos manes, et subterranea regna, nec pueri credunt».

في ذلك الوقت كان الشرّ مسيطرًا على الأرض كلّها. واقشعرّت كلّ الشعوب مشمئزّة لسماعها بالقسوة التي بها عامل الرومانيّون عبيدهم الأسرى؛ إذ يخبرنا التاريخ أنّ آلاف الأسرى كانوا يُعرَضون في حلبات ضخمة كحيوانات مساقة للذبح حيث كانوا يتعرّضون لتقطيع الأوصال، أو يذبحون بعضهم البعض، أو يتعرّضون للافتراس أثناء تصارعهم مع حيوانات متعطّشة للدماء ليكونوا تسلية بغيضة للمواطنين. ويدوّن ديون كاسيان أنّ الإمبراطور المعظّم تراجان نظّم ألعابًا، عند حضوره إلى روما، دامت مائة وثلاثة وعشرين يومًا ذُبح وافتُرس في خلالها عشرة آلاف عبد وأحد عشر ألف بهيمة.

عاشت الأمم من دون صلاح. وشابه الجنس البشريّ فوضى أهملها الله، على ما يذكر أوغسطس التقيّ بشكل جيّد جدًّا.

في ذلك الوقت بدا مجيء مخلّص أو فادٍ أمرًا جوهريًّا. وكان من الضروريّ أن يكون متمتّعًا بسلطةً مطلقة، لكي يسند القناعات المهتزّة التي كانت للأمم، ويثير في الناس احترامًا تقويًّا، ويملأ فراغات قلوبهم، ويلبّي طلبات نفوسهم، وأخيرًا لكي يعيد إحياء الإنسان الذي أفسدته الخطيئة.

ثبت عجز الجنس البشريّ عن تخليص نفسه وتجديد ذاته. كانت كلّ من اليونان وروما واليهوديّة، وهي الأمم التي تمثّل على التوالي الحكمةَ والقوّة والتقوى، عاجزةً، في ذروتها، عن تقديم الرجل المثاليّ الذي يمكن أن يكون قادرًا على دعوة الأمم للّحاق به. وبسبب من التدهور الناشئ، تضاءل كلّ أمل بالخلاص، حتّى التلاشي الكامل. وظهر العجز البشريّ، في حين كانت البشريّة تتسابق نحو الدمار والانحلال. وأظهرت الظروف أنّ المستقبل يحمل معضلة. كان لا بدّ للافتقاد والتدخّل الإلهيَّين من أن يقودا إمّا إلى الخلاص، أو إلى ترْك الأمور للفناء الكامل. اكتملت الأزمنة للنموّ الروحيّ ولتواصل الأمم مع بعضها البعض. أرسل الله، الذي وعد بولادة مخلّص الجنس البشريّ، مخلِّصَ الإنسان المنتظَر: هادم استبداد الجحيم وفادي الجنس البشريّ. هذا الذي أظهر نفسه للإنسانيّة، بشَّر بمجيئه وأبلغ العالم البشرى السّارة معلنًا: «*أنا هو الطريق والحقّ والحياة*» (يوحنّا ١٤: ٦).

ويقول فولغاريس عن مجيء المخلِّص: «حتّى المفهوم العامّ لكلّ شعوب الأرض عن زمن مجيء المسيّا يوبِّخ صراحةً عدم إحساس اليهود. صاح أندراوس، الرسول المدعو أولا: «*لقد وجدنا مسيّا*» (يوحنّا

١: ٤٥). وقالت المرأة السامريّة: «**أعرف أنّ مسيّا سوف يأتي**» (يوحنّا ٤: ٢٥). كما ظهر الهيرودوسيّون في ذلك الوقت، تلك المجموعة الملحدة التي كانت تنادي بهيرودوس على أنّه مسيّا، مشيدةً به بتذلّل. وأرسل الكهنة ولاويّو المجمع أناسًا إلى يوحنّا يسألونه عمّا إذا كان هو المسيح (يوحنّا ١: ١٩). ولكن ظهر أيضًا العديد غيره من الأنبياء الكذبة مدَّعين أنّهم مسيّا، على مثال سيمون الساحر المذكور في أعمال الرسل (أعمال ٨: ٩)، وبار كوشيفوس المذكور في *«التاريخ الكنسيّ»*. لم يكن أمر كهذا قد سُمع من قبل بين اليهود. وغنيّ عن القول إنّ مثل هذا الحديث عن ولادة ملك عظيم ومخلّص سوف يولد من اليهود، والذي كان يُتداول في ذلك الزمان حتّى بين الأمم، لن يعود موضوع نقاش[٣٢]. ولذا أصبح جليًّا من كلّ هذه الأمور أنّ مسيّا قد حضر، وأنّه ما عاد منتظرًا، حتّى ولو كان الشعب اليهوديّ يتمزّق ترقّبًا وانتظارًا».

---

[32] Cicero & Tacitus, Histories.

القسم الثاني
ألوهيّة المسيح

الفصل الأوّل
لقد سعى الإنسان على الدوام إلى الحياة الأبديّة

سعى الإنسان إلى الحياة الأبديّة على مرّ كلّ الأجيال. وفشِل سقوطُه وخطيئته في اقتلاع توقه السرّي، الذي كان متأصّلاً بالعمق داخل قلبه. والحنين إلى الخلود أمر مشهود له في كلّ أمم الأرض وعلى مرّ الأجيال كلّها. رفض الإنسان كلّ شيء، بعد أن أفسدته الخطيئة، ولكنّه لم يتخلَّ عن توقه إلى الخير المطلق. الذي رفض كلّ شيء حافظ على فكرة القانون الأخلاقيّ، وعلى فكرة الفضيلة، وعلى فكرة الخير، وعلى فكرة الحياة الأبديّة. لم ينسَ مطلقًا نسَبَه النبيل بالكامل، بل تذكَّر على الدوام خالقه الواحد، القدرةَ المُنتِجة الواحدة التي منها حصل على وجوده. فأنعشه من جديد هذا الشوق وهذه الأفكار والذكريات، وأقامته من سباته، وأيقظت وعيه المخدَّر أو المستقر في الضلال. لقد أعادت بناء روحه، التي سقطت في المادّيّة، باتّجاه انشغالٍ أكثر روحانيّة، ورفعته إلى التأمل. ودفعته هذه الأمور إلى إدراك سقوطه الخلقيّ، وذنبِه، ومسؤوليّتِه تجاه خالقه، وأرشدته في الوقت عينه إلى وسائل التكفير عن خطاياه.

في ذلك الزمان أشاد المعابد والهياكل. قدّم الذبائح وأحرق التقدمات وأحرق أمامها أعزّ الممتلكات إلى قلبه. وقاده مفهوم ذنْبه إلى استعطاف الإله الساخط الذي شعر بأنّه أثار غضبه بطريقة حياته الآثمة. أحسّ الإنسان على الدوام بأنّ الحياة المادّيّة لا تلائمه. وبسبب من هذا الشعور، غيَّر مساره بحثًا عن حياة أكثر روحانيّة. ورقّى هذا

الشعور روحَه إلى عبادة الله، فدفعه إلى تشييد معابد لآلهة كثرت أسماؤها لكي يعبد الأبديّة، لكي يعبّر عن ثقته بالحياة الأبديّة، لكي يفصح عن رغباته، لكي يعلن موقفه، لكي يعبد الإله المجهول.

رغبة الإنسان بالحياة الأبديّة قد رقّقت روحه إلى العالم الروحانيّ لكي تحقّق شوقه. شعر أنّ هذه الحياة الأبديّة موجودة ما وراء العالم الحاضر. وهذا ما يفسّر أنّ كلّ الأمم كانت، كلّما توفّر لإحداها أن تنمو، تحمل فلسفة تتعلّق بما وراء الحياة. على أنّ بعضها كان ضائعًا في تقمّص الكائنات، وكان بعضها الآخر ضائعًا في اللامحدود، وغيرها في حياة الكون، وغيرها في الحلوليّة. كما ابتدع غيرُها أماكن خياليّة، تقطن فيها الأرواح إلى الأبد، بهدف تحقيق آمالها بشأن الحياة الأبديّة التي كانت متأصّلة في العمق داخل قلوبها. ومهما كان، فإنّ سُكنى الإنسان القصيرة في الفردوس تركت داخل روحه ذكرى لا تُمحى. لهذا لم ينسَ الإنسانُ الفردوسَ يومًا، بل بحث عنه طوال حياته على الأرض. ورغم ذلك فكم كان بعيدًا عن تحقيق رغبته الأبديّة! وكم كان بعيدًا عن الحقيقة المشوّق إليها! كان عليه أنّ يجد الحياة الأبديّة، التي رغب بها بتلهّف وسعى واشتاق إليها، والتي أحسّ أنّه خُلق لأجلها، في المكان الذي ابتعد عنه: كانت في معرفة الله الحقيقيّ الذي أهمله وعجز عن إيجاده، بسبب ضلاله. لقد منحته معرفة الله الغريزيّة فكرةً ما عن الألوهة. ومع ذلك استحال عليه أن يبلغ إلى معرفة الله في غياب الاعتلان الإلهيّ.

أهمل الإنسانُ الإلهَ الحقيقيّ والحياة الأبديّة. وجثم الجهل ثقيلاً على صدره مثل كابوس وأعاقه عن التنفّس بحرّيّة، فتنهّد تحت الثقل والضغط. وكثيرًا ما قاده هذا الجهل إلى اليأس وإلى إهمال أمله

الفطريّ. وبما أنّه أسكت حدسه المتأصّل فيه، فقد أدّى به الأمر إلى إنكارِ الخلود. وطوَّقت روحَه أمواجُ الشكّ المرتفعة، فأرهقته وأغرقته مترنّحًا.

كانت البشريّة بحاجة إلى كشف، فسعت إلى تثبيت قناعاتها. سعت إلى الأمان والقضاء على الشكّ. اشتاقت إلى الحقيقة. أحسّ الجنس البشريّ أنّه خُلق من أجل معرفة الحقيقة من الله نفسه، الذي يلمس وجوده عبر معرفة الله الطبيعيّة. سعى الإنسان إلى اعتلان إلهيّ. تاق إلى افتقاد إلهيّ. تاق إلى الحقيقة المتجسِّدة حتّى يراها، حتّى يقتنع بوجودها ويبدّد كلّ شكّ وسحابة كئيبة تغطّيها. كانت هذه رغبة الإنسان الأبديّة التي ورِثها من وعد الله. فقد أعلن الله بأنّه سيتمّ إرسال إله-إنسان ومخلّص إلى البشريّة وهو سوف يعلِم الحقيقة بكاملها (راجع يوحنّا ٤: ٢٦، ١٥: ١٣)، ويهب الحياة الأبديّة المرغوبة، ويخلِّص الإنسان من تسلّط الشيطان، ويحرِّره من عبء الجهل والشكّ، ويزيل الحائط الفاصل بين الإنسان والله.

وتحقّق شوق الجنس البشريّ هذا لأنّ المخلِّص المنتظَر قد حضر. والذين يؤمنون به ينالون الحياة وينالونها بأكثر وفرة (يوحنّا ١٠: ١٠)، لأنّه هو الطريق والحقّ والحياة (يوحنّا ٤: ٦). وُهِبت الحياة الأبديّة وظهرت الحقيقة، وكُشِفت طريق الخلاص، وحُطّمت القيود وأُعيدت الحرّيّة. وإذ تيسّرت للإنسان معرفة ابن الله، فقد أضحى الآن قادرًا على السير في الدرب المستقيم المفضي إلى الخلاص.

واليوم، وبعد أن استنار المؤمنون بالنور الإلهيّ، أصبحوا قادرين على السعي نحو الله والتوصّل إلى معرفته. اليوم يستطيع الإنسان أن يعرف الإرادة الإلهيّة ويتمّمها. هذا اليوم يستطيع أن يقدِّم لله،

بدل الذبائح الدمويّة من الجداء والعجول، العبادةَ العقليّة والروحيّة، عبادة الإله الحقيقيّ الوحيد في الروح والحقّ (يوحنّا ٤: ٢٤). إنّه الآن قادر على إدراك هدفه الحقيقيّ على الأرض، وقيمته، وعلاقته بخالقه وبالخليقة، والربط التي تُتْحِده بخالقه وصانعه. إنّه الآن قادر على اكتساب معرفة دقيقة لقيمة الأشياء وعلى تقويمها وفقًا لأهمّيّتها. إنّه الآن قادر على إدراك قيمة الحياة الروحيّة. إنّه الآن قادر على عشق الفضيلة والموت من أجلها وهو ممتلئ فرحًا وثقة. إنّه الآن قادر على التمتّع بالسلام السماويّ داخل قلبه. إنّه الآن قادر على اكتساب الهدوء في داخل روحه. إنّه الآن قادر على ولوج الفردوس المشوّق إليه. إنّه الآن قادر على التمتّع بالحياة الأبديّة. ولذا فلنطلبْ جميعُنا ابنَ الله الوحيد هذا لكي نصير مشاركين في النعيم الأبديّ، لأنّه هو الطريق والحقّ والحياة.

الفصل الثاني
تحقّقت رغبة الإنسان المتّقدة

«لأنّ هكذا الله أحبّ العالم حتّى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة»
(يوحنّا ٣: ١٦)

يا لها من بشرى سارّة! ويا له من حظّ سعيد! لقد تحقّقت رغبة الإنسان المتّقدة، ووُهِبت له الحياة الأبديّة، وظهرت الحقيقة، وأضاء نور المعرفة عينيه الذهنيَّتين. صار الإنسان، الذي يملك أملاً أكيدًا لا ريب فيه بالحياة الأبديّة، قادرًا على انتظار انتهاء حياته الشاقّة، وهو مرتاح من عبئه. إنّه يستطيع منذ وقت ما معاينة تغييرات الحياة والتفلّسف حول أمور العالم، بروح سلاميّة وقلب هادئ. يستطيع أن يواجه تغييرات الحياة العسيرة والمعاكسة وهو ممتلئ من الهدوء الروحيّ. يستطيع احتمال كلّ تجارب الحياة بشجاعة وإقدام. وإذ سبق للإنسان أن عرف الإله الحقيقيّ وحده الذي أُعلِن اسمه للشعوب على يد ابن الله الذي انحدر من السماء، وهو انتظار الأمم وإسرائيل ومخلّص العالم، فقد أصبح بإمكان الإنسان، وهو مستنير الذهن بالنور الإلهيّ الثالوثيّ، أن يرى مجد الله، ويرتقي إليه، ويقترب من عرش مجده، ويتكلّم معه، ويتّحد بالحياة الأبديّة بربط إلهيّة لا تنفصم.

أصبح الإنسان يعرف منذ الآن، لأنّه تأكّد من ذلك، بأنه خُلق للأبديّة، وأنّه عند اكتمال حياته الأرضيّة، مرحلةِ الجهاد، قد حُفظ له

الخلودِ. صار يعرف منذ الآن أنّه أصبح، عبر يسوع المسيح، صديقًا لله، وأُسبِغ عليه شرف البنوَّة: *«وأمّا كلّ الذين قبلوه، فقد أعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه»* (يوحنّا ١: ١٢). ما هذا التغيير المعجز! يا لعظم التبدّل في حالة الإنسان! انظروا، فكلّ شيء جديد منذ الآن! سماء جديدة وأرض جديدة! لقد حضرت هذه الفضائل السماويّة الجديدة: الإيمان والرجاء والمحبّة، وأقصت الشك واليأس والحقد من قلوب الشعوب. تحقّقت العبادة بالروح والحقّ. حلّت محلّ الذبائح الدمويّة وعبادة الناموس، كما باقي الطقوس المقدّسة، ووضعت حدًّا للكذب والخداع. أصبح الإنسان يؤمن بالله المخلِّص ويعرف الحقّ، وقد استنار بنور الحقيقة العظيم.

لَكَمْ هي معجزة هذه المعرفة! ولَكَم هي نافعة! كم تُغيِّر الإنسان! فإنّها حيثما تستقرّ يختفي الجهلُ؛ بل بالعكس: فالمعاينة العقلانيّة تسيطر أينما كان. هذه المعرفة تحقّق كلّ رغبات القلب وتجعل الإنسان سعيدًا ومبارَكًا. إنّها تطرد الحداد وتقيم محلّه السعادة. إنّها تبدّد الظلمة وتوعب المؤمنين نورًا لا حدّ له. إنّ معرفة الإله الحقيقيّ عبر مخلِّصنا يسوعِ المسيح هي الباب الذي يُفضي إلى الحياة الأبديّة. فالحقيقة المعلَنة عبر يسوع المسيح هي الباب الذي يُفضي إلى الخلود. الحقيقة المعلَنة عبر يسوع المسيح هي النور الإلهيّ الذي ينير كلًّ من قبِل هذا النور. ويشهد المخلِّص نفسه على هذا بالقول: *«أنا هو نور العالم»* (يوحنّا ٨: ١٢). *«أنا نورًا أتيت إلى هذا العالم حتّى إنّ كلّ مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة»* (يوحنّا ١٢: ٤٦). لذا فمَن يؤمن بابن الله له نور الحياة ويعرف إلى أين يسير. هذا الشخص توصّل إلى معرفة الإله الحقيقيّ وحده لأنّ المخلِّص نفسه كشف له ذلك. لذا تبدّدت الظلمة

لأنّ الإنسان توصَّل إلى معرفة الله وأحبّه. وهكذا فالمؤمنون بالمسيح لهم المعرفة والحبّ، ويشعّ فيهم نور الحياة. فالحياة الأبديّة هي إذًا نصيب المؤمنين بالمسيح. وتاليًا فالبلوغ إلى الخلاص يتمّ عبرِ المعرفة، إذ يكمنُ النور في داخل المعرفة. وفي داخل معرفة المسيح المخلِّص تكمن معرفةُ الإله الحقيقيّ. معرفة المسيح هيِ النور والطريق والحقّ والحياة. بشَّر الربّ نفسه بهذه الحقيقة قائلًا: «*أنا هو نور العالم. مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة*» (يوحنّا ٨: ١٢). وهكذا فنحن بمعرفتنا يسوع المسيح نمشي في النور ويكون لنا نور الحياة. وتاليًا فإنّ معرفة ابن الله هي شرط أساس لا بدّ منه من أجل معرفة الله، من أجل أن يكون فكرُنا مستنيرًا ومشعًّا بالإيمان به، ومن أجل أن نرى نور الحقّ، ونحصل على روح النعمة الذي ينير كلّ الذين يؤمنون بابن الله ويقدّسهم. معرفة الإله الحقيقيّ مستحيلة من دون هذه المعرفة، لأنّه يستحيل على الله أن يكشف نفسه لغير المؤمن.

وفي هذا الخصوص قال فم الحقّ: «*كلّ شيء قد دُفع إليَّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلّا الآب ولا أحد يعرف الآب إلّا الابن ومَن أراد الابن أن يكشف له*» (متّى ١١: ٢٧). ولذا فباستطاعتنا أن نقول إنّ معرفة الله هي معرفة مخلِّص البشريّة، ابنِ الله وربِّنا يسوع المسيح. ولكن ما هي خصائصه؟ كيف نتعرَّف إلىَ ابن الله، مخلِّص العالم ومعطي الحياة الأبديّة، حتّى نؤمن به؟

الفصل الثالث
الخصائص المميّزة للمخلص الذي يحقّق رغبات القلب

كثيرة هي خصائص المخلِّص المعرِّفة عنه، في الكميّة والنوعيّة، لدرجة أنّها لا تكشف المخلِّص لِمَن يملكون فكرًا وقلبًا وحسب، بل تُدهشهم أيضًا وتذهلهم وتقنعهم وتجذبهم إليه. منذ إنشاء العالم لم يملك أحد المنحدرين من آدم يومًا مثل هذه السمات، لأنّها علامات إلهيّة تحمل ختم الطبيعة الإلهيّة.

نتعرَّف إلى ابن الله من الآتي:

١) من مظهره الإلهي: «*أنت أبهى جمالاً من بني البشر*»[٣٣] (مزمور ٤٤:٢).

---

[٣٣] نجد وصفًا للمخلِّص في رسالة بوبليوس لينتولوس الذي كان واليًا على اليهوديّة وسلفًا لبيلاطس، وأيضًا معاصرًا ليسوع المسيح. وقد أرسل هذه الرسالة إلى شيوخ روما بحسب العادة السائدة خلال حكم تيباريوس قيصر، حتّى يتمكّن حكّام المناطق على تنوّعها من تعريف الشيوخ والشعب الرومانيّ إلى الأحداث الأكثر أهمّيّة التي كانت تحصل في مناطق سلطتهم. تذكر هذه الرسالة صفات الربّ الخلقيّة والجسديّة على السواء كالتالي: «خلال حُكمنا ظهر هنا رجل يدعى يسوع المسيح، ممتلئ من الفضائل، وهو ما زال يعيش في ما بيننا. يدعوه الشعب نبيّ الحقّ، ولكن أتباعه يدعونه «ابن الله»! إنّه يقيم الموتى ويشفي كلّ أنواع الأمراض. هو رجل ذو قامة تتراوح إلى حدّ ما بين الاعتدال والطول، ومظهر مهيب. إنّه ذلك الرجل الذي يحبّه مَن يراه ويخافه في آن. شعره كستنائيّ اللون، داكنٌ، أملس، يصل إلى كتفيه حيث يتموّج ويلتفّ. شعره مفروق في وسط جبينه على عادة أهل الناصرة. جبهته ناعمة وملساء. وجهه خال من التجعيدات، يجمّله لون أحمر. وجهه جريء وجذّاب. أنفه وفمه سويّان لدرجة أنّ أحدًا لا يمكن له أن يجد فيهما سوءًا. ليست لحيته طويلة، ولكنّها كثّة. ولون لحيته مماثل للون شعره. عيناه خضراوان مائلتان إلى الزرقة وشفّافتان إلى أقصى الحدود، وأمّا نظراته فبريئة وثاقبة. حين يتفحّص ويؤنّب فإنّه يكون مخيفًا للغاية. حين يعلّم وينصح فإنّه يكون محبّبًا، حكيمًا، وعذبًا. تجده في المحادثات لطيفًا ولكنّه جدّيّ. لم يره أحد يضحك ولكنّه شوهد مرارًا يبكي. التناسق الملاحظ في جسده استثنائيّ، وتسترعي يداه وساعداه الانتباه لكونها بالغة النحافة. المسيح هو في مظهره أجمل رجل بين الرجال الذين وُلدوا على الأرض».

(St. Nektarios, *A Study concerning Holy Icons [Μελέτη περί τών Αγίων Εικόνων] Athens: Orthodoxos Typos, 1997, pp. 68-69*)

٢) من كلماته: *«النعمة انسكبت على شفتيك»* (مزمور ٤٤: ٢). *«لم يتكلّم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!»* (يوحنّا ٧: ٤٦)

٣) من أعماله: *«العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهَّرون والصمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشَّرون»* (متّى ١١: ٥).

٤) من تحقّق النبوءات، ومن النتائج الدقيقة للتكهّنات المطابقة للأحداث التي حصلت في شخصِ ربّنا يسوع المسيح. إذ يستحيل أن تجتمع كلّ صفات المخلِّص المنتظَر في شخص يسوع المسيح بشكل عفويّ، كما يستحيل أن تتحقّق مثل هذه النبوءات الكثيرة والمتنوّعة وتكتمل بمجرّد المصادفة العرَضيّة. كان يجب أن يكون التقاء مثل هذه المصادفات المتفاوتة والبديعة، والتي لا مبرّر لها على الإطلاق، أكثر لفتًا للنظر من التسليم بأنّ يسوع المسيح، الذي فيه تحقّقت كلّ النبوءات، هو مسيّا المنتظَر.

٥) من الأحداث العجيبة التي حصلت أثناء ولادته الإلهيّة، بما فيها:

أ. شهادة جمهرة الملائكة الذين كانوا يسبِّحون الله ويعلنون: *«المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة»* (لوقا ٢: ١٤).

ب. شهادة رئيس الملائكة الذي بشَّر الرعاة بالفرح العظيم: *«لأنّه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الربّ»* (لوقا ٢: ١١).

ج. شهادة الرعاة الذين كانوا يبيتون في البرّيّة ورأوا جمهرة الملائكة.

د. النجم الذي هدى المجوس إلى بيت لحم[٣٤].
ه. العبادة التي قدّمها له المجوس.
و. مقتل الأطفال المذبوحين في بيت لحم.
ز. شهادة سمعان الذي شكر الله لأنّ عينيه أبصرتا خلاصه *«الذي أعدّه أمام وجه كلّ الشعوب، نورًا لاستنارة الأمم ومجدًا لشعبه اسرائيل»* (راجع لوقا ٢: ٣٠-٣٢)

٦) من شهادتَي الآب السماويّ الذي شهد مرّتين بأنّ ربّنا يسوع المسيح هو ابنه المحبوب. أوّلاً على ضفّة نهر الأردن، حين ظهر الروح القدس أيضًا ونزل عليه بشكل حمامة؛ وثانيًا على جبل ثابور أثناء تجلّيه الإلهيّ، حين شعّ وجهه كالشمس وصارتِ ثيابه بيضاء كالنور. في ذلك الحين جاء أيضًا صوت من السماء قائلاً: *«هذا هو ابني الحبيب فله اسمعوا!»* (مرقس ٩: ٧).

٧) من تجلّيه الإلهيّ وظهور موسى وإيليّا: الأوّل كرسول يسبق

---

[٣٤] يقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: «إنّ هذا النجم لم يكن من النوع الشائع، أو بالحريّ، لم يكن نجمًا على الإطلاق، كما يبدو لي على الأقلّ، بل قوّة لا منظورة قد اتّخذت هذا الشكل... لأنّه لا يظهر في الليل بل في نصف النهار، والشمس ساطعة. وليس هذا من طاقة النجم، ولا من طاقة القمر. لأنّ القمر الذي يفوق بكثير كلّ النجوم قوّة، ما أن تظهر شعاعات الشمس حتّى يختبئ في الحال ويختفي... ومن ظهوره، ثمّ اختبائه من جديد. فقد ظهر لهم وقادهم وهم على طول الطريق نحو فلسطين. ثمّ حالما وطئت أقدامهم أرض أورشليم اختبأ عنهم. وبعدها بدا لهم من جديد حين غادروا هيرودوس بعد أن أخبروه عن سبب مجيئهم وكانوا على وشك الرحيل. وكلّ ذلك لا يشبه طريقة سير نجم، بل قوّة ما وُهبت إدراكًا ساميًا... ويمكن للمرء أن يرى ذلك بوضوح من طريقة النجم في الدلالة عليه. لأنّه لم يدلّ على المكان من الأعالي، وإلاّ لاستحال عليهم أن يعرفوا المكان بدقّة، بل نزل وقام بهذه المهمّة. لأنّكم تعلمون أنّ نقطة صغيرة المقاييس إلى هذا الحدّ، بالحجم الذي يمكن أن يكون عليه الكوخ، أو بالحريّ بحجم جسد طفل صغير، لا يمكن الإشارة إليها بنجم... فكيف إذًا، قولوا لي، قام النجم بالدلالة على نقطة محدّدة إلى هذه الدرجة... ما لم يترك العلاء وينزل ويقف فوق رأس الطفل تمامًا؟ وقد ألمح الإنجيليّ إلى هذا تحديدًا إذ قال: «إنّ النجم سار أمامهم حتّى وصل وتوقّف فوق المكان الذي كان فيه الصبيّ» (Nicene & Post Nicene Fathers, Peabody: Hendrickson Publishers, 1999, 1st Series, Vol. 10, pp. 37-38)

حضوره، والثاني كشاهد على مجيئه[٣٥] (ملاخي ٤: ٥).

٨) من شهادات كلّ الخليقة التي تخضع لقدرة أقواله: *«فإنّه حتّى الرياح والبحر تطيعه»* (متّى ٨: ٢٧).

٩) من خدمة الملائكة له: *«وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه»* (متّى ٤: ١١، مرقس ١: ١٣).

١٠) من اعتراف الشياطين الذين أقرّوا بأنّه ابن الله: *«ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ هل أتيت إلى هنا قبل الوقت لتعذّبنا؟»* (متّى ٨: ٢٩).

١١) من شهادة الشعب: *«ومجّدوا الله قائلين: قد قام فينا نبيّ عظيم وافتقد الله شعبه»* (لوقا ٧: ١٦-١٧).

١٢) من دليل قيامة الموتى[٣٦] (راجع مرقس ٥: ٤١ ولوقا ٧: ١٥ ويوحنّا١١: ٤٣ ومتّى ٢٧: ٥٢).

١٣) من دليل قيامته بالذات: *«فقد أرى نفسه للرسل لمدّة أربعين*

---

[٣٥] قدّم يسوع موسى وإيليّا النبيّين الحاملَين الله في هذه اللحظة الرسميّة كشاهدَين على تجلّيه الإلهيّ وهويّته، حتّى يقتنع رسله، بظهور موسى وإيليا الحاملين الله، أنّه هو الإله الذي ظهر لهذين النبيّين على جبل سيناء وجبل حوريب، جبل الله، فيدركون بذلك أنّ صلبه سوف يكون طوعيًّا. كما أنّ وجود النبيّين والرسل الثلاثة خلال تجلّي الربّ له دلالة مسّاريّة أخرى. فخلال التجلّي يلتقي نذيرا العبادة القديمة مع مبشّري العبادة الجديدة، ويتراجع القديمان أمام الجدد، كما تجري العادة في الانتقال الرسميّ. كان نبيّا الناموس يسلّمان وصاياهما الخاصّة لرسل النعمة. وقد عبّر الإطار بكامله عن توقّف عبادة الناموس القديمة بشكل رسميّ، وبدء العبادة الجديدة ـ عبادة النعمة ـ العبادة بالروح والحقّ، بشكل رسميّ أيضًا. (St. Nektarios, *Gospel History [Ευαγγελική Ιστορία]* Athens: Agios Nikodemos, p. 270-271)

[٣٦] كان أوّل شخص أقامه المسيح من الموت ابن أرملة نايين: «يا صبيّ، أقول لك قم»، والثاني ابنة يايرس التي قال لها: «يا صبية، لكِ أقول قومي»، وكان الثالث لعازر الذي قال له: «لعازر، هلمّ خارجًا». ولهذا انذهل الجميع لأنّ هذه علامات عظيمة بالحقيقة ومخيفة تدلّ على قدرة المسيح الإلهيّة. فإنّه لم يصرخ إلى الله أو يتوسّل إليه كما فعل النبيّ إيليّا الذي أقام ابن أرملة صرفت (١ملوك ١٧: ٢٠)، ولا التحم بجسد الصبيّ وصلّى كما فعل إليشع الذي أقام ابن الصومانيّة (٢ملوك ٤: ٣٤)، بل أقامهم بأمره فقط لكونه الله (*Gospel History*, p. 164).

يومًا وتكلّم على الأمور المختصّة بملكوت الله» (أعمال ١: ٣).

١٤) من صعوده إلى السماوات (لوقا ٢٤: ٥٠-٥٢).

١٥) من نزول الروح القدس على تلاميذه القدّيسين ورسله: *«ولـمّا حضر يوم الخمسين... امتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكّلمون بألسنة أخرى، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا»* (أعمال ٢: ١-٤).

١٦) من كنيسته التي تأسّست ولن تقوى عليها أبواب الجحيم (متّى ١٦: ١٨).

١٧) من تحقّق نبوءاته بخصوص مدينة أورشليم والشعب اليهوديّ؛ ومن الاضطهاد الذي لاقاه رسله، ومن دعوة الأمم، الكرّامين الآخرين الذين سلَّمهم كرمه (مرقس ١٣: ١-٥، متّى ٢٤: ١-٣١).

١٨) من مجد الصليب المكرَّم، الذي كان بالسابق الأداة الأكثر قسوة لعقاب المجرمين، وصار اليوم السلاح الخلاصيّ ضدّ الشياطين وحارسَ العالم أجمع.

١٩) من انتشار كلمته الإلهيّة في جميع أنحاء العالم.

٢٠) من الحبّ المزدهر في قلوب المؤمنين لشخصه الإلهيّ.

٢١) من القوّة المنيرة للإيمان الإلهيّ به.

٢٢) من قوّة الإيمان المجدِّدة.

٢٣) من أعمال الإيمان.

٢٤) من قوّة المؤمنين.

٢٥) من ثمار الإيمان.

٢٦) من عطايا الروح القدس الممنوحة للمؤمنين.

٢٧) من ثقة القلب التي يملكها المؤمنون بخصوص حقيقة

إيمانهم، ومن أنهار الماء الحيّ التي تتدفّق من قلوبهم (يوحنّا ٧: ٣٨).

٢٨) من تولّد رغبة الصلاة الدائمة في قلوب المؤمنين.

٢٩) وفي الختام، من كامل محتوى الإنجيل المقدّس وكامل العهد الجديد الذي فيه تنعكس شخصيّة المسيح الإلهيّة، وتظهر أعماله التي لا يُسبر غورها، والذي فيه أُعلِن تعليمه الإلهيّ: التعليم الذي انتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها واجتذب وغزا أممًا وشعوبًا لدرجة أنّهم تركوا تقاليدهم وطقوسهم معًا، وآلهتهم وعباداتهم معًا، وهياكلهم ومزاراتهم معًا، ومعابدهم وبيوت آبائهم معًا، والذي، أخيرًا، جعلهم ينكرون حتّى أنفسهم، ليخضعوا لإرادته الإلهيّة.

فمن كلّ هذه الأمور نعترف ونقرّ بابن الله، ربّنا يسوع المسيح، مخلِّص العالم المنتظَر، الذي أتى ليخلِّص الإنسان من الجهل والشكّ واليأس والحقد والضلال والخطيئة والشرور، ومن سيطرة الشيطان، والذي منح الحياة الأبديّة والبركة للذين يؤمنون به. لذا فهناك ضرورة ملحّة وقاهرة تلزم مَن يرغب بالحياة الأبديّة أن يتعرَّف إلى ابن الله ويؤمنَ به على أنّه مخلِّص العالم: وهكذا يتعرّف إلى الإله الحقيقيّ وحده ويستنير بنور الحقّ، ويحصلِ على تحقيق رغباته التي تاق إليها (أي الحياة الأبديّة)، ويصبح مشاركًا في الصلاح والبركة الإلهيَّين. آمين.

الفصل الرابع

ربّنا يسوع المسيح هو مخلص العالم المعلن عنه، إنّه الإله الحقيقيّ، لقد أتى، ولن يظهر بعده آخر

(مقتبس من كتابات القدّيس أثناسيوس الكبير)

يشهد الأنبياء أنّ المسيح هو الله والربّ في آن. ويقول النبيّ داود: *«الله هو الربّ وقد ظهر لنا»* (مزمور ١١٧: ٢٧)، وأيضًا: *«طأطأ السماوات ونزل»* (مزمور ١٧: ٩)، ومرّة أخرى: *«يا جالسًا على الشيروبيم تجلّى»* (مزمور ٧٩: ١). كما يقول حبقوق النبيّ: *«الله من التيمن يأتي»*[٣٧] (حبقوق ٣: ٣). إضافة إلى باروخ الذي يقول: *«هذا هو إلهنا ولا يقف حذاءه آخر. لقد وجد كلّ طريق للمعرفة وجعله ليعقوب عبده وإسرائيل حبيبه. بعد ذلك أظهر نفسه على الأرض وعاشر الناس»* (باروخ ٣: ٣٥-٣٧).

لاحظوا كيف يسمّي الأنبياءُ المسيحَ اللهَ صراحةً. حين كان رئيس الملائكة جبرائيل يتحاور مع النبيّ دانيال، كشف له: *«أنّ سبعين أسبوعًا قد حُدِّدت على شعبك وعلى مدينة قدسك لإفناء المعصية وإزالة الخطايا»*، ويضيف بعد ذلك مباشرة: *«ولختم الرؤيا والنبوءة ومسح الأكثر قداسة»* (دانيال ٩: ٢٤). فمَن هو الذي مُسح «الأكثر قداسة» إلاّ المسيح وحده، الذي وُلد من الله الحيّ؟ أمّا السبعون أسبوعًا

[٣٧] التيمن هو الجنوب. بهذا الاسم يتنبّأ حبقوق بأنّ المسيح سوف يأتي من بيت لحم، لأنّ بيت لحم تقع جنوب أورشليم. (St. Nicodemos the Hagiogrite, Garden of Graces [Κήπος Χαρίτων], Thessaloniki: Rigopoulos, 1979, p. 101)

فتعني أربعمائة وتسعين سنة وقد انقضى من أيّام دانيال النبيّ حتّى اليوم أكثر من ثمانمائة سنة[38]. ليُرنا اليهود مَن مسحوه «الأكثر قداسة» ومَن أنهى ذبيحة الناموس والسَكيب بعد مرور أربعمائة وتسعين سنة على دانيال النبيّ؟ ولكن ليس لديهم أحد ليُظهروه غير يسوع المسيح الذي فعل ذلك: المسيح، ابن الله[39].

وحتّى نثبت حقيقة هويّة المسيح، سوف نعرض لا كلمات، بل بالحريّ ١) أحداثًا تصرخ عاليًا وتشهد حتّى يومنا هذا في جميع أنحاء العالم، و٢) واقع أنّ كلّ الأمور التي تلفّظ بها المسيح قد تحقّقت.

إذ قال: *«السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول»* (متّى ٢٤: ٣٥). أيّ كلام؟ لنصغ بإمعان. قال عن هيكلكم: **«لا يُترك فيه حجر على حجر...»** (متّى ٢٤: ٢). هل تحقّقت هذه الجملة أم لا؟ قال إنّ الرومانيّين سوف يأتون ويأخذون أمّتكم ومدينتكم ومملكتكم (راجع لوقا ٢١: ٢٠-٢٤). ألَم يحدث هذا في أيّام فيسباسيانوس وتيطس أم لا؟ قال إنّ الناموس والأنبياء سوف يتوالون حتّى مجيء يوحنّا المعمدان ثمّ ينقطعون (راجع متّى ١١: ١٣). ألَم يحدث هذا؟ أيّ نبيّ حضر في ما

---

[38] عاش القدّيس أثناسيوس الكبير بين ٢٩٦ و٣٧٣م، أي بعد دانيال النبيّ (٦٠٦ ق.م.) بـ ٨٩٠ سنة تقريبًا. ولمزيد من الشرح حول نبوءة الأسابيع السبعين، راجع القسم الثالث، من هذا الكتاب.

[39] كثيرًا ما اضطرّ القدّيس أثناسيوس الكبير، مثله مثل العديد من قدّيسي الكنيسة الأولى، إلى أن يردّ على اتّهامات كاذبة وافتراءات يطلقها أشخاص غير مسيحيّين. وهذا ما يفعله في هذا العمل بكشفه القناع عن مغالطات اليهود الذين حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يعيقوا انتشار المسيحيّة بعد قيامة المسيح، كما يشهد على ذلك الرسول بولس: «لأنّكم تألّمتم أنتم أيضًا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها، كما هم أيضًا من اليهود الذين قتلوا الربّ وأنبياءهم واضطهدونا نحن وهم غير مرضيّين لله وأضدادٌ لجميع الناس، ويمنعوننا من التكلّم إلى الأمم حتّى يخلصوا» (١تسالونيكي ٢: ١٤-١٦). وعلى النحو عينه يكتب الإنجيليّ لوقا: «وفي السبت التالي اجتمعت كلّ المدينة تقريبًا لتسمع كلمة الله، فلمّا رأى اليهود امتلأوا غيرة وجعلوا يقاومون ما قاله بولس مناقضين ومجدِّفين» (أعمال ١٣: ٤٤-٤٥).

بينكم بعد يوحنّا المعمدان؟ من الواضح أنّ أحدًا لم يأتِ.

كما قال ربّنا يسوع المسيح، إلهنا الحقيقيّ، إنّه سوف يُكرَز بالإنجيل في كلّ أنحاء العالم (راجع متّى ٢٤: ١٤). هل حدث هذا أم لا؟ وقال إنّ أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة (راجع متّى ١٦: ٨). هل كذب؟ حاشا! لقد أخبرَنا، نحن الذين نؤمن به، أنّ: *«سوف تكونون مُبغَضين من جميع الأمم لأجل اسمي»* (متّى٢٤: ٩). فقولوا لنا الآن: ألا تحتقرنا كلّ الأمم وتكرهنا من أجل اسم المسيح؟ حتّى ولو بقيتم صامتين، فلسوف تصرخ الحجارة. والحقيقة في هذه المسألة قادرة بما فيه الكفاية على أن توبّخكم وتربككم، وحتّى أن تقنعكم، ولو رغمًا عنكم، بأنّ المسيح الربّ أتى بشكل منظور واعتلن على الأرض، وأنّه أحدر السماوات ونزل ثمّ عاد واعتلى على الشاروبيم وطار وصعد إلى السماوات وسط هتافات الفرح، بما أنّه الله.

ورغم ذلك فلكي نفهم تصلّب اليهود[٤٠]، ونصبح، نحن المؤمنين،

---

[٤٠] قد يتساءل المرء لَم يستعمل القدّيس أثناسيوس الكبير، والعديد غيره من آباء الكنيسة، مثل هذه اللهجة القاسية حين يتكلّمَ على معتقدات أخرى أو هرطقات في حين تقول الوصيّة بعدم الردّ على الشرّ بالشرّ (راجع رومية ١٢: ١٧). يقول القدّيس نيقوذيموس إنّ الوصيّة تقول فعلاً ألاّ يردّ أحدهم على الشرّ بالشرّ... ولكن حين يتأذّى الإيمان ويُعتدى عليه، أو حين تُحتقر وصيّة الله بشكل سافر ويتمّ تجاوزها، فعندها يجب على المرء أن يقف بحزم ويقاتل بشجاعة من أجل الحقيقة، كارهًا ليس الشخص، بل عدم التقوى، وخبث الإنسان، وأن يُظهر في الوقت عينه لهذا الإنسان العطفَ ويطلب خلاصه (An Interpretation of the 14 Epistles of the Apostle Paul, Thessaloniki: Orthodox Kypseli, 1989, Vol I, pp. 288-289). لهذا السبب يقول المغبوط أوغسطينوس في شرحه المزمور ١٣٨، الآية ٢٢: «ما معنى «أبغضتهم بغضًا كاملاً» سوى أنّي كرهت فيهم آثامهم، وأحببت خليقتك. هذا هو الكره الأمثل، أي ليس بسبب الخبث تكره الناس، ولا بسبب الناس تحبّ الخبث». ثمّ يقول القدّيس نيقوذيموس إنّه علينا ألاّ نردّ على الشرّ حين نتعرّض للأذى وحدنا. بل إن كانت الخطيئة لا تؤذينا وحدنا وحسب، بل تطال الكثيرين أيضًا، وتشكّل عائقًا للإيمان، فمن الضروريّ أن نتكلّم جهرًا ومن دون خوف. من هنا يكتب القدّيس باسيليوس لإكليروس قيصرية الجديدة: «وفي النهاية من الخطأ أن نحفظ الصمت في إزاء الافتراء، ليس أنّنا بالإنكار يمكن أن ننتقم لأنفسنا، بل إنّنا لا نسمح لكذبة أن تنتشر أكثر من ذلك ولا لضحاياها أن يتعرّضوا لأذى. لذا فقد فكّرت بأنّه من الضروريّ أن أعرض هذه المسألة عليكم جميعًا

أكثر رسوخًا في إيمان المسيح، فسوف نحاول أن نقدِّم البرهان بإيجاز، مستمدّينه من العهد القديم، على كامل شريعة المسيح والدفاع عن الإنجيل لأنّ ذلك سيكون ذا منفعة لكلّ الذين سيعكفون على قراءة هذا.

يتّضح لنا من المزمور ١٠٩، الآية ٣: «*من البطن قبل كوكب الصبح ولدتكَ*» أنّ ابن الله وكلمته موجود قبل ابتداء الزمان، وأنّه اتّخذ بشرةً في نهاية الأزمنة. وجليّ للأذهان أنّ أحدًا لم يولد البتّة قبل كوكب الصبح، فقد خُلق كوكب الصبح (أي الشمس) في اليوم الرابع، في حين خُلق آدم في اليوم السادس. وعلى نحو مماثل، وبخصوص ولادة ربّنا يسوع المسيح، الابنِ الوحيد والكلمة، من الله الآب قبل الأزل، يُعلن سليمان، وكأنّه يَتكلّم بالنيابةِ عن ابنه: «*الربّ خلقني أولى طرقه، قبل أعماله منذ البدء من الأزل أُقِمتُ من الأوّل من قبل أن كانت الأرضُ ولدتُ حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه، قبل أن غُرست الجبال وقبل التلال أنجبني*» (أمثال ٨: ٢٢-٢٥). وهكذا يجب أن يُسأل اليهود: مَن أنجب اللهُ قبل كلّ الخليقة؟ وعلى نحو مماثل، حين يقول الله عن آدم: «*هوذا آدم قد صار واحدًا منّا*» (تكوين ٣: ٢٢)، فإنّه يُعلن عن وجود الآب والابن والروح القدس. ومن جديد حين

أيضًا وأن أكتب لكم رسالة» (Nicene & Post Nicene Fathers, 2nd Series, Vol. 8, p. 247). كما يؤيّد القدّيس مرقس الناسك ذلك بالقول: «حين يبدأ السلوك الشرّير من قِبل أحدهم بالتأثير في الآخرين، يجب ألاّ تظهروا طول أناة. وبدل منفعتكم الشخصيّة، يجب أن تنشدوا منفعة الآخرين لكي يخلصوا. لأنّ الفضيلة التي تشمل الكثيرين هي أكثر قيمة من الفضيلة التي لا تشمل سوى شخص واحد» (The Philocalia, London: Faber and Faber, 1990 Vol. I, p. 144). هكذا تصرّف الرسول بولس حين حاول الساحر عليم أن يمنع الوالي من اعتناق المسيحيّة: «ولكن الساحر عليم قاومهما... محاولاً أن يبعد الوالي عن الإيمان. وعندها امتلأ شاول (الذي اسمه بولس أيضًا) من الروح القدس وشخص إليه وقال: أيّها الممتلئ كلّ غش وكل خبث يا ابن إبليس يا عدوّ كل برٍّ، ألا تزال تعوّج طرق الله المستقيمة؟» (أعمال ١٣: ٨-١٠).

يقول: «*أمطر الرب على سدوم... نارًا من لدن الربّ*» (تكوين١٩: ٢٤)، من البديهيّ أنّه يعني الآب والابن.

وعن أنّ الله الكلمة سوف يتّخذ جسدًا ويصير إنسانًا في الأيّام الأخيرة، لنسمع صوت الأنبياء الذين تكلّموا. فمن جهة يهتف داود: «*مبارك الآتي باسم الربّ... الله هو الربّ وقد ظهر لنا*» (مزمور ١١٧: ٢٦-٢٧)، وأيضًا: «*الله سوف يأتي جهارًا*» (مزمور ٤٩: ٣). ومن جهة أخرى، ينادي أشعياء: «*حينئذٍ تتفتّح عيون العميان وآذان الصمّ تسمع. حينئذٍ يطفر الأعرج كالأيّل ويهتف لسان الأبكم*» (أشعياء ٣٥: ٥-٦).

وعن ولادة المسيح من عذراء، لنسمع النبيّ أشعياء يقول: «*ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمّانوئيل*» (أشعياء ٧: ١٤، متّى ١: ٢٢). ويقول مرّة أخرى: «*وُلد لنا صبيّ وأُعطي لنا ابن، ويكون اسمه رسول الرأي العظيم، مشيرًا عجيبًا، إلهًا جبّارًا، أمير السلام، أبا الدهر الآتي*» (أشعياء ٩: ٥-٦).

وبعد ذلك يحدّد النبيّ نفسه مكان ولادة المسيح على الأرض، مشيرًا إلى الناصرة: «*أرض زبولون وأرض نفتاليم، والساكنين على طريق البحر، عبر الأردن، جليل الأمم. الشعب السالك في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا*» (أشعياء٩: ١-٢). وجليٌّ أنّ شعب الأمم كان جالسًا في ظلمة الجهل والضلال والوثنيّة. لهذا السبب يقول داود مظهرًا أنّ الله سوف يصبح إنسانًا من أجل الأمم: «*الله يملك على الأمم*» (مزمور ٤٦: ٨). ومن جديد يقول النبيّ نفسه وكأنّه يتكلّم بالنيابة عن الآب متوجّهًا إلى ابنه: «*سلني فأعطيك الأمم ميراثًا*» (مزمور ٢: ٨)، ولذا: «*يا جميع الأمم صفّقوا بالأيادي*» (مزمور ٤٦: ١). ومرّة أخرى يقول: «*كلّ الأمم الذين خلقتهم يأتون يا ربّ ويسجدون أمامك ويمجّدون اسمك*»

(مزمور ٨٥: ٩).

وعن أنّ خبز الحياة سوف يولد في بيت لحم (التي معناها «بيت الخبز»)، وعن أنّ ولادته من الآب هي قبل الأزل، لنسمع ما يقول النبيّ ميخا: *«وأنتِ يا بيت لحم، بيت آفراثا، لستِ الصغرى في بنات يهوذا لأنّه منك يولد مدبّر إسرائيل، وأصوله منذ القديم، منذ أيّام الأزل»* (ميخا ٥: ٢).

وعن أنّ المسيح سوف يظهر في صهيون، لأنّه العليّ، هكذا يتنبّأ النبيّ داود: *«الإنسان يقول إنّ أمّي هي صهيون وإنّ الإنسان وُلد فيها وإنّ العليّ نفسه هو الذي أسّسها»* (مزمور ٨٦: ٥). ولذا فالمسيح، ابن الله، هو أيضًا العليّ.

وعن أنّ المسيح المولود سوف يسافر إلى مصر مع والدته، السحابةِ الروحيّة، لنسمع النبيّ أشعياء الذي يقول: *«هوذا الربّ يجلس على سحابة سريعة ويدخل مصر، فتضطرب أوثان مصر من وجهه»* (أشعياء ١٩: ١).

وتثبت المزامير أنّ الآب سوف يعطي شهادة من العلى أثناء عماد المسيح: *«صوت الربّ على المياه: إله المجد أرعد. أرعد الربّ على المياه الغزيرة»* (مزمور ٢٨: ٣). وإلى ذلك، وعن العجائب والشفاءات التي أتمّها المسيح إلهنا، يعلّمنا أشعياء: *«هو حمل آلامنا واحتمل أوجاعنا»* (أشعيا ٥٣: ٤).

وعن أنّ المسيح أتى ليجلب السلام للعالم، لنسمع المزمور ٧١: *«ينزل مثل المطر على الحصيد، أو مثل المطر الهاطل على الحضيض. في أيّامه يُشرق العدل وغمرة السلام إلى أن يضمحل القمر. ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض»* (مزمور ٧١: ٦-٨).

وحتّى لو قال اليهود إنّ هذا المزمور يتحدّث عن سليمان فهم مخطئون لأنّه يقول: «*وله يسجد جميع الملوك... ويدوم اسمه أكثر من الشمس وتتبارك به جميع قبائل الأرض*» (مزمور ٧١: ١١-١٧). يستحيل أن تشير هذه الأمور إلى سليمان فهو لم يوجد قبل الشمس.

وعن أنّ المسيح إلهنا سوف يبيد الشيطان بالمعموديّة، يشهد المزمور٧٣ لله بهذه الكلمات: «*أنت حطّمت رؤوس التنانين في المياه، أنت حطّمت رأس لوياثان*» (مزمور ٧٣: ١٤-١٥). وعن أنّ المسيح الذي سار على البحر هو خالق السماء، لنسمع أيّوب الذي يهتف: «*هو الباسط السماوات وحده والسائر على متون البحر*» (أيّوب ٩: ٨).

وبخصوص الجحش والأتان اللذين ركب عليهما المسيح، لنسمع النبيّ زكريّا يُعلن: «*ابتهجي جدًّا يا بنت صهيون واهتفي يا بنت أورشليم، هوذا ملكك آتيًا إليكِ، بارًّا مخلِّصًا وضيعًا، راكبًا على حمار وعلى جحش ابن أتان*» (زكريا ٩: ٩).

والآن، أيّ شيء أروع من هذه الأصوات، أصوات الأنبياء الذين تنبّأوا بالمسيح بهذا الوضوح؟ لنسمع إذًا ما كُتب عن الأولاد الذين هتفوا للمسيح «هوشعنا»، ويبدو أيضًا أنّهم دعوا المسيح الربّ في المزمور الثامن: «*أيّها الربّ، ربّنا، ما أعجب اسمك في الأرض كلّها! لأنّ جلالك تسامى على السماوات. من فم الأطفال والرُّضع نظّمت لك تسبيحًا*» (مزمور ٨: ١-٢).

وبخصوص خيانة يهوّذا، يشهد المزمور٤٠ أنّ: «*الذي أكل خبزي رفع عليَّ عقبه*» (مزمور ٤٠: ٩). وعلى نحو مماثل يتساءل المزمور٢ عن مؤامرة الأمم واليهود ضدّ المسيح: «*لماذا ارتجّت الأمم وفكّرت*

الشعوب بالأباطيل؟ قامت ملوك الأرض واجتمعت الرؤساء جميعًا (أي حنّان وقيافا ورؤساء الكهنة والكتبة) *على الربّ وعلى مسيحه»* (مزمور ٢: ١-٢). لأنّ مَن يشنّ حربًا على الابن ينكر الآب أيضًا.

وعن القيود التي بها قيّدوا المسيح، يأسف النبيّ أشعياء على اليهود بالقول: *«الويل لهم فإنّهم جلبوا الشرّ على أنفسهم... لنقيّد الصالح»* (أشعياء ٣: ١٠). لذا أرجوكم أن تسألوا اليهود بالنيابة عنّي قائلين: مَن هو بلا خطيئة بين البشر على الأرض؟ إنّه لمن الواضح تمامًا أنّ أحدًا ليس خاليًا من القذارة، حتّى ولو كان له من العمر يوم واحد على الأرض. وتأكيدًا على ذلك يضرع النبيّ إلى الله قائلاً: *«ولا تدخل في المحاكمة مع عبدك لأنّه لن يتزكّى أمامك أيّ حيّ»* (مزمور ١٤٢: ٢). وهكذا فقد تعلَّمنا بما لا يقبل الجدل أنّه ليس أحد بلا خطيئة سوى الله وحده.

بعد ذلك لنلاحظ كيف يبشِّر النبيّ أشعياء بآلام المسيح إلهنا وابن الله الذي هو بدون خطيئة: *«كحمل سيق للذبح وكنعجة لم يفتح فاه»* (أشعياء ٥٣: ٧). جليّ أنّ المسيح لزم الصمت حين وقف أمام بيلاطس في حين آلامه. *«في تواضعه ارتفع حكمه، وجيله مَن يصفه؟»* (أشعياء ٥٣: ٨)، ما معناه أنّ أحدًا لن يصف جيل الألوهة لأنّ سلالة المسيح ربّنا لا يمكن اقتفاء أثرها سوى بحسب الجسد فقط. *«بسبب آثام شعبي أُخذ إلى الموت»* (أشعياء ٥٣: ٨)، جليّ أنّ المسيح مات بسبب آثام العالم. *«وسوف أعطي الخبيث عن دفنه والغني عن موته»* (أشعياء ٥٣: ٩)، يظهر جليًّا أنّ المسيح سلَّم اليهود للرومانيّين. فلِمَ أيّها الأنبياء؟ قولوا لنا بصراحة، لأيّ سبب؟ لأنّه *«لم تكن له خطيئة ولا وُجد في فمه غش»* (أشعياء ٥٣: ٩). ماذا يمكن أن يقول اليهود عن

هذا؟ أيّ إنسان سيق إلى الذبح كشاة من دون أن يكون قد ارتكب خطيئة؟ ولكن ليس عندهم أيّ إنسان من دون خطيئة ليظهروه لنا. وحده الله الذي صار إنسانًا.

لنسمع أيضًا المزمور٣٤ الذي يتحدّث عمَّن قدَّموا شهادة زور عن المسيح: «*شهود زور قاموا وسألوني عمّا لا أعلم، جازوني بدل الخير شرًّا*» (مزمور ٣٤: ١١-١٢). هنا يشير النبيّ إلى الخير الذي فعله المسيح مع شعبه: أوّلاً خروجهم من مصر وسوى ذلك من الخير الذي لا يُحصى الذي صنعه إليهم، ثمّ شفاء مرضاهم. وأمّا بخصوص الذين جلدوا المسيح وصفعوه، فيقول النبيّ أشعياء وكأنّه يتكلّم بالنيابة عن المسيح: «*أسلمتُ ظهري للسياط وخدّيَّ للطمات. ولم أستر وجهي عن الإهانات والبصاق*» (أشعياء ٥٠: ٦). وعلى نحو مماثل يُعلن النبيّ داود بالنيابة عن المسيح، في المزمور ٣٧: «*لأنّي للضربِ مستعدّ ووجعي أمامي في كل حين*» (مزمور ٣٧: ١٧).

وأمّا عن بيع المسيح، فيكشف النبيّ إرمياء: «*وقال لي الربّ: ألقها إلى الفخّاريّ ثمنًا كريمًا ثمّنوني به. فأخذت الثلاثين من الفضّة وألقيتها في بيت الربّ للفخّاريّ*» (زكريّا ١١: ١٣؛ متّى ٢٩: ٩). أنا أتساءل هل تستطيعون، يا أيّها اليهود، أن تتناسوا، بسبب مرور الزمن، ما يقع أمام عيون العالم أجمع منذ ذلك الحين وحتّى اليوم الحاضر؟ إنّي أتكلّم بالطبع على حقل الفخّاريّ، الذي يُستعمل مقبرة للغرباء. وعلى نحو مماثل يقول النبيّ زكريّا عن الثلاثين من الفضّة، وكأنّه يتكلّم بالنيابةً عن المسيح: «*فوزنوا لثمني ثلاثين من الفضّة*» (زكريّا ١١: ١٢).

وعن أنّ المسيح قد حمل مبدأ خلاصنا، الذي هو الصليب الكريم، على كتفيه، وأنّه رُفع عليه، يتنبّأ النبيّ أشعياء بالروح القدس

في هذا الخصوص ويُعلن: *«وُلد لنا صبيّ، وأُعطي لنا ابن الذي خلاصه على عاتقه»* (أشعياء ٩: ٦)، الذي هو الصليب المحيي.

وعن إكليل الشوك، ذُكر في كتاب نشيد الأناشيد: *«اخرجن يا بنات أورشليم وانظرن... الإكليل الذي كلّلته به أمّه»* (نشيد ٣: ١١)، الذي يعني مجمع اليهود، لأنّ هذا كان معروفًا بأنه أُمّ المسيح بحسب الجسد، *«في يوم عرسه وفي يوم فرح قلبه»* (نشيد ٣: ١١). من الواضح أنّ يوم آلام المسيح كان يوم ابتهاجه، لأجل خلاصنا. وكمثل بعض أنواع الأشواك، هكذا كانت خطايا العالم، التي محاها المسيح بمجيئه: المسيح، حمل الله، الذي رفع خطيئة العالم.

وكما دخلت الخطيئة من ثمرة الشجرة، هكذا دخل الفداء عبر خشبة الصليب. لهذا حصلت آلام المسيح في حديقة، لأنّ آدم عصى في الفردوس[٤١]. لهذا فُتح الفردوس للصّ بواسطة الصليب، ولهذا صُلب المسيح في الساعة السادسة، تمامًا كما طُرد آدم بعد الظهر. لقد ذاق المرارة لكي يشفي حلاوة لذّة آدم المُرَّة. صُفع ليمنحني الحرّيّة. بُصق عليه لكي يهبنا نفحة الروح القدس. جُلد لكي يبدّد ثقل الخُطيئة الجاثم على ظهرنا. مُدّد على الصليب عاريًا لكي يغطّي عاري. أُميت ليعطيني الحياة. حُكم عليه لكي يحرّرني من اللعنة. ضُرب على رأسه بقصبة لكي يسحق رأس الأفعى. طُعن جنبه بحربة لكي يشفي الذي خُلق من جنب آدم، ويطفئ الحربة اللهيبيّة الموجَّهة إلينا، ويفتح الطريق إلى الفردوس.

كما ذُكر في المزمور٧٣ أنّ المسيح سوف يُصلب في وسط الأرض:

---

[٤١] الكلمة اليونانيّة ςοαράδεισΠ التي تترجم بالإنكليزيّة بـ Paradise تعني حديقة. استعملتها السبعينيّة للدلالة على حديقة الجنّة.

«أمّا الله فهو ملكنا قبل الدهور صنع الخلاص في وسط الأرض» (مزمور٧٣: ١٢). وعن أنّ المسيح سيُصلب مع لصَّين، شهد أشعياء بالقول: *«وأُحصي مع الأثمة»* (أشعياء ٥٣: ١٢).

وعن المسامير واقتسام ثياب المسيح، يصف المزمور٢١ التالي: *«ثقبوا يديَّ ورجليَّ. وأحصوا كلّ عظامي... اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقترعوا»* (مزمور ٢١: ١٦-١٨). وعلى نحو مماثل يتساءل النبيّ زكريّا عن المسامير: *«فيُقال له: ما هذه الجراح بين يديكَ؟»* (زكريّا ١٣: ٦)، والجواب هو: *«هي الجراح التي أصابتني في بيتي المحبوب»* (زكريّا ١٣: ٦).

وبخصوص الظلمة، يشير النبيّ زكريا نفسه إلى أنّه: *«في ذلك اليوم لا يكون يومٌ صافٍ، ثمّ يوم غائم. ويكون يوم واحد، وهو معلوم عند الربّ، ولا يكون نهارٌ ولا ليل، بل يكون وقتَ المساء نورٌ»* (زكريّا ١٤: ٦-٧). وعلى ذلك قال النبيّ عاموس: *«ويكون في ذلك اليوم، يقول السّيد الربّ، إنّي أُغيّب الشمس عند الظهيرة وأعتّم الأرض في رائعة النهار»* (عاموس ٨: ٩). ويؤكّد النبيّ يوئيل: *«قد أظلمت الشمس والقمر وسحبت الكواكب ضياءها. يزأر الربّ من صهيون ويجهر بصوته من أورشليم فترتجف السماوات والأرض»* (يوئيل ٣: ١٥-١٦).

وتأكيدًا على أنّهم سوف يقدّمون للمسيح الخلّ والمرّ ليشرب، لنسمع المزمور ٦٨ يقول: *«جعلوا لي في طعامي مرارة وفي عطشي سقوني خلًا»* (مزمور ٦٨: ٢١). ولذا فهو يلعنهم[٤٢] بالقول: *«لتصر*

---

[٤٢] من دون شك الكاتب يقصد أنّ النبيّ داود هو الذي يلعنهم، إذ إنّ المسيح لم يلعن قاتليه ولا الواشين به... (المترجم).

مائدتهم قدّامهم فخًا وجزاءً وعثارًا. لتُظلم عيونهم حتّى لا يُبصروا واحنِ ظهورهم في كلّ حين. اسكب عليهم سخطك وليُدركهم وغر غضبكَ. لتصر دارهم خرابًا ولا يكنْ في خيامهم ساكنٌ» (مزمور ٦٨: ٢٢-٢٥). هذا يعني، تحديدًا، السماح بتدمير هيكلهم في أورشليم، الأمر الذي حصل بالفعل. وتحقّقت أيضًا بقيّة هذا المزمور، الذي ينطق بشكل لعنة، في اليهود الذين حتّى موسى عاقبهم محذّرًا إيّاهم بالقول: *«سوف تعلّق حياتكم أمام أعينكم، فتفزعون ليلًا ونهارًا، ولا تأمنون على حياتكم»* (تثنية ٢٨: ٦٦).

أمّا بخصوص الحربة، فينتحب النبيّ زكريّا بالنيابة عن المسيح قائلاً: *«وسوف ينظرون إليّ، أنا الذي طعنوه»* (زكريّا ١٢: ١٠). وبخصوص الماء الذي تدفّق من جنبه المقدّس، يؤكّد النبيّ نفسه: *«ويكون في ذلك اليوم أنّ مياهًا حيّة تخرج من أورشليم»* (زكريّا ١٤: ٨).

وفي ما يتعلّق بدفن الربّ، لنصغ إلى النبيّ أشعياء موبّخًا اليهود ومعلنًا: *«هلك البار ولم يبالِ أحد»* (أشَعياء ٥٧: ١). كما يتكلّم على قيامته: *«لقد أُزيل البار بسبب الشرّ. وسيكون دفنه في سلام»* (أشعياء ٥٧: ١-٢). إنّه يحدِّد: «بسلام»، لأنّ بيلاطس يتنازل عن جسد يسوع إلى يوسف بسلام. وكذلك يتحدّث داود عن دفن المسيح قائلا، وكأنّه يتكلّم بالنيابة عن المسيح: *«جعلوني في جبّ أسفل سافلين، في الظلمات وظلال الموت»* (مزمور ٨٧: ٥). وقبل ذلك يقول: *«صرت مثل إنسان ليس له معين، حرًّا بين الأموات»* (مزمور ٨٧: ٥)، أي من دون خطيئة. كما ترد الآية التالية أيضًا في سِفر أيّوب: *«وفتحت لك أبواب الموت خوفًا، وبوّابو الجحيم ارتعدوا لرؤيتك»* (أيّوب ٣٨: ١٧). من الواضح أنّ هذا يشير إلى قدرات الشياطين المضادة. وكذلك الأمر

في المزمور٦٧ حيث نقرأ: «*يُخرج المعتقلين ببأسٍ أمّا المتمرّدون فيسكنون في القبور*» (مزمور ٦٧: ٧).

وتأكيدًا على أنّ المسيح لن يبقى في الجحيم، بل بالحريّ سيقوم في اليوم الثالث، لنسمع المزمور ١٥ يقول: «*لأنّك لن تترك نفسي في الجحيم ولن تدع قدّوسك يرى فسادًا*» (مزمور ١٥: ١٠). ومن جديد في المزمور ٥٦: «*أنا سأستيقظ في الأسحار*» (مزمور ٥٦: ٨). ويقول النبيّ هوشع: «*هلمّوا نرجع إلى الربّ لأنّه هو افترس وهو يشفينا، هو ضرب وهو يعصب جراحنا. بعد يومين يُحيينا وفي اليوم الثالث يُقيمنا فنحيا أمامه*» (هوشع ٦: ١-٣).

وبخصوص النسوة حاملات الطيب، يُعلن النبيّ أشعياء: «*تعالين إلى هنا أيّتها النسوة... لأنّه شعب لا فهم له*» (أشعياء ٢٧: ١١).

وعن صعود المسيح، نجد التالي في المزمور ٤٦: «*صعد الله بالتهليل، صعد الربّ بصوت البوق*» (مزمور ٤٦: ٥). وأيضًا في المزمور ١٧: «*ركب على الشيروبيم وطار. طار على أجنحة الرياح*» (مزمور ١٧: ١٠). ويقول النبيّ زكريّا: «*وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون*» (زكريّا ١٤: ٤).

وأخيرًا عن مجيء ابن الله الثاني المجيد، يصف النبيّ دانيال التالي: «*وكنتُ أنظر في رؤياي ليلاً فإذا بمثل ابن إنسانٍ آتٍ على غمام السماء فبلغ إلى قديم الأيّام وقُرِّب إلى أمامه. وأوتي سلطانًا ومجدًا ومُلكًا فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطانٌ أبديّ لا يزول ومُلكه لا ينقرض*» (دانيال ٧: ١٣-١٤).

ها قد تعلّمنا بجلاء ممّا سبق أنّ هذا هو ابن الله، الذي أخذ جسدًا وتألّم لأجلنا، الذي قام من بين الأموات وصعد بمجد إلى أبيه،

والذي سوف يعود ثانية على سحائب السماء بمجد سرمديّ ليدين الأحياء، في ذلك الحين، والأموات. لقد أنبأ النبيّ دانيال نفسه بهذا الحدث بالقول: *«وبينما كنت أنظر، إذ نُصبت عروش فجلس القديم الأيّام وكان لباسه أبيض كالثلج وشعرُ رأسه كالصوف النقيّ، وعرشه لهيب نار وعجلاته نارًا مضطرمة. ومن أمامه يجري ويخرج نهرٌ من نار وتخدمه ألوفٌ ألوف وتقف بين يديه ربوات ربوات. فجلس أهل القضاء وفُتحت أسفارٌ. وكنت أنظر بسبب صوت الأقوال العظيمة التي يتكّلم بها القرن. وبينما كنت أنظر، إذ قُتل الحيوان وأبيد جسمه وجُعل وقودًا للنار»* (دانيال ٧: ٩-١١). من الواضح أنّ الوحش هو «ضدّ المسيح»، إذ عندما يأتي ابن الله، سوف يقتله بنفَس فمه (راجع ٢تسالونيكي ٢: ٨).

الفصل الخامس

ألوهية ربّنا يسوع المسيح ومساواته لله الآب في الجوهر كما يشهد على ذلك العهد الجديد

يتطابق المسيح المخلِّص بانسجام مع نبوءات العهد القديم. وهو حين ظهر على الأرض، علَّم عن نفسه على أنّه ابن الله الحقيقيّ، على أنّه الله. وسوف نورد القليل من نماذج هذا التعليم الكثيرة العدد.

حين شفى يسوع المخلّع و«*...أخذ اليهود يضطهدونه لأنّه فعل هذه الأشياء في يوم السبت*» (يوحنّا ٥: ١٦)، قال مدافعًا عن نفسه: «*أبي يعمل حتّى الآن وأنا أعمل*» (يوحنّا ٥: ١٧). وقد فهم اليهود المعنى الدقيق لهذا الجواب، الذي فيه يجعل الربّ يسوع نفسَه مساويًا لله الآب من حيث العدالة والقدرة، و«*لذا فقد اشتدّ سعي اليهود لقتله ليس فقط لأنّه ينقض السبت وحسب بل قال أيضًا إنّ الله أبوه، مساويًا نفسه بالله*» (يوحنّا ٥: ١٨).

في ذلك الوقت لم يمتنع يسوع عن القول لليهود بأنّهم أخطأوا فهمه وحسب، بل، على العكس، أضاف: «*الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ الابن لا يمكن أن يعمل من نفسه شيئًا، إلّا ما ينظر الآب يعمله، لأنّ مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك... لأنّه كما أنّ الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الابن أيضًا يُحيي مَن يشاء. لأنّ الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كلّ الدينونة للابن لكي يكرّم الجميع الابن كما يكرّمون الآب. مَن لا يكرّم الابن لا يكرّم الآب الذي أرسله... لأنّه كما أنّ الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضًا*

أن تكون له الحياة في ذاته» (يوحنّا ٥: ١٩-٢٦). هنا يعطي المخلِّص نفسَه الاستقلاليّة عينها لاجتراح المعجزات، والاحترام الإلهيّ عينه، والحرّيّة عينها التي يملكها الله الآب أيضًا. بالتأكيد! ولكنّه يقدِّم لليهود شهادات إضافيّة عن نفسه لكي يقنعهم أكثر بحقيقة كلماته، وتاليًا بخصوص حقيقة ألوهيّته:

١) شهادة يوحنّا المعمدان الذي دعاه ابن الله الذي نزل من العلى والذي هو فوق الجميع: *«الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أنّ شهادته التي يشهدها لي هي حقّ. أنتم أرسلتم إلى يوحنّا فشهد للحقّ»* (يوحنّا ٥: ٣٢-٣٣). *«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع... الآب يحبّ الابن وقد دفع كلّ شيء في يده. الذي يؤمن بالابن له حياة أبديّة، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله»* (يوحنّا ٣: ٣١-٣٦).

٢) شهادة أعماله العجائبيّة التي لم يعملها آخر: *«وأمّا أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنّا، لأنّ الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أنّ الآب أرسلني»* (يوحنّا ٥: ٣٦). *«لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطيئة. أمّا الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي»* (يوحنّا ١٥: ٢٤).

٣) شهادة الآب السماويّ الذي قال عنه: *«هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت»* (متّى ٣: ١٧). *«والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي»* (يوحنّا ٥: ٣٧).

٤) شهادة الكتاب المقدّس الواردة في العهد القديم: *«فتّشوا الكتب لأنّكم تظنّون أنّ لكم فيها حياة أبديّة، وهي التي تشهد لي»*

(يوحنّا ٥: ٣٩).

كما أعطى المخلِّص، قبل موته، شهادة أخرى مماثلة ولكنّها أكثر عجائبيّة. فقد اقتادوه مقيّدًا للمحاكمة، أوّلاً أمام المجمع وأخيرًا أمام بيلاطس. فنهض أخيرًا رئيس الكهنة بعد أن سمع العديد من الشهادات الكاذبة عن يسوع، وسأله علانية: «*أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيح، ابن الله*» (متّى ٢٦: ٦٣؛ مرقس ١٤: ٦١). وعن هذا السؤال أجاب يسوع بوضوح ودقّة: «*أنا هو: وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدرة وآتيًا في سحائب السماء*» (مرقس ١٤: ٦٢). «*فمزّق رئيس الكهنة حينئذٍ ثيابه قائلاً: «قد جدّف! ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها قد سمعتم تجديفه! ماذا ترون؟»، فأجابوا وقالوا: «إنّه مستوجب الموت!*» (متّى ٢٦: ٦٥-٦٦). وبعد ذلك قاد اليهود يسوع إلى بيلاطس، وقالوا له: «*لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنّه جعل نفسه ابن الله*» (يوحنّا ١٩: ٧).

بهذا الأسلوب أعلن المخلِّص جهارًا أنّه المسيح، ابن الله، وذلك خلال محاكمة رسميّة وأمام تجمّع اليهود.

وكما بشّر المخلِّص عن نفسه، كذلك علّم تلاميذُه عنه بعد ذلك بإلهام الروح القدس. ولذا فقد عزا الرسل الإلهيّون في العهد الجديد كلّ الصفات الإلهيّة ليسوع المسيح ابن الله. فيصفه الإنجيل كالتالي:

١) أسماء الله

يسمّيه تحديدًا:

أ. الله: «*في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسدًا*» (يوحنّا ١: ١-٤).

ب. الله المتجسّد: «وبالإجماع، عظيم هو سرّ التقوى: الله ظهر في الجسد، تبرّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرز به بين الأمم، أومن به في العالم، رُفع في المجد» (١تيموثاوس ٣: ١٦).

ج. الربّ والله: «أنت ربّي وإلهي» (يوحنّا ٢٠: ٢٨).

د. إله حقيقيّ: «ونحن نعلم أنّ ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرةً لنعرف الحقّ ونحن في الحقّ في ابنه يسوع المسيح. هو الإله الحقّ والحياة الأبديّة» (١يوحنّا ٥: ٢٠).

ه. إله عظيم: «لأنّه قد ظهرت نعمة الله المخلّصة لجميع الناس، معلّمةً إيّانا أن ننكر الفجور والشهوات العالميّة ونعيش بالتعقّل والبرّ والتقوى في العالم الحاضر منتظرين الرجاء المبارَك وظهور مجد الله العظيم ومخلّصنا يسوع المسيح» (تيطس ٢: ١١-١٣).

د. إله مبارَك: «ومنهم جاء المسيح حسب الجسد الكائن على الكلّ إلهًا مبارَكًا إلى الأبد» (رومية ٩: ٥).

٢) الجوهر الإلهيّ

نذكر هنا بشكل رئيس آيات الرسول الإلهيّ بولس: «عظيم هو سرّ التقوى: الله ظهر في الجسد، تبرّر بالروح...» (١تيموثاوس ٣: ١٦). «لأنّ به (يسوع المسيح) يحلّ كلّ ملء اللاهوت جسديًّا» (كولوسي ٢: ٩).

٣) المساواة الكاملة مع الله الآب

«أبي يعمل حتّى الآن وأنا أعمل» (يوحنّا ٥: ١٧). «لأنّ مهما يعمل الآب فهذا يعمله الابن كذلك» (يوحنّا ٥: ١٩). «لأنّه كما أنّ الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته» (يوحنّا ٥: ٢٦).

٤) المساواة مع الله الآب في الجوهر

يظهر هذا في كلمات المخلِّص: «*أنا والآب واحد*» (يوحنّا ١٠: ٣٠). «*مَن رآني فقد رأى الآب... أنا في الآب والآب فيَّ*» (يوحنّا ١٤: ٩-١١). «*لو كنتم تعرفوني لعرفتم أبي أيضًا*» (يوحنّا ٨: ١٩). «*وكلّ ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي*» (يوحنّا ١٧: ١٠).

٥) صفات الله

أ. سرمديّ: «*والآن مجّدني أيّها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم*» (يوحنّا ١٧: ٥). «*أنا الألف والياء، البداءة والنهاية، الأوّل والآخِر*» (رؤيا ٢٢: ١٣).

ب. ذاتيّ الوجود: «*لأنّه كما أنّ الآب له الحياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته*» (يوحنّا ٥: ٢٦).

ج. كلّيّ الوجود: «*وليس أحد صعد إلى السماء إلاّ الذي نزل من السماء: ابن الإنسان الذي هو في السماء*» (يوحنّا ٣: ١٣).

د. كلّيّ المعرفة: «*ولكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنّه كان يعرف الجميع، ولأنّه لم يكن محتاجًا أن يشهد أحد عن الإنسان، لأنّه علم ما كان في الإنسان*» (يوحنّا ٢: ٢٤-٢٥). «*المذَّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم*» (كولوسي ٢: ٣).

ه. كلّيّ القدرة: «*لأنّه كما أنّ الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضًا يُحيي مَن يشاء*» (يوحنّا ٥: ٢١).

و. ذو المجد: «*لأنهم لو عرفوا لما صلبوا ربّ المجد*» (١كورنثوس ٢: ٨). «*يا إخوتي، لا يكن لكم إيمان ربّنا يسوع المسيح، ربّ المجد، في المحاباة*» (يعقوب ٢: ١).

٦) الأعمال الإلهيّة والسلطة فوق كلّ شيء

يُدعى ابن الله في الإنجيل:

أ. خالق العالم: «*كلّ شيء به كان وبغيره لم يكن شيء ممّا كان*» (يوحنّا ١: ٣). «*فإنّه فيه خُلق الكلّ، ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى سواءٌ كان عروشًا أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين. الكلّ به وله قد خُلق*» (كولوسي ١: ١٦).

ب. المعتني بالكون والعالم بالأمور قبل حدوثها: «*الذي هو قبل كلّ شيء، وبه يقوم الكلّ*» (كولوسي ١: ١٧). «*يحمل كلّ الأشياء بكلمة قدرته*» (عبرانيّين ١: ٣).

ج. سيّد الكلّ، ملك الملوك وربّ الأرباب: «*الكلمة التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل يبشّر بالسلام بيسوع المسيح ـ هذا هو ربّ الكلّ*» (أعمال ١٠: ٣٦). «*وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك وربّ الأرباب*» (رؤية ١٩: ١٦).

٧) التوقير الإلهيّ والعبادة من قبل كلّ الخليقة العاقلة

«*لكي يكرّم الجميع الابنَ كما يكرّمون الآب*» (يوحنّا ٥: ٢٣). «*لكي تجثو باسم يسوع كلّ ركبة ممّن في السماء ومَن على الأرض ومَن تحت الأرض. ويعترف كلّ لسان بأنّ يسوع المسيح هو ربّ لمجد الله الآب*» (فيليبّي ٢: ١٠-١١).

الفصل السادس
الله المعتلن في العهد القديم هو ابن الله الآب، الذي صار إنسانًا

سوف نبرهن أنّ يهوه[٤٣]، الإله الذي اعتلن لموسى، هو كلمة الله (أي الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس)، وأنّه هو الله الذي اعتلن في العهد القديم بكامله. وسوف نبرهن ذلك بعرض النصوص الكتابيّة ذات الصلة، ونثبت بهذا حقيقة الموضوع.

تُقسم النصوص الكتابيّة ذات الصلة إلى فئتين:

أ. نصوص تظهر بوضوح أنّ كلّ الظهورات الإلهيّة، التي حدثت في ظلّ الشريعة القديمة ودُوِّنت في العهد القديم، تشير إلى شخص إلهيّ واحد.

ب. نصوص تظهر بوضوح أنّ هذا الشخص الإلهيّ هو كلمة الله، الذي أخذ على عاتقه عمل الشريعة وأتمّه، وأنّه هو ملك العهدَين القديم والجديد.

١) ظهورات العهد القديم التي تشير إلى شخص إلهيّ واحد

يُحكى في التكوين أنّه حين كان إبراهيم جالسًا عند باب خيمته، ظهر له الله تحت بلّوطة ممرا. هذا الإله كشف عن ذاته بهيئة إنسان

[٤٣] يهوه (أو *Yahweh*) هو الاسم الذي استعمله الله حين كشف نفسه لموسى في العلّيقة المحترقة، كما تُنقل حرفيًا من الأحرف الساكنة العبريّة YHVY. ترجمت «السبعينيّة» هذه الكلمة إلى اليونانيّة على هذا الشكل (ὁ νΩ)، (أو بالعربيّة «أنا هو الكائن»). بمعنى آخر مَن هو نفسه على الدوام. بهذا الاسم لم يعطِ الإله الذي أعلن عن ذاته اسمًا شخصيًّا، بل الخاصيّة الإلهيّة لوجوده الأزليّ وغير المتغيِّر.

بين رجلَين آخرَين وتنبأ لإبراهيم قائلاً: *«أأكتم عن عبدي إبراهيم ما أنا صانعه؟ ولكنّ إبراهيم سيصير أمّة كبيرة مقتدرة، وتتبارك به أمم الأرض كلّها»* (تكوين ١٨: ١٧-١٨). ومرّة أخرى أظهر الله ذاته ليعقوب الذي كان هاربًا من وجه أخيه عيسو، وقال له: *«أنا هو إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. إنّ الأرض التي أنت نائم عليها لك أعطيها ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض... وتتبارك بك وبنسلك جميع عشائر الأرض»* (تكوين ٢٨: ١٣-١٤).

يتبيَّن لنا عند مقارنة هذين النصَين أنّ الإله الذي ظهر لإبراهيم بهيئة إنسان عند بلّوطة ممرا، والذي أعلن له أنّ الأمم سوف تتبارك عبر ذرّيّته، هو نفسه الذي ظهر ليعقوب في رؤيا على أنّه إله أبويه إبراهيم وإسحق، والذي كرّر الوعد عينه.

في ما بعد ظهر الله من جديد ليعقوب وهو عائد إلى الأرض التي وُلد فيها. هذه المرّة ظهر كإنسان في المكان الذي دعاه يعقوب «وجه الله» (وفي ترجمات أخرى «بيت الله»): *«لأنّي رأيت الله وجهًا لوجه وحُفظت حياتي»*. وعلى نحو مماثل، يقول الله **يهوه** لموسى وهو يرسله إلى أبناء إسرائيل: *«هذا ما تقوله لبني إسرائيل، الربّ إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري من جيل إلى جيل»* (خروج ٣: ١٥).

يتّضح أيضًا من هذه الآيات أنّ الله الذي اعتلن لموسى، الذي هو، تحديدًا، **يهوه**، هو نفسه مَن اعتلن لإبراهيم ويعقوب.

وعلاوة على ذلك فقد جاء في سِفر الخروج أنّ الله المعتلِن قاد أمّة اليهود في الصحراء كعمود من غمام ليرشدهم خلال النهار وكعمود من نار ليضيء لهم خلال الليل (راجع خروج ١٣: ٢١-٢٢).

يُفهم من المذكور هنا أنّ إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أي **يهوه**، هو الذي قاد الأمّة اليهوديّة كعمود من نار.

يقول الله **يهوه** وهو يعطي الشريعة لموسى: «*أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبوديّة*» (خروج ٢٠: ١-٢).

وفي ما بعد، يقول الله في حواره مع موسى بخصوص بناء التابوت: «*سوف أخاطبك من فوق الكفارة، من بين الكروبَين اللذين على تابوت الشهادة، بكلّ ما أوصيك به إلى بني إسرائيل*» (خروج ٢٥: ٢٢).

وفي سِفر التثنية، يعد موسى أبناء إسرائيل، بالنيابة عن الله بالتالي: «*لا يهملكم ولا يُهلككم ولا ينسى عهد آبائكم الذي أقسمه به لهم... لقد أخرجكم من مصر... من السماء أسمعكم صوته ليؤدّبكم... لقد دمّر أممًا ليُسكنكم مكانها ويعطيكم إيّاها ميراثًا*» (تثنية ٤: ٣١-٣٨).

وفي ما بعد يقول نحميّا عن **يهوه**: «*أنت الربّ الإله الذي اخترت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيّين وجعلت اسمه إبراهيم... وقطعت معه عهدًا على أن تعطيه أرض الكنعانيّين والحثّيين والأموريّين والفرزّيين واليبوسيّين والجرجاشيّين وتعطيها لنسله*» (نحميّا ٩: ٧-٨).

هذا الشخص الواحد الذي ظهر كإنسان وكإله، الذي اسمه **يهوه**، قد ظهر أيضًا كملاك الله، أو «رسول».

فالإله الذي حاور يعقوب قبلاً في سِفر التكوين، يظهر له الآن في نومه كملاك الله: «*وقال لي ملاك الله في حلم: «يا يعقوب». فقلت ها أنذا*». قال: «*ارفع عينيك وانظر:... فإنّي قد رأيت كلّ ما يصنعه لا بان بك. أنا الإله الذي تراءى لك في مكان الله، حيث مسحتَ النُصب بالزيت ونذرت لي نذرًا*» (تكوين ٣١: ١١-١٣).

يظهر **يهوه**، في الفقرة السابقة، كملاك الله وكالله في آن. وأكثر من ذلك، فإنّ يعقوب يدعو الله (**يهوه**) ملاكًا. ويقول يعقوب وهو يبارك إفرايم ومنسّى معارضًا يديه: «*الله الذي سار أمام أبويّ إبراهيم وإسحق، الإله الذي رعاني منذ كنتُ إلى هذا اليوم، الملاك الذي خلّصني من كلّ سوء، يبارك الولدين، وليُدعيا باسمي واسم أبويَّ إبراهيم وإسحق*» (تكوين ٤٨: ١٥-١٦). هنا كلمة «ملاك» مساوية لكلمة «الله».

إنّ الله الذي دعا نفسه **يهوه** (الكائن) في سِفر الخروج، حين ظهر لموسى، يُدعى ملاكًا: «*وتراءى له ملاك الربّ في لهيب نار من وسط عليقة، فنظر فإذا العلّيقة تشتعل بالنار وهي لا تحترق... وقال: «موسى، موسى» قال: «ها أنذا». قال: «لا تدنُ إلى ههنا. اخلع نعليك من رجليك، فإنّ المكان الذي أنت قائم فيه هو أرضٌ مقدّسة». وقال «أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب*» (**خروج ٣: ٢-٦**). هنا أيضًا يدعو الملاك نفسه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وعلى نحو مماثل فإنّ «*ملاك الله*» *السائر أمام عسكر بني إسرائيل، سار وراءهم، وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم، ودخل بين عسكر المصريّين وعسكر إسرائيل*» (خروج ١٤: ١٩-٢٠).

فالشخص نفسه المدعو، في الآيات المذكورة أعلاه، «ملاك الله» هو أيضًا مدعو «الربّ» و«الله» في الآية ٢٤. لاحظوا كلمات الكتاب المقدّس: «*وكان في هجعة الصبح أنّ الربّ تطلّع إلى عسكر المصريّين من عمود النار والغمام، وبلبل عسكر المصريّين، وعطّل دواليب المراكب فساقوها بمشقّة... وقال الربّ لموسى «مدّ يدك على البحر، فترتدّ المياه على المصريّين... وهكذا خلّص الربّ إسرائيل...* وخاف

الشعب الربّ وآمنوا بالله» (خروج ١٤: ٢٤-٣١).

وعلى نحو مماثل فإنّ ملاك الله يُدعى «الربّ» و«إله إسرائيل» في الفصل ٢٠. كما نلاحظ تبادل الأسماء هذا نفسه في العهد الجديد.

حين قدَّم إستفانوس دفاعه أمام مجمع اليهود، قال إنّ الملاك الذي تكلّم مع موسى في الصحراء وفي العلّيقة هو الذي أعطى الشريعة على طور سيناء. هذا ما نقرأه في أعمال الرسل: *«هذا موسى الذي أنكروه... هذا أرسله الله رئيسًا وفاديًا بيد الملاك الذي ظهر له في العلّيقة. هذا أخرجهم صانعًا عجائب وآياتٍ في أرض مصر وفي البحر الأحمر وفي البرّيّة أربعين سنة... هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرّيّة مع الملاك الذي كان يكلّمه في جبل سيناء...»* (أعمال ٧: ٣٥-٣٨). وإذ يقول الكتاب المقدّس إنّ الله كلّم موسى على طور سيناء، فإنّ إستفانوس يدعوه ملاكًا.

وفي سِفر التكوين يتكلّم ملاكُ الربّ مع إبراهيم على أنّه الله: *«فناداه ملاك الربّ من السماء قائلاً: «إبراهيم، إبراهيم!» قال: «ها أنذا». قال: «لا تمدَّ يدك إلى الصبيّ ولا تفعل به شيئًا فإنّي الآن عرفتُ أنّك متّقٍ لله فلم تُمسك عني ابنك وحيدك»... وسمّى إبراهيم ذلك المكان «الرَّبّ يُرى»، ولذلك يُقال اليوم: في الجبل، الربّ يُرى»* (تكوين ٢٢: ١١-١٤).

وفي الفصل السادس عشر من سِفر التكوين نجد أنّ ملاك الربّ لا يتكلّم على أنّه هو الله وحسب، وحتّى إنّ هاجر أيضًا تدعوه الله: *«فوجدها ملاك الربّ عند عين ماء في البرّيّة، عين الماء التي في طريق شور. فقال لها... لأكثِّرنَّ نسلك تكثيرًا حتّى لا يُحصى لكثرته... فأطلقت على الربّ مخاطبها اسم: أنت الله الرائيّ»* (تكوين ١٦: ٧-١٣).

ويشهد أشعياء أنّ ملاك الربّ، الإله المذكور أعلاه، ليس أحد الملائكة من المراتب السماويّة الذين أرسِلوا للخدمة: *«ليس سفير ولا رسول (ملاك)، بل هو نفسه خلَّص بني إسرائيل، من يد فرعون، لأنّه أحبّهم... هو نفسه افتداهم ورفعهم...»* (أشعياء ٦٣: ٨-٩). يتّضح لنا من هذا أنّ أشعياء يميّز بين الملائكة و«ملاك الله» الذي ظهر على جبل سيناء. وتاليًا فإنّ ملاك الله الذي ظهر في الصحراء، وفي العلّيقة، وفي الغمام، والذي كلَّم إبراهيم ويعقوب وموسى وهاجر، هو الإله الذي أظهر نفسه والذي دعا نفسه **يهوه**[٤٤].

تقدِّم المقاطع المذكورة أعلاه البرهان الكافي على أنّ كلّ الاعتلانات الإلهيّة التي حدثت خلال العهد العتيق تشير إلى الشخص نفسه الذي أعلن عن ذاته كما سُرَّ. والآن لنتفحّص المقاطع التي تشهد على أنّ هذا الشخص هو كلمة الله، لأنّه أخذ على عاتقه عمل الشريعة وأتمَّه، ولأنّه رئيس العهدَين القديم والجديد.

إن يهوه الذي دُعي في العهد القديم «ملاكًا» وأيضًا «رسول الله» قد نادى به الأنبياء على أنّه الله الذي سيكون فاديًا لليهود وسيّد

---

[٤٤] إنّ المدعو تكرارًا «ملاك الله» في كامل العهد القديم يُساوى أحيانًا بالله، ويميَّز في أحيان أخرى عن الله. ليس من مكان في العهد القديم يتكلّم فيه ملاك عاديّ على أنّه الله. وعلى العكس فكثيرًا ما يتكلّم «ملاك الله» هذا على أنّه يهوه نفسه، وتُعتبر هيئته على أنّها هيئة الله العليّ. هذا الكائن الإلهيّ كان الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس، كلمة الله، قبل تجسّده. ويُشار إليه في العهد الجديد بـ الكلمة (logos)، والابن، وشعاع الله، وصورة الله الدقيقة، وقوّة الله، وحكمة الله، ورسول. وتعبِّر الكنيسة عن هذا الأمر في العديد من الأناشيد. منها على سبيل المثال ما ننشد في غروب عيد دخول السيّد إلى الهيكل: «اقبلْ يا سمعان مَن سبق موسى فرآه في سيناء تحت الغمام واضعًا الشريعة، صائرًا طفلاً خاضعًا للشريعة. هذا هو ناطق الناموس، هذا هو المرموز إليه بالأنبياء، الذي تجسَّد من أجلنا وخلَّص الإنسان» (من كتاب الميناون). كما ننشد في الأودية السابعة: «إيّاك نسبّح يا كلمة الله يا مَن نديت في النار الفتية اللاهجين بالله، وحللت في بتول...» (من كتاب الميناون). كما ننشد في غروب عيد التجلّي الإلهيّ: «إنّ الذي خاطب موسى على طور سيناء قديمًا برموز قائلاً: «أنا هو الكائن»، اليوم تجلّى في طور ثابور على التلاميذ...» (من كتاب الميناون).

العهد العتيق الذي أتى لإنقاذ الذين سيؤمنون به. نحن نعرف ونؤمن بأنّه هو كلمة الله الذي خلّصنا وبأنّه سيّد العهد العتيق.

٢) الشخص الإلهيّ الواحد هو كلمة الله

يصف النبيّ زكريّا أنّ **يهوه** سوف يأتي إلى العالم. ولكن يبدو، في الوقت عينه، أنّ **يهوه** سيكون مرسَلاً. إليكم ما نقرأ: «*اهتفي وافرحي يا بنت صهيون فها أنذا آتي وأسكن في وسطكِ، يقول الربّ*» (زكريّا ٢: ١٤). ويضيف بعد ذلك: «*فتنضمّ أمم كثيرة إلى الربّ في ذلك اليوم وتكون لي شعبًا، فأسكن في وسطكِ فتعلمين أنّ ربّ القوّات أرسلني إليكِ*» (زكريا ٢: ١٥). وبالإضافة إلى ذلك فإنّ قائد إسرائيل المقبل ورئيسها يوصف على أنّه **يهوه**: «*وأصوله منذ القديم منذ أيّام الأزل*» (ميخا ٥: ١).

وإذ يقول النبيّ زكريّا إنّ الربّ سوف يظهر في وسط شعبه، يحدّد ملاخيا علاوة على ذلك أنّ الربّ، «ملاك العهد»، سوف يدخل إلى هيكله الخاصّ: «*ها أنذا مرسلٌ رسولي فيُعدّ الطريق أمامي، ويأتي فجأة إلى هيكله السّيد الذي تلتمسونه، وملاك العهد الذي ترتضّون به: ها إنه آتٍ، قال ربّ القوّات*» (ملاخيا ٣: ١-٢). وهكذا فإنّ **يهوه** الذي هو أيضًا «ملاك العهد»، سوف يأتي إلى هيكله الخاصّ. ويطبّق القدّيس مرقس الإنجيليّ هذه الآية على يسوع المسيح (مرقس ١: ٢)، فيعتبر أنّ المسيح هو مَن أعلن عنه الأنبياء والذي أمامه (بحسب أشعياء) سوف يُرسل الله رسوله ليهيّئ طريقه. بكلام آخر إنّ **يهوه** سوف يظهر بعد إرسال رسوله الخاصّ ليهيّئ طريقه. ولكنّ كلمة «رسول» لا تحمل هذا المعنى فقط. فالمقطع السابق بالغ الأهمّيّة لأنّ

القدّيس مرقس الإنجيليّ يُعْلمنا أنّ نبوءة ملاخيا التي تنذر بمجيء الله الربّ قد تحقّقت في يسوع الناصريّ. وتاليًا فإنّ **يهوه** قد أتى إلى هيكله الخاصّ.

«صوت صارخ في البرّيّة أعِدّوا طريق الربِّ واجعلوا سبل إلهنا في الصحراء قويمة. كلّ وادٍ يرتفع وكلّ جبل وتل ينخفض: والمنعرج يُقَوَّم ووعر الطريق يصير سهلاً. ويتجلّى مجد الربّ، ويعاينه كلّ بشر لأنّ فم الربّ قد تكلّم» (أشعياء ٤٠: ٣–٥).

حين يتكلّم النبيّ داود عن مجيء الربّ، يحثّ الأرض بأسرها على الهتاف: *«يا جميع الأرض هلّلوا لله، رتّلوا وابتهجوا وسبّحوا. رتّلوا للربّ على القيثار، على القيثار وعلى صوت المزمار، بأبواق من معدن وبصوت بوق القرن هلّلوا أمام الملك الربّ... الجبال ستهلّل قدّام وجه الربّ لأنّه آتٍ. إنّه آتٍ ليدين الأرض. سيدين المسكونة بالعدالة والشعوب بالاستقامة»* (مزمور ٩٧: ٤–٩). هنا يتنبّأ النبيّ داود بمجيء **يهوه**، الإله المعتلِن.

وإلى ذلك فالاستشهادات التالي ذكرها تبرهن أنّ الإله المعتلَن هو كلمة الله. إنّ أحدًا لم يرَ الله الآب، كما جاء على لسان القدّيس يوحنّا: *«الله لم يره أحد قطّ. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر»* (يوحنّا ١: ١٨). من هنا فإنّ الله الآب لم يصبح معروفًا لدى الناس إلاّ عبر الابن. وفي الفصل السادس يذكر الإنجيليّ أنّ يسوع أكّد: *«ليس أحدًا رأى الآب، إلاّ الذي مِن الله. هذا قد رأى الآب»*. (يوحنّا ٦: ٤٦). ولذا فالله المعتلِن في العهد القديم لم يكن الله الآب ولا ملاكًا مرسَلاً، بل ابن الله نفسه. ويشهد يسوع نفسه على هذا بالقول: *«لأنّ الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها، هذه الأعمال بعينها*

التي أنا أعملها هي تشهد لي أنّ الآب قد أرسلني» (يوحنّا ٥: ٣٦). لقد بدأت أعمال الخلاص مع سقوط آدم، والذي بدأ الأعمال هو الآن يتمّمها. إنّ أحدًا لا يقول إنّه سوف ينهي عملاً لم يبدأه يومًا. ويقول المسيح أيضًا: «*والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. أنتم لم تسمعوا صوته قطّ ولا أبصرتم هيئته*» (يوحنّا ٥: ٣٧). من هنا يتّضح لنا أيضًا أنّ أحدًا لم يسمع صوت الآب: لقد حدث الكشف من طريق الابن. لو أنّ موسى، أو آدم، أو الأبرار، أو رؤساء الآباء، أو الأنبياء، لو أن أحدًا من الذين كلّمهم الله، قد سمع صوت الله الآب، لما قال المخلّص: «*أنتم لم تسمعوا صوته قطّ ولا أبصرتم هيئته*» (يوحنّا ٥: ٣٧).

ويربط القدّيس يوحنّا الإنجيليّ عمى الشعب اليهوديّ وعدم إيمانهم وقساوة قلوبهم بنبوءة أشعياء. إذ يخبر هذا النبيّ مسبقًا بظهور الله وعدم إيمان إسرائيل في آن: «*سوف تسمعون سماعًا ولن تفهموا، وتنظرون نظرًا ولا تعرفون. لأنّ قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد سئمت من السماع وأغمضوا عيونهم لئلاّ يبصروا بعيونهم ويفهموا بقلبهم، ويرجعوا فيُشفون*» (أشعياء ٦: ٩-١٠).

ويأمرهم الرسول بولس بعدم تجربة الله: «*ولا نجرّبنّ المسيح كما جرّب أيضًا أناسٌ منهم فأهلكتهم الحيّات. ولا تتذمّروا كما تذمّر أيضًا أناس منهم فأهلكهم المهلِك. فهذه الأمور جميعها أصابتهم مثالاً وكُتبت لإنذارنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور*» (اكورنثوس ١٠: ٩-١١).

كما يذكر الرسول بولس، في رسالته إلى العبرانيّين، كلّ الرجال القدّيسين القدماء، وبعد أن يصف إيمانهم، يستنتج أخيرًا أنّ رئيس إيماننا المشترَك ومتمّمه هو المسيح (راجع عبرانيّين ١٢: ٢). وعلى

هذا المثال أيضًا، يعلّم في رسالته إلى الكورنثيّين أنّ المسيح كان أساس شريعة موسى والأنبياء، والعيش المؤمن في ظلّ العهد العتيق: *«وجميعهم أكلوا طعامًا واحدًا روحيًّا وجميعهم شربوا شرابًا واحدًا روحيًّا، لأنّهم كانوا يشربون من صخرة روحيّة تابعتهم، والصخرة كانت المسيح»* (١كورنثوس ١٠: ٣-٤).

وعلاوة على ذلك تنشد الكنيسة في يوم الخميس العظيم: «هكذا يقول الربّ لليهود: يا شعبي، ماذا صنعتُ بك أو بماذا آذيتك؟ لعميانكَ أنرتُ ولبرصك طهَّرتُ وللرجل الذي على السرير قوَّمتُ. يا شعبي، ماذا فعلتُ بك؟ وبماذا كافأتني؟ عوض المنّ مرارةً وبدل الماء خلاً وعوض أن تحبّني، على الصليب سمَّرتني. فلا أطيق في ما بعد احتمالاً، سأدعو الأمم وأولئك يمجّدونني مع الآب والروح، وأنا أهبهم الحياة الأبديّة»[٤٥].

وفي خدمة الساعات التي تُقام يوم الجمعة العظيم المقدّس يُرتَّل: «عندما سمَّرك الأبرياء من الشريعة، يا ربّ المجد، هتفت نحوهم: «بماذا أحزنتكم وبماذا أغضبتكم؟ مَن الذي نجّاكم قبلي من الحزن؟ والآن بماذا كافأتموني؟ بدل الخير شرًّا بدل عمود النار سمّرتموني على الصليب عوض الغمام، احتفرتم لي لحدًا. بدل المنّ قدّمتم لي مرارةً عوض الماء سقيتموني خلاً. سأدعو الأمم في ما بعد وأولئك يمجّدونني مع الآب والروح القدس»[٤٦].

نشعر أنّه قد ثبت بوضوح، من الأمور المذكورة حتّى الآن، أنّ الله المعتلن في العهد القديم تحت اسم **يهوه** «الكائن» هو الأقنوم

---

[٤٥] كتاب التريودي الذي يُقرأ في الفترة التحضيريّة للصوم الكبير وفيه.

[٤٦] المصدر ذاته.

الثاني من الثالوث القدّوس: الابن وكلمة الله الآب، الربّ يسوع المسيح، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا، صار إنسانًا. ألا نلنا جميعًا الخلاص برحمته، آمين[٤٧].

---

[٤٧] يقول القدّيس أثناسيوس الكبير، رئيس أساقفة الإسكندريّة، في اعترافه بالإيمان: «إنّه هو الذي قال له الآب: لنصنعْ الإنسان على حسب صورتنا ومثالنا، مَن ظهر شخصيًّا لرؤساء الآباء، مَن أعطى الشريعة، مَن تكلّم بالأنبياء، ومَن، في آخر الأزمنة، صار إنسانًا وأظهر أباه لكلّ الشعوب، ومَن يملك إلى الأدهار التي لا نهاية لها. لم يحصل المسيح مؤخّرًا على أيّ لقب، ولكنّنا آمنّا بأنّه كان كاملاً من العلى ومماثلاً للآب في كلّ شيء». كما يقول في اعتراف آخر لمجمع سيرمي: «كلّ مَن يقول إنّ الآية «لنصنعْ الإنسان» لا تشير إلى الآب في حديثه إلى الابن، بل إنّ الآب يخاطب نفسه، فليكنْ محرومًا. كلّ مَن يقول إنّ الآب غير المولود، أو إنّ جزءًا منه، وليس الابن، قد ظهر لإبراهيم، فليكنْ محرومًا. كلّ مَن يقول إنّ يعقوب لم يُقاتل الابن كشخص، بل الآبَ غير المولود، أو جزءًا منه، فليكنْ محرومًا. كلّ مَن يقول إنّ الآية «أمطر الله نارًا من لدن الله» لا تشير إلى الآب والابن، بل إنّ الآب أمطر من نفسه، فليكنْ محرومًا. لأنّ الابن والربَّ أمطر من الربّ الآب. كلّ مَن يسمع أنّ الآبَ هو ربٌ يجب إنّ يفهم بهذا القول إنّ الابن هو ربّ أيضًا. لأنّنا لا نُتحِد الابن بالآب، بل ندرك أنّه خاضع للآب. لأنّه لم يُنزل نارًا على سدوم من دون إرادة الآب، ولا أمطر من تلقاء نفسه، بل مع الربّ، أي الآب. ولا هو يجلس عن اليمين من تلقاء نفسه، بل إنّه يسمع للآب الذي يقول: «إجلس عن يميني» (Ante-Nicene Fathers, Vol. 2, p. 57). كما يتكلّم القدّيس أثناسيوس بشكل مماثل في موعظته الثانية «ضدّ الآريوسيّين». ويكرّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الأمور عينها في العظة الثالثة على الرسالة الثانية إلى تيموثاوس (راجع Nicene & Post-Nicene Fathers, 1st. Series, Vol. 13, p. 485). وكذلك القدّيس باسيليوس الكبير، أسقف قيصرية، في العظة الخامسة «ضدّ أفنوميوس» الذي يقول إنّ الوحدة ليست ناتجة من الاسم عينه، بل هي تُعرف من اتّحاد الطبيعة الإلهيّة.

الفصل السابع
شخصيّة ربّنا يسوع المسيح الإلهيّة، كما تشهد عليها العلامة العظيمة[48]

«يا معلّم، نريد أن نرى منك آية»
(متّى ١٢: ٣٨)

طلب الفرّيسيّون والكتبة إلى الربّ علامةً لكي يؤمنوا به: *«يا معلّم، نريد أن نرى منك آية»* (متّى ١٢: ٣٨). ولكن أيّ نوع من العلامة كانوا يبتغون؟ أتراهم كانوا محرومين من علامات كهذه منذ ظهور الربّ؟ أَلَم يكن الناس الذين شفوا من كلّ أنواع الأمراض علاماتٍ مقنعة، بما فيه الكفاية، عن قدرة يسوع الإلهيّة؟ أَلَم يكن الأعميان منذ مولدهما اللذان نالا البصر علامتَين مقنعتَين بما فيه الكفاية بشخصيّة يسوع الإلهيّة؟ أَلَم يكن الناس الذين أرهقتهم الأرواحُ الخبيثة وشفوا بكلماته فقط، علاماتٍ مبيّنة عن قدرته الكلّيّة؟ في ذلك الوقت بالتحديد أُحضِر أمام أَعينهم رجل أخرس وأعمى وممسوس، فشُفي بكلمة واحدة حتّى إنّ *«الأعمى الأخرس تكلّم وأبصر»* (متّى ١٢: ٢٢)، والذي كان ممسوسًا عاد إلى رشده. أَلَم يكن شفاء الذي كان يعاني هذه العاهات الثلاث المتنوّعة، علامةً كافية لإدهاشهم بالقدر الذي أدهش جميع مَن عاينوا ذلك وجعلهم يهتفون: *«ألعلّ هذا هو ابن داود؟»* (متّى ١٢: ٢٣). أَلَم تكن إقامة الأموات علاماتٍ كافية عن قدرته الإلهيّة؟ أَلَم يكن مجرّد حضوره الذي غرس الاحترام المطلق في كلّ مَن

[48] هذه موعظة ألقاها القدّيس نكتاريوس في خالكيذا، اليونان.

نظر إليه، علامة قصوى؟ فقد كان تعليمه، بحسب شهادة المستمعين إليه، مختلفًا عن تعليم الكتبة والفرّيسيّين إلى حدّ كبير، وذا مصداقيّة كاملة، مفاجئة وإلهيّة: *«وحدث أنّه حين أنهى يسوع هذه الأقوال كان الناس مذهولين من تعاليمه لأنّه كان يعلّم كمَن له سلطان وليس كالكتبة»* (متّى ٧: ٢٨-٢٩). ألَم تكن تلك علامة كافية لتوحي بالإيمان؟ ألم تكن الظاهرة الفريدة، ظاهرة تفوّقه المباشر، وجرأته التي لم يسبق لها مثيل، وخضوع تجّار الهيكل له، علامة منبئة بما فيه الكفاية؟ ولكن هل يتّسع لنا الوقت، مهما كان طويلاً، لو أردنا أن نعدّد كلّ ما قام به يسوع لأجلهم، ونظهر بوضوح العلامات التي صنعها يسوع أمامهم والتي لا عدّ لها ولا حصر؟ بالحقيقة لا! لأنّه، كما قال القدّيس يوحنّا الإنجيليّ: *«وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع، إن كُتبت واحدة فواحدة فلست أظن أنّ العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة»* (يوحنّا ٢١: ٢٥).

فأيّة علامة كانوا يطلبون إذًا من الربّ يسوع؟ بالطبع علامة تثبت نسبه الإلهيّ، ليس إلاّ. فقد قالوا: *«نحن نعلم أنّ موسى كلّمه الله، وأمّا هذا فما نعلم من أين هو»* (يوحنّا ٩: ٢٩). لقد شهدوا كلّ شيء، ورغم ذلك فقد نسبوا كلّ القوى والطاقات والعجائب إلى قدرة الشرّير. وهكذا عزوا شفاء الأعمى والأصمّ والممسوس، الذي أُحضِر إلى المسيح وشُفي أمام أعينهم قبل لحظات فقط، إلى قدرة سيّد الشياطين. وحين سأل المارّةُ وشهود هذا الشفاء المعجز المذهولون: *«ألعلّ هذا هو ابن داود؟»*، أجابوا: *«هذا الرجل لا يُخرج الشياطين إلاّ ببعلزبول، رئيس الشياطين»* (متّى ١٢: ٢٣-٢٤). وهكذا فقد رأوا العلامات، ولكنّهم اعتبروها أعمالاً من أسفل واستمرّوا يسعون إلى علامة من السماء من فوق. ربّما كانوا يطلبون نارًا من السماء لتنيرهم

بسبب قساوة قلوبهم وعدم إيمانهم، إذ لم تبقَ لهم أيّة علامة.

لقد سُمع صوت من السماء يشهد بالآتي: «*هذا هو ابني الحبيب الذي به سررتُ*» (متّى ٣: ١٧). وأشار نحوه يوحنّا المعمدان قائلاً: «*هذا هو حَمَل الله الرافع خطيئة العالم*» (يوحنّا ١: ٢٩). بالإضافة إلى أنّ الأنبياء تكلّموا عنه، وتحقّقت الآن نبوءاتهم في شخصه. كلّ نبوءة نالت تمامها فيه. أتراهم كانوا يطلبون أن يسقط المنّ من السماء مرّة أخرى؟ ولكن ماذا كان تكثير الخبز مرّتين في البرّيّة والذي به أطعم على التوالي خمسة آلاف وأربعة آلاف من دون النساء والأولاد؟ كانوا يطلبون علامة ليؤمنوا بأنّه أتى من الله. ولكن أيّة علامة كان يمكن أن تغرس الإحساس في قلوبهم المتحجّرة بسبب الخطيئة؟ أيّة علامة كان يمكن أن تترك أثرًا على أعينهم الكفيفة؟ ولا واحدة، ولا واحدة على الإطلاق. فبحسب أشعياء: «*لأنّ قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد سئمت من السماع وأغمضوا عيونهم لئلاّ يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم*» (أشعياء ٦: ١٠).

لذا لم تكن هناك علامة قادرة على أن تقودهم إلى الإيمان. لهذا يؤنّبهم يسوع على أنّهم جيل شرّير وفاسق ويعلن لهم عن العلامة التي سيعطيها بسبب عدم إيمانهم: «*ولن تعطى آية لهذا الجيل إلاّ آية يونان النبيّ*» (متّى ١٢: ٣٩).

إنّه يقرّعهم على أنّهم جيل شرّير ولأنّ ذهنهم المنحرف جعلهم ينسبون كلّ العجائب إلى قدرة بعلزبول، رئيس الشياطين. كانوا جيلاً شرّيرًا لأنّهم فهموا وجه السماء من العلامات، وعرفوا أن يميّزوا المناخ من بعض الإشارات، وكان بإمكانهم أن يعرفوا مسبقًا متى يكون الطقس مشمسًا ومتى يكون ماطرًا. ولكنّهم عجزوا عن تمييز

العلامات الواضحة والظاهرة التي تدلّ على زمن حضور المخلِّص. إنّه يوبِّخهم لأنّهم جيل فاسق؛ لأنّ ابنة أورشليم قد هجرت الله، وبدلاً من ذلك تبعت الشيطان وركضت وراءه. كان جيل الكتبةِ والفرّيسيّين هذا ابنَ الشيطان العاقَّ (راجع يوحنّا ٨: ٤٤). كانوا جيلاً مولودًا من الشيطان إذ لم تكن هناك أيّة علامة قادرة على اجتذابهم إلى الإيمان. ولذلك يعلن المسيح أنّه لن يعطيهم أيّة علامة من التي يتمنّونها باستثناء علامة يونان النبيّ. إنّه لا يتنبّأ بأنّ هذا الجيل الشرّير والفاسق الذي يطلب آية ليؤمن، لن يبلغ يومًا إلى معرفة الحقيقة وحسب، بل وحتّى إنّه سوف يسعى إلى قتله. ومع ذلك فهو نفسه سيكون العلامة التي يبحثون عنها، مثل العلامة الظاهرة عبر يونان، الذي اعترفوا بأنّه من العلى.

أعلن يسوع أنّه سيعطيهم علامة النبيّ يونان: الجيل غير المؤمن سوف يُحكم عليه بالموت، تمامًا كما حكم الذين كانوا في السفينة على يونان. وهو سيكون الخلاص حتّى لِمَن حكموا عليه، تمامًا كما كان يونان هو الخلاص لجميع مَن كانوا على متن السفينة. وسوف يُدفن لمدّة ثلاثة أيّام وليالٍ، تمامًا كما كان يونان في بطن الحوت. وسيقوم بعد ثلاثة أيّام، تمامًا كما برز يونان من أحشاء الحوت. وبعد قيامة المسيح سوف يُكرز بالتوبة في جميع أنحاء العالم، تمامًا كما كرز يونانُ بالتوبة لأهل نينوى. وسوف ينال العالمُ الخلاص بالإيمان به، تمامًا كما نال أهلُ نينوى الخلاص حين صدَّقوا يونان. وسيمنح الله الآب الخاطئين غفرانَ الخطايا، تمامًا كما مُنح أهل نينوى الغفران (راجع يونان ١: ١٧، ٣: ٥).

حذّرهم المسيح من كلّ شيء: كلّ النتائج التي لا يمكن تفاديها التي ستنشأ عن فسادهم وعدم إيمانهم. ورغم ذلك فليس من علامة

تحوّل شكّهم إلى إيمان. وهكذا دان المسيح فسادهم بظفره على الشرّير في داخل قلوبهم. فمُنحت العلامةُ السابق الإنباء بها بالشكل المناسب، والكنيسة تعيِّد لها بإجلال.

إنّها بالحقيقة لعلامة عظيمة أعطيت لليهود غير المؤمنين! والسماء والأرض والعالم السفليّ كلّها تشترك في تحقيقها. فالشمس تخفي أشعّتها بخوف: «*من الساعة السادسة كانت هناك ظلمة فوق الأرض كلّها حتّى الساعة التاسعة*»[٤٩] (متّى ٢٧: ٤٥). «*وإذا حجاب الهيكل قد انشقّ إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلّزلت والصخور تشقّقت. والقبور تفتّحت، وقام كثير من أجساد القدّيسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا لكثيرين*» (متّى ٢٧: ٥١-٥٤). انظروا أيّها الصدوقيّون والفرّيسيّيون العلامة المنشودة. أيّة علامة تفوق هذه عظمةً؟ انظروا! فالسماء والأرض والجحيم كلّها تشهد لألوهة يسوع. انظروا العلامة

---

[٤٩] أراد اليهود أن ينزل المسيح عن الصليب حتّى يروا ويؤمنوا. ولكن كسوف الشمس الذي حصل خلافًا لقوانين الطبيعة ودام ثلاث ساعات وأحلَّ الظلام على الأرض كلّها، كان أعجوبة أعظم ممّا لو نزل المسيح عن الصليب. ويعتمد القدّيس نيقوذيموس الأثوسيّ على شهادة القدّيس ذيونيسيوس الأريوباغيّ فيقول إنّ عددًا من قوانين الطبيعة قد اعتراه التبدّل خلال هذا الكسوف الفائق الطبيعة، لأنّه من المستحيل أن يتزاوج القمر مع الشمس حين يكون القمر بدرًا (كما كانت عليه الحال في الرابع عشر من الشهر خلال الاعتدال الربيعيّ، حين صُلب المسيح). في مثل هذه الأوضاع يكون هذان الجسمان السماويّان متعاكسين تمامًا. ولكي يحدث هذا الكسوف ١) في وسط النهار، كان يجب أن يقطع القمر ـ في لحظة واحدة ـ المسافة التي يحتاج في الحالات العاديّة إلى ١٢ ساعة لكي يقطعها، ٢) و بعدها يكون على القمر أن يتحرّك جنبًا إلى جنب مع الشمس باتّجاه الغرب ـ وهو عكس مساره الطبيعيّ ـ لمدّة ثلاث ساعات كاملة، ٣) وإذ سار القمر بالتزامن مع الشمس، فقد استدار بعد ذلك شرقًا، وبعد ثلاث ساعات، عند غروب الشمس، سار مسافة يحتاج إلى ٩ ساعات ليقطعها في الحالات العاديّة. وتاليًا فعندما غربت الشمس غربًا، كان القمر في الشرق في نقطة معاكسة لها تمامًا، وهكذا عاد الجسمان إلى ترتيبهما الطبيعيّ (*Handbook of Spiritual Counsels*, Athens: N. Panagopoulos, 2001, pp. 307-311).

التي لم تذهل وتدهش العناصر والبشريّة فحسب، بل أيضًا الأرواح السماويّة، مراتب الملائكة العديميّ الأجساد!

الفصل الثامن
طبيعة المسيح الإلهيّة كما تشهد عليها الولادة الخلقيّة الجديدة التي أبصرت النور في العالم

يا لها، بالحقيقة، من علامة معجزة! فها قد انقضت تسعة عشر قرنًا كاملة على حصول هذا الحدث الرهيب، وما زالت هذه العلامة تظهر كبصمة أبديّة. كم من الأحداث المتنوّعة حصلت منذ ارتفاع الصليب المكرَّم؟ لنفحص القرون. لندرس الحقب التي سبقت والتي تلت هذا الحدث. لنقابل الأمم قبل هذا الحدث وبعده. لنتعرَّف إلى سلوكيّاتهم، وقوانينهم، ودياناتهم، ومبادئهم الأخلاقيّة، حتّى نتوصّل إلى معرفة التغيير الذي حدث ونفهم التحوّل الذي تحقّق. يعلّمنا التاريخ أنّ كلّ شيء تبدّل بعد صلب الربّ يسوع: القوانين والسلوكيّات، والديانات، والمبادئ الخلقيّة، والعادات، والتقاليد، والعبادة، والأفكار، والمعرفة - وحتّى الأنظمة الفلسفيّة ذاتها.

أمّا نحن، تلاميذ المخلِّص الأوفياء، فنعيِّد بإكرام لهذا الحدث الذي حصل في اليهوديّة منذ تسعة عشر قرنًا كاملة. نحن شهود أحياء على ألوهيّة يسوع: يسوع الذي عُلّق على الصليب. نحن المنذرين، بصوتٍ عالٍ وثاقب، بهذه العلامة التي أعطيت. نحن نعترف بقدرة الصليب الذي رُفع في الجلجلة، بعد مرور قرون عديدة. فمن أين وُلد هذا التحوّل؟ كيف لرجل عُلّق وصُلب في اليهوديّة كمجرم بين لصَّين أن يسيطر على العالم بأسره بعد موته؟ كيف اقتنعت البشريّة بالاعتراف برجل مات على الصليب على أنّه الله؟ كيف

تبعته البشريّة ناكرةً نفسها ورافعةً الصليب على كتفيها، كما فعل هو، ومستعدّةً ومتلهّفة للصعود معه إلى الجلجلة، ومستعدّة لإراقة آخر نقطة من دمها من أجله؟

كيف قبِله ملوك على أنّه ملك الملوك وربّ الأرباب؟ كيف رفضت الأمم والشعوب أن تقدّم العبادة لآلهتها لكي تعبد يسوع المصلوبِ؟ لماذا تركوا أوثانهم الخاصّة لكي يكرِّموا ما كان غريبًا، المعروفَ ليعبدوا المجهول؟ كيف أصبح صليب العار الصليبَ الأكثر إكرامًا الذي يزيِّن تيجان الملوك والأباطرة[٥٠]؟ أيّة قوّة حقّقت كلّ هذه الأمور؟ إنّها قوّة الشخص المصلوب. قوّة ابن الله الذي نزل من السماء. لقد صنعت قوّته الإلهيّة الكلّيّة القدرة كلّ هذه الأمور. وهي القوّة التي سيطرت على العالم.

لم يكن تلاميذ يسوع المصلوب يقودون جيشًا. لم يكونوا يملكون أسلحة. لم يحوزوا كيسًا ولا عصا. والأصح أنّهم، كخراف بين ذئاب، بشَّروا بيسوع المصلوب الذي كان معثرة لليهود وحماقة لليونانيّين (راجع ١كورنثوس ١: ٢٣). لم يبشّروا ببلاغة حكيمة، بل بالحريّ بكلمات بسيطة وقويّة. ولكن من أين أتت هذه القوّة؟ كانت هذه بالحقيقة قوّة لا يفي بها وصف لأنّها خوَّلت الصيّاد وجابي الضرائب وصانع الخِيَم، بأوامر بسيطة، أن يقيموا الأموات، ويطردوا

---

[٥٠] استعملت الكنيسة الصليب بشكل واسع منذ الأزمنة القديمة. وحين أصبح القدّيس قسطنطين الكبير إمبراطورًا، فعلاوة على تكريمه علامة الصليب واستعمالها، فقد جعلها رمز مملكته المسيحيّة الجديدة. ومن المهمّ الإشارة أيضًا إلى أنّ القدّيسة هيلانة أعادت معها إلى القسطنطينيّة المسامير التي استُعملت لتسمير المسيح على الصليب هديّةً كريمة منها إلى ابنها. وضع القدّيس قسطنطين أحد هذه المسامير داخل لجام حصانه، كما جاء على لسان النبيّ زكريّا: «ويكون في ذلك اليوم مكتوبًاعلى جلاجل الخيل: «قدسٌ للربّ»» (زكريّا ١٤: ٢٠). وأمّا الثاني فوضعه داخل خوذته. هكذا كان احترام الأباطرة المسيحيّين للصليب المكرّم.

الشياطين، ويطردوا الموت، ويُبكموا الفلاسفة ويسدّوا أفواه الخطباء، ويهزموا ملوكًا وحكّامًا، ويسودوا اليونانيّين والبرابرة وجميع الشعوب. والسبب أنّهم بشّروا بالإنجيل بسلطة في جميع أنحاء العالم.

كيف أصبح الصيّادون رسلاً ومنذرين بالحقائق المعلَنة؟ كيف اصطادوا الأمم والشعوب كسمك في شبكة؟ كان بطرس قد هرم وهو يرمي الشباك على شواطئ طبريّا. فكيف أصبح، بين ليلة وضحاها، المتحدّث الأكثر حكمة والأكثر طلاقة، فأقنع آلافًا من اليهود الذين شاخوا في عبادة الناموس القديم، بأنّ العظَمة الخارجيّة، عظَمة ديانتهم القديمة والموقّرة عادت لا ترضي الله، وأنّها سوف تُبطل إلى الأبد؟ بأنّ كلّ خِدمها الأسراريّة ما هي سوى ظلّ للأمور الآتية التي أعلِنت الآن؟ بأنّ التقاليد التي كانوا ملتزمين بها كانت وصايا أناس قاوموا ناموس الله؟ بأنّ مَن حكموا عليه، الرجل المرذول الذي لفظ أنفاسه الأخيرة على الصليب، هو الفادي العظيم نفسه، مسيّا المنتظر الذي تنبّأ به الأنبياء. بأنّهم ليسوا الهدف الوحيد لنِعم التدبير الإلهيّ المعجزة، بل أنّ أمم الأرض كافّة مدعوّة للاشتراك معهم في البهجة؟ (راجع أعمال ٢: ١-٤١).

كيف نجح الصيّادون بإقناع الوثنيّين المتعدّدي الآلهة بأن يتنقَّوا ويجعلوا أفكارهم روحانيّة، وكيف نجحوا بتحريرهم من المادّة الميتة التي اعتادوا عليها وبإعادتهم إلى الإله الحيّ؟ كيف أبعدوهم عن ملذات الحواسّ الخادعة وطهَّروهم من الأهواء وجعلوهم أكثر حكمة من الحكماء؟ وخصوصًا كيف أقنعوهم بعبادة رجل مات على الصليب وحوّلوا أمام أعينهم حماقة الصليب إلى حكمة إلهيّة؟ كيف أقنع رسل المصلوب أتباعهم الجدد بشجب اهتماماتهم الدنيويّة

ليعيشوا عرضة للازدراء والإهانة والسخرية، ويستخفّوا بكلّ أنواع الآلام والعقوبات ويقاوموا كلّ التجارب، وأن يحتملوا الموت بفضل تعليم تبقى مكافآته غير مضمونة ومحفوظة للحياة الأخرى؟

إنّه بالحقيقة لسرّ عظيم! فأمور العالم السخيفة والضعيفة، الأمور المزدراة، والأمور غير الموجودة، تضع الحكماء موضع خجل، وتُضعف الأقوياء، وتُلغي الأمور الموجودة! (راجع ١كورنثوس ١: ١٨-٢٨). الذي صُلب على الصليب أعطى رسله تلك القوّة! كان الله مختفيًا في شخص يسوع! الابن وكلمة الله، الذي يسع كلّ شيء، موسوع في جسد! يصبح الإنسان متصوّفًا لرغبات الله! روح الله ينزل على البشر! الإنسان يرى المستقبل قبل حدوثه! الله اللامتناهي يتواصل مع الإنسان المحدود، اللاماديّ مع المادّة، الخالق مع الخليقة، الفاخوريّ مع الطين! الله يكشف ذاته للشعب. روح الله يعيد صنع الإنسان ويجدّده، هذا الإنسان الذي أفسدته الخطيئة. الإنسان يصبح إلهًا. إنّه يصبح شريكًا لنعمة الروح القدس! هذه، في الجوهر، أسرار لا يُسبر غورها، غير أنّ نتيجتها واضحة. نحن لا نقدر على أن نفهم كيف صار الله إنسانًا، ولكنّنا ندرك أنّ وحده الله-الإنسان كان قادرًا على تحقيق ما هو مُلك لله وحده. نحن لا نقدر على أن نفهم كيف يستطيع الإنسان أن يصبح إلهًا، ولكنّنا ندرك أنّ الإنسان، بدون الله، لا يستطيع أن يحقّق شيئًا، وعلى الأخصّ ما حقّقه رجال الله (أي الأنبياء والرسل وجميع القدّيسين). إنّ العجائب هي بالحقيقة لغز، ولكنّ قدرتها ونتيجتها واضحتان. والإيمان المسيحيّ سرٌّ، ولكنّ حقيقته ظاهرة من قدرته وتأثيراته، فهو يمنح المرء دليلاً وفرًا من الخارج ويعطيه الثقة في الداخل.

كلّ ما ذُكر أعلاه يثبت الصفة الإلهيّة لمخلِّصنا يسوع المسيح الذي قدَّم العلامة العظيمة التي طلبها اليهود. هذه العلامة تعلن، بالنبرة العليا، النسبَ الإلهيّ لابن الله الذي أتى ليخلِّص الإنسان على حسب مشيئة والده السرمديّ.

الفصل التاسع
ألوهيّة المسيح كما يشهد عليها التاريخ

تتّضح شخصيّة ربّنا يسوع المسيح الإلهيّة من تعليمه السامي، وأعماله، وسلوكه الأخلاقيّ المجيد. لم يأتِ أحدٌ يومًا، عدا يسوع المسيح، بتعليم أكثر سموًّا، وفي متناول الجميع، وأعطى في الوقت عينه وسائل التنفيذ وعرض ذاته كمثال. شخصيّة كهذه هي بالحقيقة إلهيّة. ومَن يتمتّع بمثل هذه الشخصيّة هو إنسان متفوّق، إله-إنسان جدير بالاحترام والحبّ، وبالعبادة العقليّة والروحيّة. انتشر تعليمه في كلّ أنحاء الأرض وتجاوز كلّ العوائق. ومثل نهر عملاق، تمدّد وفاض على العالم بأسره، وهو يسعى إلى غمره. أوروبّا وآسيا وإفريقيا والعالمان الجديد والقديم، حتّى إلى أبعد نقطة من حدودها النائية، كلّها عرفت المسيح على أنّه معلِّمها الإلهيّ الذي لقّنها الحقيقة كاملة، الذي كشف للعالم طريقة الخلاص، الذي قادها كلّها إلى الخلود، والذي تعيَّن راعيًا لها.

صمت كلّ العرّافين، أصبحت الهياكل خرابًا، وهُجرت الغابات المقدّسة. الكاهنات[٥١]، والعرّافون، والسحرة، وكلّ الفلاسفة الحقيقيّين لم يصبحوا تلاميذ للمسيح ومؤمنين به وحسب، بل كارزين مجاهرين به وخدّامًا له على السواء. وأمّا الأماكن التي شهدت في ما مضى تبشير كهنة الأوثان وذبائحهم، فتشهد الآن تبشيرًا بكلمة المسيح، وفيها يحتفل خدّامُ العليّ بالأسرار الإلهيّة التي لكنيسة المسيح.

---

[٥١] Pythia كنّ نساء كرّسن أنفسهنّ لخدمة «إله» مدى الحياة.

والكراسي التي جلس عليها مرّة الولاة الرومانيّون ليرأسوا، عليها اليوم قضاة مسيحيّون يجلسون لإحقاق العدل. وحيث نُصبت قديمًا عروش للقياصرة، تأسّست اليوم عروش لملوك مسيحيّين.

ومن المصادر غير المسيحيّة، نذكر المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس الذي يشهد لشخصيّة ربّنا يسوع المسيح الإلهيّة بالقول: «وُجد قرابةَ تلك الأيّام رجلٌ حكيم يُدعى يسوع، إن كان يصحّ أن ندعوه رجلا لأنّه صنع أعمالا عجائبيّة - معلِّمٌ لبضعة رجال تلقّوا منه الحقيقة بمتعة. استقطب العديد من اليهود والوثنيّين في آن. كان هو المسيح. وحين حَكم عليه بيلاطس بالصليب، لدى اقتراح رجالنا البارزين، فالذين أحبّوه من البدء لم ينسوه، لأنّه ظهر لهم من جديد حيًّا في اليوم الثالث، كما تنبّأ الأنبياء الإلهيّون بهذه الأمور ومئات الآلاف من الأمور العجيبة الأخرى المختصّة به. وحتّى يومنا الحاضر لم تنقرض قبيلة المسيحيّين المسمّاة بهذا الاسم نسبةً إليه»[٥٢].

هذه الحوادث عينها يكرّرها التلمود[٥٣] وسلسلة طويلة من كتّاب يونانيّين ورومان واسعي الاطّلاع لن نذكر أسماءهم بغية الاختصار. وممّا كتبه كتّاب معاصرون، سوف نشير إلى بعض المقاطع المأخوذة من مؤلَّف «إميل» للكاتب جان جاك روسّو[٥٤]:

«أعترف أيضًا بأنّ قدسية الإنجيل تمسّ قلبي، وأنّ هذه حجّة عليَّ أن آسف لدحضها. لاحظ كتب الفلاسفة بكلّ مظهرها الخارجيّ، كم

---

[52] *Antiquities of the Jews*, p. 480.

[٥٣] التلمود مجموعة كتابات تؤلّف الشريعة المدنيّة والدينيّة اليهوديّة. ورغم أنّه يحتوي على الكثير من التجديفات على المسيحيّة، لكنّه يذكر أنّ المسيح قد اجترح عجائب، وأنّ عددًا كبيرًا جدًّا من الوثنيّين سافروا إلى أورشليم لرؤية المسيح مخلّص العالم.

[٥٤] كان Jean Jacques Rousseau (1712-1778) كاتبًا فرنسيًّا ومنظِّرًا اجتماعيًّا.

هي جذّابة بالمقابلة مع الإنجيل! أيمكن أن يكون كتاب بهذه العظمة وبهذه البساطة في آن، من عمل البشر؟ هل من المعقول أن يكون الذي يتضمّن هذا الكتابُ قصتَه، مجرّدَ رجل؟ هل نبرة هذا الكتاب هي نبرة منشقٍّ متحمّس أو طَمِوح؟ أيّة عذوبة ونقاوة في تصرّفاته، أيّة نعمة مؤثّرة في تعليمه! ولَكَم هي أقواله سامية، ومواعظه حكيمة وعميقة، وكم إجاباته حاضرة ومميِّزة وصحيحة! أيّ رجل، أو أيّ حكيم يمكن أن يحيا ويتألّم ويموت من دون ضعف ومن دون مباهاة؟

«حين يصف أفلاطون رجله الوهميّ الصالح الذي أرهقه خزي الجريمة، وهو المستحقّ كلّ مكافآت الفضيلة، فإنّ كلّ ملمح من ملامح الصورة الموصوفة هو للمسيح. فالشبه صاعق لدرجة أنّ جميع الآباء قد لاحظوه وليس من شكّ حوله. لا بدّ من أنّنا سنكون على درجة لامتناهية من التحيّز والعمى حتّى نتجرّأ على مقابلة ابن صوفرونيسكا بابن مريم. كم هما متباعدان! مات سقراط من دون ألم، ولكنّه لم يتعرّض للخزي العامّ، وأدّى دوره بسهولة إلى النهاية. ولو لم يكن هذا الموت السهل قد شرَّف حياته فلربّما كنّا شككنا ما إذا كان سقراط، بكلّ ذكائه، أكثر من مجرّد مفكّر. ابتكر علم الأخلاق، كما قيل. ومارسه أناس قبله، سقراط قال فقط ما فعلوه، واستعمل مثالهم في تعليمه. عاش آريستيدس مباشرة قبل تحديد سقراط للعدالة. مات ليونيداس من أجل بلاده قبل أن يعلن سقراط أنّ الوطنيّة هي فضيلة. كان سبرتا رزينًا قبل أن يُفرط سقراط بإطراء الرزانة. كان في اليونان وفرة من الرجال الفاضلين قبل أن يعرِّف سقراط الفضيلة. ولكن أين وجد يسوع، من بينِ كلّ رجال عصره، تلك الأخلاقيّة الخالصة والسامية التي هو معلّمها ومِثالها في آن؟ ارتفع صوت الحكمة الأسمى

من وسط التعصّب الأكثر وحشيّة، وشرَّفت بساطةُ الفضائل الأكثر بطولة، حتّى الأمم الأكثر انحطاطًا. قد لا يتمنّى المرء ميتة أكثر سهولة من موت سقراط، بينما كان في نقاش هادئ فلسفيّ مع أصدقاء، وقد لا يخشى المرء أمرًا أكثر سوءًا من ميتة يسوع، وهو ينازع، وسط الشتائم والسخرية ولعنات الأمّة كلّها. وفي وسط كلّ هذه العذابات المريعة، صلّى يسوع من أجل قاتليه القساة.

«نعم، إن كانت حياة سقراط وموته يخصّان فيلسوفًا، فحياة يسوع وموته يخصّان إلهًا. هل يمكننا أن نقول إنّ قصّة الإنجيل من عمل الخيال؟ مثل هذه الأمور، يا صديقي، لا يمكن تخيّلها؛ وأعمال يسوع موثَّقة بشكل أفضل من أعمال سقراط التي لا ينكرها أحد. في أفضل الحالات أنت فقط تضع الصعوبة من نفسك؛ ومع ذلك يبقى أكثر إعجازًا أن يكون بضعة أشخاص اتّفقوا على اختراع مثل هذا الكتاب ممّا لو كان هناك شخص واحد ابتدع الموضوع. ليست نبرة هذه القصّة أو العبرة منها من عمل أيّ مؤلّف يهوديّ. كما أنّ الإنجيل يتضمّن بالتأكيد شخصيّات متفوّقة وخارجة عن المألوف إلى حدّ كبير، ولا يمكن أن تضاهى البتّة، ما يجعل اختراعها أكثر إذهالاً من البطل نفسه. وإلى ذلك كلّه فالإنجيل ذاته مترع بأمور لا تصدّق، أمور ينفر المرء عند التفكير بها، أمور لا يمكن لإنسان طبيعيّ أن يفهمها أو يقبلها. فماذا بإمكانك أن تفعل في وسط متناقضات بهذه الكمّيّة؟ يمكنك، يا ولدي، أن تكون متواضعًا ومتحفّظًا. احترم بصمت ما تعجز عن رفضه أو فهمه، وواضع نفسك تحت نظر الكائن الإلهيّ الذي وحده يعرف الحقيقة.

«لدينا في كتابات الحاخامات مادّة غزيرة لإنتاج صورةٍ مثاليّة لمعلِّم

يهوديّ. لدينا الأقوال المأثورة والسجلّات الخاصّة بهلّيل وغملائيل والرابي صموئيل. وربّما يكون الجزء الأعظم من كلّ هذه مختلقًا، إلّا أنّها تحمل نموذجًا لأفكارهم العرقيّة، وهي مصوغة بحسب نمط كمالٍ خياليّ. ورغم ذلك فإنّ عقولهم ومبادئهم وأعمالهم وصفاتهم هي أبعد ما يكون عن عقل فادينا ومبادئه وأعماله وصفاته. لقد كانوا متحمّسين للنزاعات الجدليّة والحديث السفسطائيّ الغريب، مؤيّدين للمبادئ المطلقة الخاصّة بأمّتهم، غيورين عليها، مدافعين حارّين ومداومين في محاولاتهم للحفاظ على أدقّ لهجة في الناموس. ومع ذلك فإنّهم يبعدون أنفسهم، بسفسطائيّتهم، عن روح الناموس. هكذا كان معظم هؤلاء الرجال العظامٍ: الانعكاس والانحراف بحدّ ذاته.

«كيف حدث أن رجالًا غير متعلّمين ابتكروا وقدّموا شخصيّة كانت بعيدة إلى هذا الحدّ، ومن جميع النواحي، عن مثالهم العرقيّ، شخصيّة متعارضة بالكلّيّة مع كلّ الميزات التي حدَّدتها العادةُ والتربية والوطنيّة والديانة والطبيعة على أنّها الأجمل من كلّ ما عداها؟ إنّ الصعوبة في اعتبار مثل هذه الشخصيّة على أنّها تصوّرٌ بشريّ تخيَّله شعبٌ عاق، لتزيد أكثر حين يجد المرء أنّ مؤلّفَين مثل القدّيس متّي والقدّيس يوحنّا، يعطيان وصفًا واحدًا رغم أنّهما يذكران أحداثًا مختلفة. يبدو لي مع ذلك أنّنا نجد هنا المفتاح لحلّ كلّ الصعوبات. فلو طُلب من فنّانَين أن يضعا رسمًا (يجب أن يحتوي على أفكار كلّ منهما حول الجمال الأمثل) فأنتجا لوحتَين فيهما شكل مأخوذ منٍ نماذج وأمثلة تختلف بدرجة كبيرة عن كلّ النماذج والأمثلة الأخرى المعروفة حتّى ذلك الوقت، في تلك المنطقة، وفي الوقت عينه كان هذان الرسمان متطابقَين، فإنّي لمتأكّد من أنه لو تمّ نشر هذا الحدث، لبدا نوعًا ما غير

قابل للتصديق، إلاّ إذا افترضنا أنّ الفنّانَين نسخا النموذج عينه.

«وتاليًا هذا ما حصل هنا أيضًا. لا شكّ في أنّ الإنجيليّين وصفوا شخصًا حيًّا أيضًا... ولكن هذا يزيد إعجابنا الصوفيّ حتّى أكثر، إذ إنّه لم يكن بالطبع شبيهًا بغيره من أفراد الشعب، هو الذي كان قادرًا، عبر شخصيّته، على أن يكون متميّزًا عن كلٍّ مَن هم حوله، وأن يُعرَف على أنّه الرجل الأكثر كمالاً والأكثر إذهالاً. وفي حين كان يتجاوز كلّ أفكار الأمم بخصوص الكمال، فإنّه لم يقتبس شيئًا عن النماذج العليا للرجال اليونانيّين أو الهنود أو المصريّين أو الرومان. ورغم أنّه لم يكن يملك شيئًا مشتركًا بينه وبين أيّ شخصيّة معروفة، من أيّ نوع كانت، ولا بينه وبين أيّ مقياس متعارف عليه للكمال، فإنّ جميع الشعوب يمكن أن تعتبره نموذج الامتياز الخارج عن المألوف، هذا النموذج الذي يتمنّاه كلّ إنسان»[55].

وقال نابّوليون الأوّل حين كان منفيًّا على جزيرة القدّيسة هيلانة، وهو يتحاور مع أقرانه المنفيّين: «إنّ المسيح يأمرنا حقًّا بأن نؤمن بمجموعة من الأمور الغامضة من دون أن يعطينا أيّ دليل سوى هذه الآية العظيمة والصاعقة: «أنا هو الله». ولا شكّ في أنّ علينا أن نمتلك الإيمان لكي نصدّق هذا القول الذي منه تنبثق كلّ الأمور الأخرى. وما أن نقبل ألوهيّة المسيح حتّى يظهر تعليم الإنجيل بدقّة ووضوح، حتّى إنّنا نعجب بترابطه ووحدته. وهو لكونه مرتكزًا على الكتاب المقدّس، فإنّه يفسّر بإيجاز فائق تقاليد الإنسانيّة ويشرحها. المسيحيّة تتجاوز كلّ فلسفة وكلّ ديانة... لأنّ المسيحيّين ليسوا

[55] B. Foxley, edited by G. Roosevelt, Everyman's Library collection, J.M. Dent & Sons Ltd (London) and E. P. Dutton & Co. (New York), 1911, [1089].

مخدوعين حول طبيعة الأشياء. وليس باستطاعة أحد أن يوبّخهم، لا حذاقة الإيديولوجيّين ولا خداعهم، هؤلاء الذين ظنّوا بأنّهم حلّوا اللغز العظيم، لغز القضايا اللاهوتيّة عبر أطروحات فارغة. إنّهم خالون من المعنى، ويشبه جنونهم جنون طفل يتمنّى أن يلمس السماء بإصبعه، أو يطلب أن يلعب مع القمر.

«تقول المسيحيّة ببساطة: «إنّ أحدًا لم يرَ الله سوى الله». الله أظهر نفسه. وهذا الظهور هو سرّ لا يمكن للكلمات ولا للعقل أن يفهماه. وبما أنّ الله قد تكلّم، فعلينا أن نؤمن. هذا هو الأنسب. ليس الإنجيل مجرّد كتاب بل هو كيان حيّ ذو قوّة وحيويّة ويُخضع كلّ شيء يعارضه. حين ندرسه نشعر وكأنّنا نحدّق في السماء. انظروا إنّ هذا الكتاب الرائع موضوع على الطاولة. أنا لا أسأم من قراءته بل أطالعه على الدوام بالمتعة عينها.

«المسيح لا يتغيّر. ليس متقوقعًا على الإطلاق داخل تعليمه. لا نجد في أيّ مكان آخر تلك المجموعة من الأفكار الجميلة والمبادئ الأخلاقيّة التي تسمو على مراتب الملائكة السماويّين. ليس من خطر البتّة في أن تقع الروح ضحيّة الخداع عند قراءة هذا الكتاب. ما أن يتجاوز الروح حتّى يستعبد القلب على الأثر. هذا الإله هو صديق، وأب، وإلهنا الحقيقيّ. يا له من دليل على يسوع المسيح! بتلك القدرة المطلقة، له هدف واحد: تطوّر البشر الروحيّ وتطهير الضمير والاتّحاد في الحقّ وقداسة الروح.

«وأختم بحجّتي الأخيرة: ليس من إله في السماوات إن كان هناك رجل واحد قادرًا على تدبير وتنفيذ، بمثل هذا النجاح الكامل، هذا الهدف الضخم، ألا وهو انتزاع أسمى درجات العبادة لنفسه باتّخاذه

اسم الله زورًا. يسوع وحده تجرّأ على ذلك. إنّه الشخص الوحيد الذي قال بوضوح: «أنا هو الله». ولا يذكر التاريخ شخصًا آخر وصف نفسه هكذا مستعملاً اسم الله، بالمعنى الأضيق. لم يُذكر في أيّ مكان في كامل الميثولوجيا أن زفس أو أيّ إله آخر قد ادّعى لنفسه الألوهة. كان سليلو القرون الأولى وخلفاؤهم يؤلّهونهم لأنّ كلّ أفراد الشعب كانوا من النسب ذاته. وقد دعا الإسكندر الكبير نفسه ابن زفس إلاّ أنّ اليونان كلّها تكلَّفت الابتسام لدى سماعها هذا الكلام الساحر. كما أنّ الرومان لم يأخذوا يومًا على محمل الجدّ مسألة تأليه الأباطرة الرومان. ولسنا نصادف في أيّ مكان آخر مثل هذه المجموعات من الأفكار الرائعة الجمال والحِكم الأخلاقيّة، المنتظمة بانسجام كما في صفوف سماويّة، موحية في داخلنا الشعور ذاته الذي يختبره المرء حين يتفرّس بالفضاء اللامتناهي العمق، في السماء اللامعةِ المتزيِّنة بكامل إشراق نجومها، في أمسيّة صيفيّة رائعة.

«حين نطالع الإنجيل، لا يعمل ذهننا بمفرده، بل يكون قلبنا أيضًا مفتونًا، ولا يخشى أيّ تضليل. من هنا نتعلَّم أنّ الله نفسه يصبح صديقًا وأبًا وإلهًا حقيقيًّا لجميع الذين يؤمنون بالمسيح والذين يحبّونه. إنّ عاطفته نحوهم أعظم من عاطفة الأمّ. وتكون الروح التي تذوق جمال الإنجيل متحمّسة جدًّا ومحمولة إلى الله بالكلّيّة، مذهولة به، فتتقدّم بالأفكار وبالقوّة.

«يا له من دليل على ألوهة المسيح! هذا السلطان المطلق له هدف وحيد هو تقدّم الفرد الروحيّ، ونقاوة الضمير، والانسجام في كلّ الحقّ، وتقدّيس الروح.

«أخيرًا، إنّ وجود الله في السماوات كان ليبدو بعيد الاحتمال لو

أنّ أحدًا من البشر المائتين استخدم هذا الاسم واستطاع أن ينتزع من البشريّة جمعاء العبادة الأسمى، بهذا النجاح وبهذا الكمال. هذا الأمر لم يحقّقه سوى الله عبر هذه الكلمات وحدها: «أنا هو الله» ولم يقلها أحد غيره على مرّ التاريخ...

«كيف استطاع رجل يهوديّ (وجوده التاريخيّ مؤكّد تمامًا)، ابن نجّار، أن يظهر للعالم على أنّه الكائن الأوّل، على أنه الله وخالق الكلّ؟ وكيف استطاع، بمفرده، أن يحظى بالعبادة الداخليّة، عبادة قلوب البشر، وأن يشيّد بيديه هيكل عبادته، ليس من الحجارة، بل من البشر؟ قد يعجب المرء لانجازات الإسكندر الكبير، إلاّ أنّ المسيح المنتصر يُخضع كلّ الأشياء لنفسه إنّه لا يجمع ويوحِّد في نفسه أمّة واحدة وحسب، بل كلّ الجنس البشريّ! يا للمعجزة! ولكنّه، وقبل كلّ شيء، يتّخذ لنفسه الروح مع كلّ مَلَكاتها. يا للقوّة!

«كيف أتمّ ذلك؟ عبر أعجوبة تفوق كلّ الأعاجيب. لماذا؟ لأنّه انتزع لنفسه للحال ومن دون عناء، أصعب ما يمكن للبشر أن يحصلوا عليه: الأمر الذي يطلبه الصديق من صديقه من دون جدوى، والأب من أولاده، والزوج من زوجه، والأخ من أخيه: أي الحبّ الصادق، الذي هو القلب ذاته. هنا تظهر ألوهيّته بجلاء.

«إنّي أحترم الرجال العظماء وأعجب لإبداعهم. ولكنّهم رغم إخضاعهم الجزء الأكبر من العالم، إلاّ أنّ لا الإسكندر ولا قيصر ولا هنيبعل ولا لويس الرابع عشر (الذي مجَّد فرنسا والعالم بأسره) استطاعوا أن يكتسبوا قلبًا واحدًا على مثال المسيح. لم يكن لهم أصدقاء على غراره، لا بين مواطنيهم ولا حتّى في داخل بيوتهم. نحن البشر جميعًا، مقادين بغريزتنا الطبيعيّة كالحيوانات، نحبّ أولادنا بحنان،

من دون أيّة ضمانة بأنّهم قد يحبّوننا بالمقابل. ولكن المؤكّد أنّ العديد منهم لا يشعرون البتّة بحبّنا لهم، أو بإنعاماتنا عليهم، أو بمداواتنا لهم، ولا يُبدون أيّ عرفان بالجميل. هل تثق يا برتران بأنّ أولادك يحبّونك؟ بعد موتك، ربّما ترافقهم ذكراك، وهم يبدّدون ثروتك. وأمّا لأحفادك، فإنّ وجودك سيكون أمرًا مشكوكًا به، رغم أنّك جنرال في الجيش،... وحتّى لو بقي كامل قلبك ورجائك في بيتك، حتّى في داخل هذا السجن.

«قل لي، يا برتران، رغم أنّ المسيح تكلّم فقط بهدف الفوز بقلوب الناس، فمتى حوّل أولاده قلوبهم عنه أو عن أحد غيره؟ صارت كلّ الأجيال موثقة برباطات لا تُحلّ، أقرب من رباطات الدم. لقد ألقى في قلوبهم نار حبٍّ لا تُطفأ وتحرق على الدوام كلّ ما يبدو لهم كفكرة أو ضعف. قل ليَ: فهل من المعقول، والأمور على ما هي عليه، ألاّ يكون هو خالق العالم؟

«أيٌّ من مؤسّسي الديانات الأخرى غرس في الناس ذلك الحبّ الذي لا يوصف لله، ولأترابهم البشر، وحتّى لأعدائهم؟ مَن تخيَّل وقتًا ما أمرًا كهذا؟ إنّ المسيح، بتضحيته بنفسه، رفع قلب الإنسان نحو الأمور اللامحسوسة. جمع السماء والأرض، على مرّ كلّ العصور وحتّى نهايتها، برباط لا ينفصم، رباط الاحترام والحبّ، الأمر الذي هو، برأيي، المعجزة الأعظم.

«والحقّ يُقال إنّ كلّ الذين يؤمنون بصدقٍ يشعرون بهذا الحبّ المميَّز والفائق طاقة البشر، متأصّلاً بالعمق في داخلهم، وهي ظاهرة تشكّل نارًا مقدّسة للفكر والعقل البشريَّين، جلبها من السماء إلى الأرض بروميثيوس الجديد هذا. لم يستطع الوقت، هذا القاهر

الأقوى، البتّة، ولن يكون باستطاعته يومًا، أن يبيد استمراريّة المسيح أو يضعفها. وكثيرًا ما يحدث لي، وأنا أتأمّل في هذا الأمر، أن أُصاب بدهش فائق الحدّ. وعندي اقتناع راسخ بألوهيّة المسيح المطلقة.

«في هذه الصحراء، يا برتران، إذا استثنيتك أنت مع واحد أو اثنين ممَّن تبعتموني بوفاء في محنتي، أين هي أبّهة الحشد العظيم الذي كان يحوط بي؟ أين أصبح كلّ مجدي؟ أين أصبح سلطاني؟ أين أصبح التألّق والأمور المشابهة، والمتملّقون الأذلاء لصاحب الحظ السعيد؟ كلّ شيء انهار وتلاشى وانفجر كالفقّاعات. لم يبقَ شيء واحد. المعزيّ الوحيد هو الصحراء، والمحنة، وآخر الكلّ الموت الذي تتلوه أحكام المعلّمين اللاحقين وانتقادهم. هذا قدر كلّ الرجال العظام. أيّة هوة بين حظّ الناس والمسيح الذي بُشِّر به وامتُدح، ونال الحبّ والعبادة، والذي يحيا في كلّ أرجاء الأرض... أهذا موت أم حياة؟ انظر إلى موت المسيح، موت الله...».

وأما إرنيست رُنان[٥٦]، فكان ملحدًا بالكلّيّة، ولكن، إذ اضطرّته الأحداث ذاتها، تجاوز أحكامه المسبقة مكرهًا، وأقرّ رغم ذلك في مؤلّفه «حياة يسوع»، من بين أمور أخرى، بأن:

«لا يمكن أن ينتمي يسوع إلى الذين يدعون أنفسهم تلاميذه دون غيرهم. إنّه الإجلال المشترك بين جميع الذين لهم نصيب في بشريّة مشتركة. مجده لا يتوقّف على كونه منحى خارج التاريخ، فنحن نقدّم له عبادة أصدق حين نُبيِّن أنّ كامل التاريخ لا يمكن فهمه من دونه.

«فالحدث العظيم في تاريخ العالم هو الثورة التي أدّت إلى انتقال

---

[٥٦] كان Ernest Renan (1823-1892) مؤرِّخا فرنسيًا وعالمًا بفقه اللغة وناقدًا.

أنبل شرائح البشريّة من الديانات القديمة المشمولة تحت الاسم المبهم «وثنيّة» إلى ديانة مرتكزة على الوحدة الإلهيّة، والثالوث، وتجسّد ابن الله. اقتضى الأمر قرابة ألف سنة لتحقيق هذا التحوّل. واقتضى الأمر الديانة الجديدة قرابة ثلاث مئة عام على الأقل حتّى تتكوّن. ولكن منشأ الثورة المذكورة هو حدث حصل أيّام حكم أوغسطس وطيباريوس. في ذلك الزمان عاشت شخصيّة متفوّقة أصبحت هي الغاية، بتميّزها الواضح وبالحبّ التي استطاعت أن توحي به، وثبّتت نقطة انطلاق إيمان الإنسانيّة المقبل.

«هذا المزيج المختلط من الرؤى الواضحة والأحلام، هذا التعاقب من خيبات الأمل والآمال، هذه المطامح المتواصلة التي يصدّها واقع بغيضٍ، وجدت في النهاية تفسيرها في الرجل الذي لا شبيه له، الذي حَكم ضميرُ الجميع بتسميته ابن الله، وذلك بحقّ، لكونه صاحب ديانة متطوّرة كما لم يفعل غيره، وكما لن يفعل غيره يومًا على الأرجح.

«استرح الآن في مجدك، أيّها المُبادِر النبيل. لقد تمّ عملك. ألوهيّتك تأكّدت. لا تخشَ بعد الآن رؤية البناء الذي شيّدته بجهودك ينهار لعَيب ما. من الآن فصاعدًا، سوف تكون حاضرًا من علو السلام الإلهيّ، في النتائج اللامحدودة، نتائج أعمالك. بثمن بعض ساعات العذاب التي لم تمسّ حتّى روحك العظيمة، اشتريتَ الخلود الأكثر كمالاً. سوف يمجِّدك العالم لآلاف السنين... سوف تكون العلامةَ التي تدور حولها أشرس المعارك. أنت حيّ آلاف المرّات أكثر، ومحبوب آلاف المرّات أكثر ممّا خلال أيّام رحلتك هنا على هذه الأرض. سوف تصبح حجرٍ الزاوية للبشريّة لدرجة أنّ انتزاع اسمك من هذا العالم سيكون معادلا

لهزّ أساسته. بينك وبين الله لن يفرّق البشرُ بعد اليوم. يا قاهر الموت بالكلّيّة، استلم ملكوتك من الطريق الملكيّ الذي رسمته، ولسوف تلحق بك أجيال من المؤمنين.

«ولكن مهما تكن الظواهر غير المتوقّعة في المستقبل، فلن يتفوّق أحد على يسوع. عبادته سوف تجدّد شبابه على الدوام. وقصّة حياته ستؤدّي إلى انهمار دموع لا تتوقّف. وعذاباته سوف ترقّق أفضل القلوب. وكلّ العصور سوف تعلن أنّه لم يولد أحد أعظم من يسوع من بين أبناء البشر»[٥٧].

أمّا فولتير[٥٨]، معلّم الإلحاد، فيقول في خطابه «بخصوص المسيحيّة»، بعد أنّ غلبته أخيرًا روعة تعاليم المسيح المخلّص الإلهيّة وشخصيّته:

«إني أتمنّى لو أنّ جميع عظماء الأزمنة القديمة وحكمائها، الزرادشتيّين والهرمسيّين والنومايّين[٥٩]، يعودون إلى الأرض اليوم ويتحاورون مع باسكال، لسرورنا وتعليمنا. ماذا أقول؟ مع رجال أيّامنا هذه الأقلّ حكمة. إنّي أسأل العفو من الأزمنة القديمة، ولكنّي أظنّ بأنّهم سيبدون أقلّ شأنًا. فقد سبق سقراطنا وأبيكتيتوسنا أن تثقّفا بذلك العلم الجليل، علم الإنجيل...».

كما يقول مجريًا مقابلة بين ديانة المسيح والديانات الأخرى: «اليهوديّة والسايفيّة والزرادشتيّة صارت هباءً. انهارت العبادة في صور وقرطاجة مع انهيار مدنيّتهما العظيمتين. انقضت ديانات كاتو،

---

[57] *The Life of Jesus,* London: Watts & Co., Introduction, Chapters 1, 25 & 28.

[٥٨] كان فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) كاتبًا فرنسيًّا ساخرًا وفيلسوفًا ومؤرّخًا.

[٥٩] بحسب تقليد قديم، كان نوما بومبيليوس ملك روما الثاني الذي حكم من ٧١٥ إلى ٦٧٣ ق.م. ويُعتقد أنّه ابتكر نظريًّا كلّ مؤسّسات روما الدينيّة وممارساتها، بما في ذلك التقويم الدينيّ، وكاهنات الفستا وعبادات المرّيخ وجوبيتر ورومولس المولّه.

وإيميلو وبول وبريكليس والميلتياديين وأبيدت ديانة آودين. ولغة أوزيريس التي أصبحت لغة بطليموس يُهملها اليوم أبناؤها. الربوبيّة الخالصة لم توجد يومًا. وحدها المسيحيّة بقيت منتصبة في خضمّ تلك المغامرات وفي ما بين هذه الأنقاض الكثيرة. لم تتغيّر، مثل الإله الذي خلقها. تبقى الحقيقة على مرّ الأجيال وتتلاشى أشباح الاعتقادات المتنوّعة كأحلام مرضى... لذا فأنا مجبر على أن أعجب وأؤمن».

ويستنتجَ أرنست لوتهارد (وهو أستاذ اللاهوت في جامعة لايبزيغ) في خطابه التاسع «بخصوص الحقائق الأساسيّة في المسيحيّة»، وفيما كان يدرّس دور الأمم اليهوديّة واليونانيّة والرومانيّة، وتطوّرها، ونتائج أفعالها وتحرّكاتها الروحيّة:

«وهكذا فقد كان يسوع المسيح هو نهاية التاريخ القديم، الخارجيّ والداخليّ على السواء، وجوابَ سعي هذا التاريخ وراء الاستفهام، ومفتاحَ فهم تاريخ العالم. ليس يسوع المسيح منتَجًا أنتجه التاريخ، بل عمل رائع، وهِبة من الله الذي نزل من السماء ولم يأتِ من الأرض. ومع ذلك، فلكونه جوابًا للتاريخ، فهو بالطبيعة متّصل به عبر وضعه التاريخيّ، رغم أنّه كائن يفوق البشر بأصله وطبيعته. إنّه، إذا جاز التعبير، امتلاء الفراغ الذي خلّفه التاريخ ولم يتمكّن التاريخ ذاته من ملئه بأساليبه الخاصّة.

«هذه هي مكانة المسيحيّة، مكانة يسوع المسيح بالنسبة إلى التاريخ الذي قبْله. إنّه نهاية التاريخ الهادفة. ومكانته مشابهة بالنسبة إلى التاريخ الذي يتبعه. إنّه نقطة الانطلاق وقوّتها الناشطة. بعده تبدأ مرحلة زمنيّة جديدة، وهو يسودها.

«قبل أن يرحل يسوع المسيح تاركًا تلاميذه، أمرهم بأن ينطلقوا

ويبشِّروا بالإنجيل لكلّ الأمم، وأن يعمّدوهم باسمه، ويجمعوهم في الجماعة البشريّة الجديدة. لقد سبق فأخبرهم أن سوف يُبشَّر بالإنجيل في جميع أنحاء العالمِ وستكون هناك رعيّة واحدة وراع واحد. هذا القول يبدو مستحيلاً تمامًا. لو أنّه خرج من فم أيّ شخصٍ آخر لاعتُبر مجنونًا. فكيف يصدّق أحدهم أنّ هؤلاء الرجال القلائل، الصيّادين غير المتعلّمين والجابي الضرائب، المتحدّرين من الأمّة الأقلّ شأنًا على الأرض، سوف يقنعون كلّ البشريّة بأن تقبل ديانةً مركزُها رجل تعرَّض للصلب.

«بشَّرت المسيحيّة بهذا الدرب الخلاصيّ الذي، رغم أنّه شفى ميول البشر المتأصّلة فيهم بالطريقة الأنجع، فقد كان بالتأكيد في تناقض جليّ مع أفكارهم. كانت هذه الفكرة، فكرةُ رؤية البشريّة ككلّ موحَّد، وخصوصًا فكرة ديانة واحدة فقط، ديانةٍ عالميّة للجنس البشريِّ برمّته، فكرةُ جماعة دينيّة واحدة ستحوي في داخلها كلّ الأمم من كلّ تطوّر وثقافة. بكلمة واحدة، فكرةُ الكنيسة، كما نعرفها وكما هي موجودة اليوم، كانت الأمر الأكثر إقدامًا الذي قد يتخيّله المرء أو يعبِّر عنه. كانت هذه الفكرة وحدها أعجوبة، في حين أنّ تنفيذها كان أعظم الأعاجيب. إنّها أعجوبة مستمرّة وأبديّة، ظاهرة لأعيننا على الدوام وحاجبة كلّ ما عداها من الأعاجيب. ولا يمكن فهم هذه الأعجوبة من الكلمات التي أضافها الربّ، أي بأنّ رسله سوف يتلقَّون قوّة من العلاء. ولا من التقرير الذي يسرده الرسول لوقا، في بدء سِفر أعمال الرسل، من أنّ الروح القدس نزل عليهم وحوَّلهم إلى أشخاص جدد. فعبر قوّة الروح الجديد هذا أخضعوا العالم وأسّسوا مملكة جديدة لم تصبح مؤسَّسة على غرار الممالك القديمة، عبر قدرة استثنائيّة ولكن

طبيعيّة، بل بالحريّ عبر كلمة الروح الكلّيّ القداسة الذي سوف يحفظ هذه المملكة إلى نهاية الدهور.

«مَن يدرس رحلةَ المسيحيّة الظافرةَ على مرّ التاريخ يجد أنّها، للنفس البشريّة، واحدة من التأمّلات الأسمى والأكثر حيويّة».

كلّ الظروف تآمرت معًا من أجل جعل انتصار المسيحيّة مستحيلاً تمامًا. كان منشأ المسيحيّة ذاته مناقضًا لهدفها: كانت تُعتبر هرطقة يهوديّة. ولم يكن لدى ممثّليها وأتباعها شيء جديد يقدّمونه. فمعظمهم ينتمون إلى أدنى درجات المجتمع غير المتعلّمة. وكان تعليمها عائقًا هائلاً: لقد بدا معثرة وجنونًا، واعتُبر إيمانها مشبوهًا: إذ لم يكن للمسيحيّين آلهة أوثان فقد اعتُبروا ملحدين. وتداول الناس الإشاعات الأكثر بذاءة ولاأخلاقيّة عن أسرار المسيحيّين المقدّسة. كان الرأي العامّ ذا نزعة مناهضة لهم. فمن ناحية، كان الفلاسفة يحاربون المسيحيّة بأسلحة روحيّة، والحكّام، من ناحية أخرى، يحاربون المسيحيّين بالقوّة المادّيّة الأكثر وحشيّة. ورغم ذلك انتصر المسيحيّون.

ويشير المؤرّخ الرومانيّ تاسيتوس بلهجة لاذعة إلى أنّ المسيحيّة كانت قد أخذت حجمًا عظيمًا خلال حكم نيرون حتّى من دون ذلك الافتراء البذيء الذي أشاعه. فالإمبراطور الذي أراد أن يبرّئ نفسه من مسؤوليّة الحريق الذي اندلع في روما، اتّهم المسيحيّين بأنّهم مرتكبو هذه الجريمة؛ وقتل منهم مجموعات لا تُحصى، كما يذكر تاسيتوس، ليس لكونهم سبب الحريق بل بالحريّ لأنّهم كانوا موضوع كره الجنس البشريّ برمّته. ورغم ذلك كانوا ينتشرون ويتزايدون يومًا فيومًا.

ولتكوين صورة حقيقيّة عن حالة المسيحيّة في ذلك الزمن في

الأماكن التي كانت ميدان خدمة الرسول بولس ويوحنّا الإنجيليّ، نذكر رسالة فائقة الأهمّيّة كتبها بلينوس الجديد، حاكم بيثينيا في آسيا الصغرى، إلى صديقه الإمبراطور تراجان، بعد مرور سبعين سنة على موت يسوع المسيح. كتب بلينوس: «لقد انتشر هذا المعتقد الخرافيّ في كلّ مكان، في المدن والقرى والمزارع. صارت معابد آلهتنا مهجورة بعد أن مضى زمن طويل عليها من دون أن تقدَّم فيها ذبيحة. لقد اعتقلتُ بعض الشابّات اللواتي يُدعين شمّاسات[٦٠] وسلّمتهن للمعذِّبين، ولكنّي لم أكتشف شيئًا بخلاف معتقد خرافيّ متطرّف ومدمِّر. فقد أكَّدن أنّهنّ قد تتلاقينَ قبل الفجر ليرتلنَ أناشيد شكريّة ليسوع المسيح الإله». ويضيف أيضًا أنهنّ كرَّسنَ أنفسهنّ، بشكل مهيب ومتبادل، لطريقة حياة هي أكثر ما يكون تقشّفًا.

وأمّا ترتليانوس الذي عاش في نهاية القرن الثاني فجزم في دفاعه ضدّ الوثنيّين أنّه: «ظهرنا البارحة ومع ذلك فقد ملأنا كلّ ما لكم: المدن، والجزر، ومراكز الحراسة، والمستعمرات، والمجالس، ومعسكرات الجنود، والقبائل، والطوائف، وقصر الحاكم، ومجلس الشيوخ، والسوق. ما تركنا لكم سوى المعابد.

«عشرة اضطهادات هائلة قامت ضدّ المسيحيّة ولكنّها لم تتمكّن من تأخير انتصارها المطَّرد. لم يشفق عبدة الأوثان على عمر أو عرق، بل استعملوا كلّ قدرات الإمبراطوريّة لتدمير المسيحيّين. وجعل بعض

---

[٦٠] تجدر الاشارة إلى أنّ الشمّاسات لم يخدمن بصفة كهنة. بل بالحريّ وُجدت هذه الجماعة بقصد حفظ حشمة الجنس الأنثويّ، أكان في مجال معموديّة النساء (لأنّه لم يكن من الملائم أن يرى الرجال جسد السيّدة العارية، فبعد أن يدهن الأسقف رأسها بالزيت المقدّس، كانت الشمّاسة تدهن باقي جسدها)، أو من أجل زيارة النساء المريضات الملزمات بالبقاء في منازلهنّ أو تبشيرهن (St. Nicodemos the Hagiogrite, *The Rudder,* Athens: Astir, 1990 p. 149)

الأباطرة، أمثال ذاسيوس وذيوكليشيانوس اللذين كانا الأكثر عدوانيّة، إبادةَ المسيحيّين عن وجه الأرض هدفهم الأوّل في الحياة، معتبرينٍ أنّ وجود الإمبراطوريّة الرومانيّة يعتمد على ذلك. ولكنّ أذرع المعذبين تعبت قبل إيمان المسيحيّين وثباتِهم. وأجبر ذيوكليشيانوس على ترك منصبه. أُبعِد عن الساحة في حين أنّ المسيحيّة بقيت غير متزعزعة. ومنذ وصول قسطنطين الكبير إلى الحكم قفزت المسيحيّة إلى العرش الإمبراطوريّ ذاته وحكمت العالم الرومانيّ وخارجه.

«وتنتشر المسيحيّة من طريق الاهتداء. ماذا يعني الاهتداء؟ لا يفهم ذلك سوى الذي يعرف كم يصعب على أحدهم أن يجعل شخصًا واحدًا يهتدي. ليحاول أحدهم أن يقتلع من قلب بشريّ واحد جذور قوّة الأنانيّة. ليست المسيحيّة سوى المعركة المتواصلة ضدّ الأنانيّة التي تسود في العالم. ولا ننكر أنّ الظروف الخارجيّة تعاونت بشكل كبير لمساعدتها على الانتشار، مثل وحدة الإمبراطوريّة، والتواصل بين البلدان المتنوّعة، ووحدة اللغة والحضارة. ولكنّ الظروف الخارجيّة هذه لم تكن سوى عمل العناية الإلهيّة. كما لا ننكر أنّه ساد، خلال تلك الحقبة، انتظارُ مستقبل جديد أكثر ازدهارًا. ولكنّ هذا الانتظار لم يكن سوى نتيجة النموّ الداخليّ الذي حضَّره الله ليكون القلب البشريّ جاهزًا لاستقبال الدين المسيحيّ.

«ولا ننكر روح المسيحيّة الأخلاقيّ والقوّة العظيمة التي تحلّى بها ممثّلوها. كان العالم يرى للمرّة الأولى في تاريخه هذه القامة من النقاوة الأخلاقيّة، وهذا الحماس للأخوّة. ولم يتأخّر الوثنيّون عن التعبير عن دهشهم بهذا الخصوص. كان الوثنيّون يصرخون: «انظروا كم يحبّون بعضهم البعض! انظروا كيف أنّ هؤلاء مستعدّون للموت

من أجل أولئك! إنّهم يحبّون بعضهم البعض حتّى قبل أن يتعرّفوا إلى بعضهم البعض».

ويعلّق يوليانوس الكافر نفسه على طريقة حياة المسيحيّين المقدّسة ومحبّتهم الأخويّة. كما يعترف لوقيانوس، الكاتب الساخر، بأنّه لأمر رائع أن يرى المرء كيف يساعد هؤلاء الناس بعضهم بعضًا في أيّام المحن. ويقول غاليانوس: «إنّ معظمهم عاجز عن التكلّم فلسفيًّا، ولكنّهم يعيشون مثل فلاسفة». ويهتف ليبانيوس في دهشة، في معرض حديثه عن والدة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: «يا للهول! أيّ نوع من النساء يأتين من المسيحيّين! »[٦١]. ولكن كلّ هذه الفضائل لم تكن سوى ثمرة الروح الجديد، روح يسوع المسيح. كانت هذه الأخلاقيّة معجزة بحدّ ذاتها.

ولا ننكر أنّ الشهداء القدّيسين أصبحوا، بثباتهم، المبشّرين الأنجع بالحقيقة المسيحيّة، وأنّ دمهم كان بذرة المسيحيّة. ويقول لكتانيوس: «شبّان وشابّات يهزمون معذِّبيهم بصمتهم». والواقع أنّهم كانوا، في كثير من الأحيان، يجبرون معذِّبيهم أنفسهم على الاهتداء. لم يكن التعصّب هو الذي رافق الشهداء القدّيسين إلى الموت، بل إحساس بالسلام، والصفاء، والرصانة. ولم تكن فكرة نيل المجد من الناس هي التي قادتهم إلى الموت، لأنّ اعترافهم جلب لهم المهانة في عيون العالم؛ كما أنّ معظم الشهداء في هذه المدينة المقدّسة بقيت أسماؤهم معروفة لدى الله وحده. فالانعكاس البرّاق لطريقة الحياة الداخليّة الجديدة، المشعّة من روح يسوع المسيح، هو الذي أتمّ كلّ

---

[٦١] تفوّه ليبانيوس، معلّم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، بهذه الكلمات بعد أن حاول اقتناص القدّيس يوحنّا إلى ديانته (أي الوثنيّة) من دون جدوى، مشيرًا بهذا القول إلى سبب فشله.

هذه الأمور.

كلّ هذه الأساليب عملت بالتزامن لنشر المسيحيّة، مقابِلةً حاجة استثنائيّة، وإلاّ لما استطاعت المسيحيّة أن تنتصر على العالم. هذه هي أساليب الله وروحه. لم يكن تغلُّب المسيحيّة على العِرق أمرًا بالسهولة التي قد تبدو لنا. فقد كانت الديانة العرقيّة متّصلة بشكل حميم بكامل أسلوب الحياة المدنيّة الاجتماعيّة والروحيّة، لدرجة أنّه بدا مستحيلاً بالكلّيّة أن يفصل المرء بينهما، فيهدم الأولى ويسمح للثانية بالوجود. كلّ عدو للديانة الجَدّيّة اعتُبر أيضًا عدوًّا للدولة وللحضارة الوثنيّة بكاملها. كانت طريقة الحياة السياسيّة بأكملها متعلّقة بالديانة ومرتبطة بها بشكل وثيق. وكانت الناحيتان السياسيّة والدينيّة تؤلّفان وحدة لا تنفصم. كلّ عمل سياسيّ كان في الوقت عينه عملاً دينيًّا. وكلّ مسألة عامّة ارتدَت في الوقت عينه طابعًا دينيًا. فاعتُبر المسيحيّون أعداء للدولة إذ فرضت الوطنيّةُ الحقد تجاه الذين بدت ديانتهم الأكثر خطرًا على الدولة. ولهذه الأسباب اضطرّ مدافعو القرون الأولى إلى أن يقدِّموا دفاعًا باسم المسيحيّة. وهذا ما حصل أيضًا مع بقيّة المجتمع. ولذا فقد ارتبطت التجارة والعلم وهذا التطوّر الروحيّ بكامله ارتباطاً وثيقًا بالدين. وكان الرأي الشائع المسيطر أنّه إن أصبحت المسيحيّة قويّة جدًّا فلسوف يُقضى على المحاولات الروحيّة التي تمّت طوال قرون عديدة. كان يُنظر إلى المسيحيّة على أنّها همجيّة. وكثيرًا ما اضطرّ المدافعون في القرون الأولى إلى دحض هذا الاتّهام.

وباستطاعتنا اليوم أيضًا أن نكوِّن فكرة حيّة عن هذا الوضع. إذ حين ننزل مثلاً إلى السراديب الموجودة تحت الأرض، المعتمة بالكلّيّة،

حيث كان المسيحيّون يتجمّعون سرًّا لإقامة أسرارهم المقدّسة، ونقابلها بأحد المعابد الرومانيّة الفاتنة الجمال حيث كان الوثنيّون يقدّمون ذبائحهم، أو بأحد المدرّجات الهائلة المساحة التي كان يتقاطر إليها الناس مجموعاتٍ إمّا للتمتّع بالأعمال المسرحيّة المسلّية أو لمشاهدة المعارك الدامية بين المسيحيّين الشهداء والوحوش المفترسة، فعندها ندرك ونعرف مدى القوّة الأخلاقيّة التي كانت مطلوبة حتّى تتغلّب المسيحيّة تمامًا على بأس الديانة الوثنيّة الفائق الحدّ، وعلى طريقة الحياة الوثنيّة.

إنّ رحلة المسيحيّة عبر تاريخ العالم هي رحلة ظافرة. ولكنّ رحلة المسيحيّة هي رحلة يسوع المسيح. حين نقول «مسيحيّة»، فإنّنا نتكلّم على يسوع المسيح لأنّ كلّ شيء يتعلّق به. المسيحيّة هي هذا الأمر بالتحديد: السجود أمام ربّنا يسوع المسيح وتسبيحه لكونه مخلّصنا الوحيد والسرمديّ. ليست المسيحيّة مجرّد قوّة خارجيّة وملكوت خارجيّ، بل هي أيضًا قوّة داخليّة وسيادة داخليّة. لم تغلب وتجدّد الديانات فقط، بل كامل طريقة الحياة الروحيّة عند البشريّة على السواء. بعد المسيحيّة بدأت مرحلة زمنيّة جديدة للنفس البشريّة ولحياة الجنس البشريّ، الأخلاقيّة والعامّة في آن.

أدخلت المسيحيّة قرن الحركة الإنسانيّة. ومنذ ذلك الحين ابتدأ الناس يعتبرون أنفسهم كعائلة كبيرة واحدة. منذ ذلك الحين عُرفت حقوق البشر! ما يُدعى اليوم «حقوق الإنسان» هو صنيع المسيحيّة. لم تغيِّر المسيحيّة القوانين البشريّة الخارجيّة على الفور، بل تركت العدالة والقوانين والعادات والتقاليد على حالها. ولكنّها نقلت روحًا جديدة إلى داخل كلّ هذه وعلاقتِها بالحياة... وهكذا، فقد كانت

المسيحيّة أيضًا، بتبشيرها بنعمة الله في يسوع المسيح، مصدرًا لقوّة أخلاقيّة جديدة لم تكن معروفة من قبل. لم يكن العالم القديم قادرًا البتّة، على إنتاج مثل هذه الشخصيّات التي قدّمتها المسيحيّة: أفراد أخلاقيّون حقًّا، متفوّقون في احتمال المعاناة الطويلة وإنكار الذات والإنجازات. وهذه الروح الأخلاقيّة الجديدة ذاتها أخصبت أيضًا، وطوّرت، وصقلت كامل الحياة الروحيّة في الفنون والعلوم؛ إذ إنّ حبّ الحقيقة الدقيق والضميري، ونظام البحث العلميّ، وقوّة التقدّم التقنيّ ونقاوته السامية، والحقائق العميقة والسيكولوجيّة، ووفرة الأعمال الشِّعريّة، كلّها استُعيدت من أعماق الروح البشريّة والقلب البشريّ، بالمسيحيّة وحدها. باختصار، أصبحت المسيحيّة القوّة المحرِّكة لطريقة حياة دينيّة جديدة للجنس البشريّ.

هذه هي الوضعيّة العالميّة للمسيحيّة في قلب البشريّة. إنّها قوّة إلهيّة تعيد إحياء كلّ شيء. المسيحيّة تشهد ليسوع المسيح وشخصيّته الإلهيّة. منه تحصل على بداءتها. عبره عُرفت وحُفظت. المسيح هو المسيحيّة نفسها في شخص. ولذا فيسوع لا يشبه الناس الآخرين. لا يمكن قياسه بحسابات البشر الناقصة والجزئيّة. هو في الواقع ذو قيمة كونيّة ويحتوي في ذاته الحياة الإلهيّة... إنّه هو الحياة الأبديّة. إنّه إلهنا. هذا ما يقوله الإنجيل المقدّس عنه أيضًا».

ويتابع أرنست لوتهارد، في خطابه العاشر من المؤلَّف نفسه، ويقول عن شخصيّة مخلِّصنا يسوع المسيح الإلهيّة:

«ورغم ذلك فالأكثر جوهريّة هو صورة يسوع المسيح كما تصفها الأناجيل الإلهيّة. لا يمكن لإنسان أن يبتدع مثل هذه الصورة. لا يمكن إلاّ أن تكون هذه الصورة نسخة عن الأصل الحيّ. ربّما قال

أحدهم إنّ هناك رجلاً ما بدون خطيئة وغشّ، وإنّه صورةُ القداسة الإلهيّة ذاتها. ولكنّه ما كان ليستطيع رسم هذه الإيقونة من دون أن تحمل روحَنا المحدودة، المضلَّلة والخاطئة والممتزجة في خصائصها، فاضحةً تاليًا منشأها. وعلى العكس، فلدينا في الأناجيل المقدّسة صورة حيّة، كاملة وراسخة: مع كلّ الظروف المعقولة، مع كلّ تبادلات الحياة الداخليّة والخارجيّة، مع كلّ التباينات الأكثر حيويّة. كلّ خاصّيّة وكلّ ظلّ دقيق في هذه الإيقونة يثير فينا الانذهال ويجبرنا على السجود أمامه. ليس بإمكان أمّة أخرى أن تخترع مثل هذا التزوير، ولا سيّما اليهود. لم تكن هذه الصورة مطابقة للمثال الذي نقله ذهنهم. لم يخترعوا مثالاً كاملاً معروفًا من قبل، ولكن الواقع هو الذي أعطاهم هذا المثال للمرّة الأولى. في الغالب كان يمكن أن يكون النموذج عند اليهود، كاتبًا أو فرّيسيًّا. ولكن هذا المثال مفقود في يسوع المسيح! كان يسوع مختلفًا تمامًا عنهم. كان تلاميذ الربّ، مثل باقي الشعب غير المتعلّم، تابعين كلّيًّا لطبقة معلمي الدين عندهم. لم يبتعدوا قطّ عن المثال الأكمل لهؤلاء الرجال الحكماء لكي يخلقوا صورة مختلفة تمامًا، لو أنّ واقع الصورة التي رسموها لم تقف أمام نفوسهم بكلّ قوّتها، بكلّ روعتها الظافرة... فكيف اخترع إذًا هؤلاء الرجال غير المتعلّمين تلك الشخصيّة بالتفصيل، تلك الشخصيّة التي تختلف تمام الاختلاف في كلّ جوانبها عن النموذج الوثنيّ، والمناقِضة كلّيًّا لكلّ الخصائص التي قدَّمتها لهم العادة والتربية، ومحبّة الأجداد، والديانة، والميول الطبيعيّة ذاتها، على أنّها المثال الحقيقيّ الوحيد؟ لذا علينا أن نقبل بالضرورة أنّ الإنجيليّين نسخوا الصورة التي يقدّمونها لنا عن المثال الأصليّ، وأنّ التوافق الكامل بين مكوّناتها الأخلاقيّة ناتج فقط من الدقّة التي

وصفها بها كلّ واحد من الإنجيليّين.

«والفريد في الروايات الإنجيليّة هو أنّنا نصادف شخص يسوع المسيح في كلّ مكان. يستحيل علينا تمامًا أن نحدّ أنفسنا ونتمسّك بتعليم الربّ فقط. فإنّنا نرى الربّ نفسه وصورته في كلّ مكان وفي كلّ ما يقوله. إنّه يعطي كلماته نعمتها الفريدة، ذلك المزيج العجيب من العظمة الصارمة والنعمة الأوّليّة التي بها أصبح الرسل منيعين. وأمّا الروح القدس الذي يملأ كلمات يسوع الإلهيّة ويجعلها كلمات حياة، فهو يهبّ من يسوع نفسه. فتنتصب صورة الربّ أمام أعيننا في كلّ ما يقوله ويعمله؛ هذا ما يؤلّف لبّ الأناجيل المقدّسة.

«إن ظهر الحبّ يومًا على الأرض، فقد ظهر في يسوع المسيح، في هيئة الوداعة والتواضع. لقد اندفق نور رائع وساطع من وجه المخلّص المتواضع حتّى إنّنا نسجد أمامه، ولو مُكرهين. عند رؤية الربّ مَن لا يكتشف السرّ العظيم المخفي في داخله، الذي يشعّ في كلّ كلماته وأفعاله؟ مَن لا يكتشف هذه العظمة بإشراقها الهائل، وخصوصًا في تواضعه العميق؟

«إنّ شخص يسوع المسيح هو أعجوبة. ولو كنّا لا نعلم عنه سوى حياته العامّة وحدها، ونجهل تعليمه جهلاً تامًا، فقد كنّا لنعترف بذلك أيضًا. إنّ الاتّحاد المذهل بين التواضع والجلالة، وقوّة حبّه السرّيّة التي تجعل حياته اعتلانَ قلب الله، كلّ ذلك لا يعدو كونه ظهورًا للقداسة، الذي هو المكوِّن الأخلاقيّ لشخصه وطبيعته. إنّ طبيعته القدّوسة والنقيّة تغرس في داخلنا جميعًا الانطباعات الأقوى التي لا تُمحى. فليس بإمكان أحدهم، حتّى ولو أنكر كلّ خصائص يسوع، أن يُنكر هذه الخاصّيّة على الإطلاق. ويبقى سؤال يسوع: «مَن منكم

يبكّتني على خطيئة؟» (يوحنّا ٨: ٤٦) من دون جواب في كلّ عصر وحتّى اليوم. إنّ صورة يسوع هي صورة الانسجام الأسمى والأنقى بين السلوك الطبيعيّ والأخلاقيّ.

«عند كلّ ما عداه من الناس، نجد نوعًا من الفوضى المسيطرة في حياتهم الداخليّة. في أيّ إنسان يتناغم قطبا الحياة الروحيّة (المعرفة والإحساس، الفكر والقلب)، وأيضًا قوّتا الحياة المعنويّة (الإدراك والرغبة)؟ وأمّا في داخل يسوع فيسود انسجام كلّيّ في الحياة الروحيّة الداخليّة. فحياته الداخليّة هي سلاميّة بالكامل. يسوع كلّه حبّ وكلّه قلب وكلّه إحساس. ولكنّه، في الوقت عينه، ذكاءٌ هائل مليء بالفكر والحيويّة. الحسّ والمعرفة عنده لا ينفصلان عن بعضهما البعض. وإضافة إلى ذلك كلّه (أي الأحاسيس والانفعالات والأفكار وأهداف الرغبة) تسود فيه حيويّة عظيمة. ومع ذلك فإنّ هذه الحيويّة لا تجنح مطلقًا إلى ميل أهوائيّ. حياته بكاملها روعة صامتة، بساطة سلاميّة وانسجام عظيم.

«هذه هي الصورة التي نستمدّها جميعنا من وصف الإنجيل المقدّس، والتي تضطرّنا إلى أن نهتف: «نعم، هكذا كان يسوع. يستحيل أن يكون مختلفًا». إنّ الانسجام المعنويّ في وجوده ينعكس داخل هذه الصورة. لم يكن فيه أيّ أثر للبُعد الأخلاقيّ الذي يجعل كامل وضعنا الداخليّ في اضطراب، لأنّ حياته السيكولوجيّة والروحيّة كانت منسجمة كلّ الانسجام وسلاميّة. بهذه الطريقة كان يسوع في وفاق تامّ مع نفسه لأنّه كان في وفاق تامّ مع الله. كان ضميره نقيًّا على الدوام أمام روحه. وجد نفسه في شركة تامّة مع الآب. وأمّا لنا نحن جميعًا، وحتّى للناس الأكثر ورعًا وقداسة، فإنّ الشركة مع الله ترتكز،

على الدوام وأينما كان، على وعي الخطيئة والإحساس بالخطيئة التي غُسِلت وغُفرت. إنّه، مهما كان، الإحساس بالخطيئة على الدوام. وأمّا مع يسوع فالأمور ليست على هذا النحو. فقد ساد عنده الإحساس بالشركة النقيّة والكاملة مع الله. كان الربّ في عِشرة متواصلة مع أبيه عبر الصلاة. كانت حياته كلّها حياة صلاة. ومع ذلك فلم يصلِّ مرّةً من أجل مغفرة خطاياه. لقد علَّمنا أن نصلّي كالآتي: «*إغفر لنا خطايانا*»، ولكنّه لم يصلِّ مرّة بهذه الطريقة. إنّه الشخص الوحيد المولود من امرأة الذي لم تكن به يومًا حاجة إلى صلاة من هذا النوع. كان يعرف أنّه ليس من حاجز يفصله عن أبيه. وكانت روحه وذهنه ورغبته ملتصقة على الدوام بقضايا أبيه السماويّ. لو أننا اعتبرناه مولودًا من أناس خاطئين، فكيف إذًا ينجو من قانون المائتين العالميّ؟ لا يعقل أن تكون الأمور المتعلّقة به هي نفسها المتعلّقة بكلّ ما عداه من الناس. يجب أن يكون أصله من طبيعة أخرى، ومختلفًا عن أصل غيره من المائتين. لا بدّ من أن تتجاوز طبيعته حدود الإنسان العاديّ. تتطلّب شخصيّته الأخلاقيّة بكاملها ذلك.

«والآن لنصل إلى كلمات المسيح المخلّص. حين أرسل الفرّيسيّون ورؤساء الكهنة خدّامًا ليقبضوا على يسوع ويقتادوه إلى المجمع، عادوا خاليّي الوفاض وصرَّحوا بأنّه: «*لم يتكّلم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!*» (يوحنّا ٧: ٤٦). ونحن أيضًا، على مثال الجنود الرومانيّين، نجد أنفسنا مرغمين على إعطاء التصريح عينه. مرّ أكثر من تسعة عشر قرنًا منذ أن علَّم يسوع في فلسطين. ورغم أنّ أفكار البشريّة تغيَّرت بالكامل في خلال هذا الوقت، إلاّ أنّ كلمات المسيح احتفظت بقوّتها القديمة، ونضارتها، وتأثيرها في نفوسنا. المسيح لا يتطلّب طرائق أكثر

علميّة، أو درجة أعلى من التطوّر، حتّى يُفهم ويكون له تأثيره المخلِّص الحياة. إنجيله مفهومٌ وخلاصيّ في آن لجميع البشر، من دون استثناء. أصبحنا معتادين عليه تمامًا، وما عاد له فينا التأثير ذاته الذي كان له في مسيحيّي القرون الأولى. ومع ذلك، فإنّنا لحظة نسلِّم أنفسنا لهذا الإنجيل بقلب منفتح، نجده ينتصب أمام نفوسنا بكلّ قدرته الظافرة، ويؤدّي فينا الانطباع ذاته وكأنّه يأتي مباشرة من فم الربّ.

«أين تكمن هذه القوّة الخارقة، قوّة كلمات مخلِّصنا المسيح؟ لا يمكننا أن نعزو سرّ هذه الكلمات الجبّارة إلى قدرات يسوع الخطابيّة، فهو لم يكن شاعرًا ولا خطيبًا ولا فيلسوفًا. إنّ ما يشعل فينا النار، ويجعلنا نشعر برهبة، ويأسرنا، ويثير إعجابنا، ليس جمال اللغة الشاعريّ أو النثر الذكيّ التعبير أو البلاغة الجبّارة، أو عمق الفلسفة. عمليًّا، ليس من أحد غير يسوع يمكنه أن يتكلّم بأكثر بساطة منه. ومَن أراد أن يقتنع بهذا، فليقرأ موعظة الجبل، والأمثال التي تتحدّث عن ملكوت الله، والصلاة الربّيّة. ففي هذا بالتحديد تكمن عظمة يسوع المنقطعة النظير. فهو يعبِّر عن أعظم القضايا وأكثرها أهمّيّة بالكلمات الأكثر بساطة، وبطريقة يكاد معها المرء يردّد مع باسكال: «قال يسوع أشياء عظيمة بطريقة سهلة إلى حدّ يبدو معه أنّه لم يفكّر بها، ومع ذلك فهذه الأشياء واضحة لدرجة يتجلّى معها ما فكّر به يسوع عنها. إنّه رائع هذا الوضوح جنبًا إلى جنب مع هذه البساطة»[62].

«سهلٌ أن يدرك كلّ إنسان أنّ عالم الحقائق السرمديّة هو موطن يسوع الأصيل، وأنّ كلّ أفكاره تدور دون توقّف في داخل هذا العالم. إنّه يتكلّم على الله وعلاقته معه، وعلى عالم الأرواح الأبديّة، وعلى

[62] *Pensées*, p. 97.

الحياة الأخرى، وعلى ملكوت الله على الأرض، وعلى طبيعة هذا الملكوت وتطوّره التاريخيّ، وعن الحقائق الأخلاقيّة الأسمى، وعن واجبات الإنسان الرئيسة؛ باختصار، عن قضايا الإنسانيّة ومشكلاتها الأكثر عمقًا، ببساطة وبراعة - من دون أن يُظهر معرفته أو يمدحها مرّةً، أو يفرض نفسه على أحد، كما يحصل عندما يعلِّم أحدهم أمورًا جديدة بالكلّيّة - وكأنّ كلّ ما يقوله هو طبيعيّ تمامًا ومفهوم بحدّ ذاته بالنسبة إليه. ويمكن أن يعترف كلّ إنسان بأنّ الحقائق الأعظم هي مُلك ليسوع بالطبيعة. إنّه ليس معلِّم الحقيقة ليس إلاّ، بل مصدر الحقيقة ذاته. إنّه يحمل في داخل ذاته الحقيقة كأنّها طبيعته الخاصّة. ولذا يقول *«أنا هو الحقّ»* (يوحنّا ١٤: ٦). وكلّ مرّة نقرأ فيها كلماته، نشعر بأنّنا نسمع صوت الحقيقة ذاته. لهذا السبب نجد أن لهذه الكلمات ذلك التأثير في نفوس الناس من كلّ الأعمار وفي كلّ مكان.

«ورغم ذلك فإنّ يسوع يضع شخصه في مركز كلّ كلماته، محدّدًا نفسه على أنّه موضوع تعليمه. صحيح أنّه يتكلّم على ملكوت الله، ولكنّه هو نفسه الذي يحمل هذا الملكوت، كما أنّ الطريق التي تقود إلى الملكوت هي الإيمان به. إن اقتناء هذا الملكوت المعَدّ لكلّ واحد منّا مرتبط على الدوام، وبشكل وثيق، بشخصه. صحيح أنّه يعلِّم الأخلاق الأنقى والأكثر روحانيّة بنقل الديانة وعلم الأخلاق من أفعال خارجيّة إلى العمل الداخليّ، عمل الروح والقلب. ولكنّه حوَّل هذه الأخلاق إلى علاقة بين كائن الإنسان الداخليّ ونفسه. فمركز كلّ تعاليمه هو الإيمان به ومحبّة الله عبر قوّة هذا الإيمان. ولذا فإنّ يسوع يتكلّم على الدوام عن نفسه بشكل أساس وحتّى عندما لا يتوجّه إلى شخصه مباشرة. إنّه يضع نفسه في مركز تعليمه وهو في أكثر الأحيان

لا يفعل ذلك بشكل غير مباشر، بل بشكل مباشر. إنّه يؤسّس كلّ شيء على شخصه: *«أنا هو»* (يوحنّا: ٨: ٢٨).

«انظروا إلى كلامه الخالد: *«لأنّكم إن لم تؤمنوا بأنّي أنا هو تموتون في خطاياكم»* (يوحنّا ٨: ٢٤). هذه هي الخلاصة الأساسيّة لكامل تعليمه! وهذه الكلمات جديرة بالملاحظة إلى حدٍّ بعيد. فلن يوجد يومًا كلام آخر أكثر جدّيّة وأكثر روعة من هذا. لم يتجرّأ يومًا أحد معلّمي البشريّة العظماء أن يعبِّر عن نفسه بهذه الطريقة، ولا كنّا لنسمح لأحد بأن يتكلّم بهذه الطريقة. كلّ واحد من هؤلاء قام فقط بالترويج لعقيدته وأعلن بأنّها وحدها الحقيقة دون سواها. وتحدّدت شهرة كلّ منهم بطريقة تعليمه. ولكنّ يسوع المسيح، بالمقابل، يؤسّس كامل تعليمه على شخصه بالذات محدّدًا بذلك عمله كلّه. إنّ وزن شخصه هو الذي يرجّح كفّة الميزان على الدوام وأينما كان. وكلّما كان يبتغي تأكيد أمر ما، كان يستعمل العبارة التالية: *«الحقّ الحقّ أقول لكم»*. ونحن نؤمن بإرشاداته ليس بسبب حقيقة الكلمات ذاتها، بل بسبب مَن هو. كلّ ما يخرج من فمه صحيحٌ لأنّه هو مَن يقول ذلك. إنّ مجمل صدقيّة كلماته مدعومة بأصالة شخصه. لم يتكلّم أحد قطّ بهذه الطريقة. وحده الله نفسه تكلّم كهذا في العهد القديم. الربّ يتكلّم بأصالة إلهيّة، حتّى ولو أنّه الأكثر تواضعًا بين جميع البشر! لهذا السبب بالتحديد يترجّع صدى كلماته «**أنا هو**» بشكل أكثر حدةً من فمه. ولكن مَن هو؟

«يلخّص يسوع كلّ ما قاله عن نفسه بعبارتَين استعملهما تكرارًا. إنّه يدعو نفسه «ابن الله» و«ابن الإنسان». فماذا تعني هاتان العبارتان؟

«ماذا يعني الربّ حين يدعو نفسه «ابن الإنسان»؟ أراد، من ناحية، أن يُظهر أنّه هو أيضًا عضو في جيلنا، وأنّه واحد منّا؛ ومن ناحية ثانية، أنّه فوق الإنسانيّة جمعاء. إنّه ابن الإنسانيّة الأصيل والأخير، برعمها الحقيقيّ، والمثال الأوّل للجنس البشريّ. كلّ التاريخ انحدر إليه. فيه وجدت البشريّة وحدتها. وتاريخها يدور حوله كما حول محور، كنهاية الزمن القديم وبدء الزمن الجديد. هذا هو المعنى الذي تحتويه عبارة «ابن الإنسان». إنّه خلاصة البشريّة ونهاية تاريخها.

«يمتلك شخص يسوع المسيح شيئًا كونيًّا. فلكلّ أمّة، أينما كانت على مرّ التاريخ، ميلٌ لأن تكون ممثَّلة في الغالب ببضعة أشخاص يمتلكون مواهب خاصّة. وكلّ أمّة توقِّر أولئك الأبطال من تاريخها الذين هم، بالمعنى الأسمى للكلمة، ممثّلون لروحها العرقيّة وأدوات لها. كلّ أمّة ترى نفسها مجسَّدة بهم، إذا صحّ التعبير. ومع ذلك فإنّ أحدًا من هؤلاء الممثِّلين لا يجسّد بالكلّيّة تاريخ أمّته. فكيف يمكن لأيٍّ منهم أن يمثّل روح كامل الجنس البشريّ وطبيعته؟ وكم بالحريّ يقلّ شأنًا أكثر الممثِّلون العظماء للروح البشريّة، والعقول الكونيّة الأكثر اتّساعًا في تاريخ العالم، بالمقارنة مع ممثِّل البشريّة الكامل والحقيقيّ! وحده يسوع هو ممثّل الجنس البشريّ الكامل والحقيقيّ. وحده هو نموذج البشريّة الشخصيّ لأنّه لا يمثّل فقط بعض أفكار الوجود البشريّ، بل الإنسان نفسه في وضعه العُنصريّ الحقيقيّ والنقيّ، من دون فساد ولا خطيئة.

«فيه نرى وضعنا الأوّل محقّقًا. وفي الوقت عينه، لنا في هذا النموذج مثالنا الأقصى والأكثر كونيّة. لا تهمّ مكوِّنات الشعوب الشخصيّة والعرقيّة مهما كانت مختلفة، فإنّها تجد في يسوع القدوة

المتطابقة معها. صحيحٌ أنّ يسوع كان فردًا منتميًا إلى مجموعة عرقيّة محدّدة: كان ابن مريم، متحدّرًا من إسرائيل، وكانت حياته الخارجيّة محصورة في دائرة صغيرة وبيئة صغيرة. ومع ذلك فإنّ هذه الشخصيّة التاريخيّة والعرقيّة الاستثنائيّة تحمل ذلك الطابع الكونيّ الذي يفيد الجنس البشريّ من كلّ الأعمار وفي كلّ الأماكن، وتظهر على أنّها النموذج الأقصى والأوسع والذي لا يُمحى. كلّ تناقض عرقيّ، وكلّ مسافة بين القرون وكلّ اختلاف بين التطوّر الطبيعيّ للروح يتلاشى أمام المسيح. اليونانيّون يصبحون تلاميذه، رغم أنّه لم يؤسّس يومًا أكاديميّة فلسفيّة واحدة في بلادهم. البراهميّون يحترمونه حتّى ولو أنّ اسمه بُشِّر به على لسان أناس من أدنى طبقات الصيّادين. الكنديّون يعبدونه رغم أنّه مصنَّف من بين البيض الذين يرفضونهم. كلّ اختلاف في اللون والجنس والعرق والعادات يتلاشى أمام المسيح، الذي به يتّحد كلّ أبناء آدم».

الفصل العاشر
وحده ابن الله كان سيُعلم الإنسان الحقيقة

يكفي ما سبق ذكره ليُثبت أنّ الهدف من مهمّة المخلِّص كان: ١) تمجيد الله عبر كشف الإله الحقيقيّ (الذي نسيته البشريّة بعد أن خطئت) و٢) عودة البشريّة من درب الضلال إلى الله، إذ يعلن المخلِّص أنّ البشريّة كانت تجهل الاسم الإلهيّ: *«لقد أعلنتُ اسمك للناس الذين أعطيتني»* (يوحنّا ١٧: ٦). وتاليًا فإنّ جهل البشريّة لله أدّى إلى انحرافها عن مصيرها، والحرمانِ من المجد الإلهيّ، وموتِ الروح. وأقام جهل البشريّة لله حائطًا من العداوة بين الله والإنسان، فأصبح العالم بأسره متغرِّبًا عن خالقه. وفقد الإنسان الحظوة لدى الله فتأوّه تحت عبء فساده. شعر الإنسان بالحاجة إلى المصالحة، ولكنّه أدرك أيضًا عجزه عن بلوغها. لم تكن هناك قوّة بشريّة قادرة بما فيه الكفاية على تحريره من عذاباته الرهيبة.

مَن كان قادرًا على التوصّل إلى معرفة الله لو لم يُظهر الله نفسه للإنسان؟ مَن كان قادرًا على أن يُعلِّم الإنسان مشيئةَ الله لو لم يعلِّمها هو نفسه للإنسان؟ مَن كان قادرًا على استرضاء العدالة الإلهيّة وهو مذنب أمام الله؟ مَن كان قادرًا على مصالحة الإنسان مع الله؟ مَن كان قادرًا على أن يجدِّد الإنسان الذي أفسدته الخطيئة، ويقدِّمه لله؟ مَن كان قادرًا على أن يكشف اسم الله للإنسان إلاّ ذاك الذي نزل من السماء؟ مَن كان قادرًا على أن يدمِّر حائط العداوة ويفتدي الإنسان أمام الله؟ مَن كان قادرًا على أن يكشف للإنسان هدف وجوده ويُعلِّم

لسانه تسبيحَ روعة الله؟ مَن كان ليستطيع تعليم الإنسان أنّ مجد الله هو ملكوته على الأرض؟ مَن كان قادرًا على أن يُعلم الإنسان أنّ الإثمار الروحيّ يمجِّد الله؟ مَن كان قادرًا على أن يعلِّم الإنسان بأنّ قداسة الجسد وأعضائه تمجِّد الله؟ مَن كان قادرًا على أن يُدرك بأنّ الإنسان يكرِّم ويمجِّد الله بأفعاله؟ مَن كان ليفهم بأنّ الإنسان ملزَم بأن يفعل كلّ شيء لمجد الله؟

مَن كان ليُنزِل الحكمة من السماء كي يعلِّم الإنسان عن الله، لكون الإنسان لم يبلَغ معرفة الله عبر الحكمة؟ مَن كان ليتمتّع بالحيويّة الكافية حتّى يجتذب كلّ البشريّة إلى الله بكلماته المؤثّرة وأفعاله المقنِعة؟ مَن كان ليتمتّع بالقوّة الكافية كي يجمع البشريّة حول نفسه، فيغرس الثقة في البشريّة ويطلب منها الإيمان به والخضوع له؟ مَن كان ليملك القوّة للقول: «*أنا هو الطريق والحقّ والحياة*» (يوحنّا ١٤: ٦)؟ مَن كان ليملك الجسارة ليدعو كلّ القبائل والأمم وشعوب الأرض ويطلب منهم في الوقت عينه إنكار الذات الكامل؟ مَن كان ليملك القوّة ليَعد أتباعه بملكوت سماويّ، وبالتبنّي من الله، وبالحياة الأبديّة؟ مَن كان ليستطيع أن يتكلّم إلى البشريّة بسلطان مطلق، وصدقيّة وجسارة، وفي الوقت عينه يفرض أيضًا كلماته، وشرائعه المقدّسة التي لا تنتهك حرمتها والتي على الإنسانيّة أن تطيعها لكي تخلِّص نفسها؟ مَن كان ليتوقّع أن يضحّي الناس حتّى بحياتهم من أجل كلماته؟ مَن كان ليتوقّع أن يُظهر له الناس مثل هذا التفضيل على غيره، حتّى يصبح أعزَّ من أب وأمّ وزوج وزوجة وأولاد وأقارب؟ مَن كان ليطلب من أتباعه أن يضحّوا بكلّ ذلك حبًّا به؟

ولكن أكثر ما يلفت هو كيف يقدر أحدهم على أن يوحي

للإنسانيّة بالحبّ والصداقة اللذين سوف يطلبهما من كلّ الجنس البشريّ؟ كيف يمكن أن يحبّ كلّ الناس على الأرض من كلّ الأعمار، شخصًا لم يروه في حياتهم، ولم يتكلّموا معه قطّ، وحتّى أن يضحّوا بحياتهم من أجله؟ أيّ نوع من الأشخاص يمكن أن يصبح مضمون العبادة الأبديّة الحيّ، ويرضي في الوقت عينه طلبات كلّ قلوب البشر ونفوسهم؟ ليس بشريًّا بالتأكيد لأنّ هذا مستحيل على الإنسان.

من هنا كان على أحد أن يكون إلهًا-إنسانًا لكي يجمع في نفسه كلّ هذه القدرات. وحده الذي صاغ أوّلاً الإنسان بيديه سيكون قادرًا على إعادة صياغة الإنسان الذي أفسدته الخطيئة. وحده مَن هو في حضن الآب سيكون قادرًا على إعلان اسم الله للإنسان (راجع يوحنّا ١: ١٨). وحده مصدر الحياة والحقيقة كان ليقدر على تنوير العالم وتعليم الحقيقة الكاملة. وحده الذي نزل من السماء كان قادرًا على أن يرفع الإنسان إلى السماء (راجع يوحنّا ٦: ٣٣). وحده الحبّ الأزليّ كان قادرًا على إضرام قلوب كلّ الناس على الأرض، إلى ما لا نهاية. وحدها الحياة الأبديّة، الله غير المائت، يتمكّن من منح الإنسان الحياة الأبديّة. وحدها الحكمة الإلهيّة (راجع أمثال ٨: ١٢، وجامعة ١:١) قادرة على أن تنقل الحكمة إلى العالم وأن تكشف له ما عجزت حكمة العالم عن فهمه. وحده مَن له القدرة على كلّ جسد (راجع يوحنّا ١٧: ٢) يكون قادرًا على أن يطلب الإيمان الكامل والإخلاص له.

وحده مَن يعلم كلّ شيء هو قادر على أن يفهم الأمور المجهولة والمخفيّة الموجودة داخل قلوب البشر، ويوجّه أحاسيسهم. وحده مَن هو موجود في كلّ الأزمان، ومَن هو في كلّ مكان، كان قادرًا على أن يَعد بأنّه سيكون دائمًا مع الذين يجتمعون باسمه في كلّ الأزمان وكلّ

مكان (راجع متّى ٢٨: ٢٠). وحده مَن له القوّة والسلطان المطلقَين يكون قادرًا على إخضاع الأجيال لمشيئته. وحده مَن هو نفسه بالأمس واليوم وإلى كلّ الدهور يمكن أن يكون نور كلّ الأجيال ومخلّصها (راجع عبرانيّين ١٣: ٨). وحده ابن الله يكون قادرًا على إرسال الروح القدس للمؤمنين من كلّ الأجيال، جاعلاً إيّاهم آنية كريمة وأشجارًا مثمرة للروح القدس. وحده ابن الله يكون قادرًا على إثراء المؤمنين بالمواهب والقدرات والطاقات السماويّة الوافرة جاعلاً أطفال هذا العالم أحكم من الحكماء، والعاجزين أقوياء، ومَن هم موضوع سخرية أجلاّء، والأشياء غير الموجودة كأشياء موجودة، لكي يُخزي الحكماء والأقوياء ويُبطل الأشياء الموجودة (راجع ١كورنثوس ١: ٢٧-٢٨). وحده الله يكون قادرًا على جعل الإنسان (الذي أفسدته الخطيئة) ابنًا لله ووارثًا الملكوت الأبديّ.

لذا فقد كان من الضروريّ لإله حقيقيّ أن يصبح مخلّص العالم لكي يعلّم الناس المشيئة الإلهيّة، ويكشف اسم الله، ويشدّد أُلسنة الناس لتمجّد الله. كان ربّنا يسوع المسيح هذا الشخص. هكذا أُعلن عنه بالأنبياء إذ لم يكن غيرهم قادرًا على تأدية هذه المهمّة العظيمة. وهكذا خلّص ابن الله الإنسان. ابن الله كشف اللهَ للإنسان. ابن الله علّم الإنسان أن يمجّد الإله الحقيقيّ الوحيد. ابن الله أعاد للإنسان جماله القديم وكرامته الأصليّة ومكانته السابقة. ابن الله أرضى فكر الإنسان وملأ الفراغ الذي كان في داخل قلبه بكشف الله له وبتحقيق رغبات قلب الإنسان بحبّه، بحبّ الله. إذًا لنبحث عن ابن الله ولنؤمن به. لنبحث عن ربّنا يسوع المسيح، لكي نمجّده، ونحقّق هدفنا في الحياة، ونرضي روحنا، ونحقّق رغبات قلبنا النهِم التي لا عدّ لها.

الفصل الحادي عشر
ألوهيّة المسيح كما تشهد عليها كلماته

كان المخلِّص في المقام الأوّل نبيًّا، بحسب التالي:

١) أعلن لنا مشيئة الله الأزليّة مرشدًا إيّانا في الإيمان الحقيقيّ، كيف نعبد بالروحِ والحقّ، وبالأعمال الضروريّة للخلاص.

٢) أتمّ أعمالاً مرهبة وعجائبيّة.

٣) أنبأ بأحداث مستقبليّة سوف تحصل في كنيسته وفي الأمم، خلال تلك المرحلة الزمنيّة وفي السنوات التالية على السواء.

ويُدعى المخلِّص أوّلاً نبيًّا لأنّه أكثر من نبيّ: كان إلهًا-إنسانًا، وابنِ الله، وانبثق تعليمه من حكمة الله السرمديّة. وسوف يبرهن المخلِّص نفسه أنّ: «*تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني*» (يوحنّا ٧: ١٦)؛ و«*الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني*» (يوحنّا ١٤: ٢٤)؛ و«*إنسان قد كلّمكم بالحقّ الذي سمعه من الله*» (يوحنّا ٨: ٤٠)؛ و«*لأنّي أتيت من الله*» (يوحنّا ٨: ٤٢).

أعلن لنا ربّنا يسوع المسيح، كنبيٍّ في المقام الأوّل، مشيئةَ الله السرمديّة، وعلّمنا الإيمان الحقيقيّ وكيف نعبد بالروح والحقّ، وأرشدنا إلى الأعمال التي تقود إلى الخلاص.

وأكّد المسيح المخلِّص نفسه هذا الدور على أنّه لقبه الأكثر جوهريّة: «*لهذا أنا وُلدت ولهذا قد أتيت إلى العالم، لأشهد للحقّ. كلّ مَن هو من الحقّ يسمع صوتي*» (يوحنّا ١٨: ٣٧). وأكّد بالمثل: «*أنتم تدعونني معلّمًا وسيّدًا، وحسنًا تقولون لأنّي أنا كذلك*» (يوحنّا ١٣:

١٣)؛ «*ولكن لا تُدعَوا سيّدي لأنّ معلّمكم واحد المسيح*» (متّى ٢٣: ٨)؛ وأيضًا: «*ينبغي لي أن أبشّر المدن الأُخر أيضًا بملكوت الله لأنّي لهذا قد أُرسِلت*» (لوقا ٤: ٤٣)؛ و«*أنا مجّدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... أعلنت اسمك للناس... لأنّ الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم*» (يوحنّا ١٧: ٤-٨).

وإلى ذلك، كان الرسل القدّيسون يدعون الربّ يسوع «سيّدًا» (لوقا ٩: ٤٩) و«معلّمًا» و«نبيًّا»: «*الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب*» (لوقا ٢٤: ١٩). وهكذا شهدوا: «*نحن نعلم أنّ ابن الله جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحقّ. ونحن في الحقّ في ابنه يسوع المسيح*» (١يوحنّا ٥: ٢٠).

١) علّمنا ربّنا يسوع المسيح وكشف لنا الحقائق التالية:

أ. عن الله: الله هو الكائن الأسمى والأكمل (راجع متّى ٥: ٤٥؛ يوحنّا ٤: ٢٤). إنّه واحد في الجوهر (راجع مرقس ١٢: ٢٩)، ولكنّه مثلّث في الأقانيم (راجع متّى ٢٨: ١٩). إنّه قائم بذاته (راجع يوحنّا ٥: ٢٦). وهو موجود في كلّ مكان (راجع يوحنّا ٤: ٢١-٢٣). إنّه كلّه صلاح (راجع متّى ١٩: ١٧) وهو كلّيّ القدرة (راجع متّى ١٩: ٢٦). إنّه خالق الكون ومدبِّره (راجع متّى ٦: ٢٦-٢٩)، هو الذي، كأب، يهتمّ بكلّ مخلوقاته، ولكن بالدرجة الأولى بالإنسان (راجع لوقا ١٢: ٧).

ب. عن نفسه: إنّه ابن الله الوحيد الذي أتى إلى العالم لكي يصالح الإنسان مع الله ويجمعه به من جديد (راجع يوحنّا ٣: ١٦، ١٧: ٢١) بآلامه الخلاصيّة وموته وقيامته (راجع متّى ١٢: ٤٠، ١٦: ٢١). إنّه واحد مع الآب (راجع يوحنّا ٥: ٣٠). إنّ الآب فيه وإنّه في الآب (راجع يوحنّا ١٤: ١٠). مَن رآه قد رأى الآب (راجع يوحنّا ١٤: ٩). إنّه الطريق

والحقّ والحياة (راجع يوحنّا ١٤: ٦). إنّ كلمته هي الحقيقة المطلقة. إنّه موجود قبل إبراهيم، أي قبل كلّ الأجيال (راجع يوحنّا ٨: ٥٦). إنّه نور العالم (راجع يوحنّا ٨: ١٢)، باب الحياة، ومصدر القداسة، ومعطي الصالحات.

ج. عن الروح القدس: الروح القدس ينبثق من الآب. الروح القدس يمنح كلّ شيء. إنّه مرسَل بالابن، وهو الأقنوم الثالث من الثالوث القدّوس (راجع يوحنّا ١٥: ٢٦).

د. عن الإنسان: كان من الضروريّ للإنسان، الذي أصبح فاسدًا، أن يولد من فوق، أي أن يولد من جديد. على الإنسان أن يستعمل بعض الأساليب التي تمكّنه من أن يكون يقظًا، وأن ينال الخلاص، ويولد من جديد. يولد الإنسان من جديد بالماء والروح، وهكذا يتقدّس ويتصالح مع الله (راجع يوحنّا ١٧: ١١ و١٧). يتمّ الخلاص عبر مخلّصنا وفادينا. لا يمكن أن يأتي أحد إلى الآب إلاّ عبر فادينا وربّنا يسوع المسيح (راجع يوحنّا ١٤: ٦). الروح خالدة. الإنسان مجبر على أن ينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبع المسيح. مَن اعتمد باسم الآب والابن والروح القدس يحصل على الحياة الأبديّة (راجع مرقس ١٦: ١٥-١٦). مَن يأكل جسد المسيح ويشرب دمه يحصل على الحياة الأبديّة (راجع يوحنّا ٦: ٥٤). وحده الحبّ هو الرابط الذي يجمع الإنسان بقريبه وبالله. كما علّمنا المسيح عن الحبّ الكامل وحقائق أخرى لا عدّ لها نجدها في الكتاب المقدّس. تعليمه الإلهيّ الموجود في الكتاب المقدّس هو الكشف الأمثل لله ومصدر كلّ حقيقة.

٢) أجرى ربّنا يسوع المسيح (كنبيٍّ بالدرجة الأولى) أعمالاً معجزة ورهيبة. وشملت عجائبه أشفية (أجراها بكلمته فقط) من كلّ

مرض وضعف، وغفران الخطايا، ومداواة النفوس، وطرد الشياطين، وإخضاع العناصر، وإلغاء سلطة الموت، وإعادة الموتى إلى الحياة.

٣) كما تنبّأ ربّنا يسوع المسيح بالمستقبل. وأخبر مسبقًا، لكونه نبيًّا بالدرجة الأولى، عن خراب أورشليم، وخرابِ الهيكل، ورجاسةِ الخراب في اليهوديّة، والعقابِ الإلهيّ للشعب اليهوديّ (راجع متّى ٢٤: ١-٢٨). أطلعنا مسبقًا على موته، وعلى إرسال الروح القدس لتلامذته ورسله القدّيسين. وتنبّأ بأنّه سيُكرَز بالإنجيل لجميع الأمم (راجع متّى ٢٤: ١٤)؛ وأنّ الأمم سوف يُقبلون إلى تعليمه؛ وأنّ المبشّرين بالإنجيل سيُضطهدون؛ وأنّ الحقّ سوف يغلب؛ وأنّ كنيسته ستتأسّس وتقوى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأنّها سوف تنتصر في النهاية (راجع متّى ١٦: ١٨). كلّ ما سبق ذكره تحقّق بحسب النبوءة، كما شهد التاريخ على ذلك.

الفصل الثاني عشر
نبوءات المسيح عن خراب أورشليم قد تحقّقت حرفيًّا

يذكر الإنجيليّون متّى ومرقس ولوقا النبوءات المتعلّقة بخراب أورشليم وخراب الهيكل ودمار اليهوديّة، وبالشرور التي ستصيب الأمّة اليهوديّة. ويشير مؤرّخون عدّة إلى كيفيّة تحقّق هذه النبوءات.

سبق يسوع وحذّر أنّه: «*لن يبقى حجر على حجر*» (متّى ٢٤: ٢). والحقيقة أنّ أورشليم تعرّضت للنهب والدمار على أيدي الجنود الرومانيّين خلال حكم تيطس في السنة ٧٠ م[٦٣]. ويقول يوسيفوس: «أمر قيصر بأنّ عليهم الآن أن يدمّروا المدينة بكاملها والهيكل... وأمّا ما تبقّى من الجدار، فقد هُدم بالكلّيّة إلى الأرض وحُفر حتّى إلى أساساته، لدرجة أنّه لم يبقَ شيء يجعل قاصدي ذلك المكان يصدّقون أنّ المدينة كانت مأهولة يومًا»[٦٤]. ويذكر المؤرّخ اليهوديّ ميمونيدس أنّ ترانتيوس روجوس، وهو جنرال في جيش تيطس، حرث أساسات الهيكل ذاتها. وهكذا تحقّقت نبوءة ميخا القائلة: «*ولذا ستُحرث صهيون كحقل، وتصير أورشليم أطلالاً وجبلُ البيت مشارفَ غابٍ*» (ميخا ٣: ١٢). والجدير ذكره من بين أمور أخرى، أنّ تيطس لم يكن

---

[٦٣] أكّد يسوع لرسله أنّ الأحداث المذكورة في نبوءاته سوف تتحقّق قبل موت الجيل الحاضر من الشعب. وهذا ما حصل بالحقيقة. ففي السنة ٧٠م، بعد ٣٥ سنة فقط على موت المسيح، تعرّض هيكل أورشليم للدمار (متّى ٢٤: ٣٤).

[٦٤] عندما دخل تيطس المدينة ورأى الأسوار المنيعة وعلوّها الشاهق، وضخامة حجارتها المتنوّعة، ودقّة تلاحمها، إلى جانب عظم اتّساعها، وطولها الهائل، قال: «لا شكّ في أنّ الله كان مساعدًا لنا في هذه الحرب، وليس غير الله مَن رمى باليهود خارج هذه الحصون؛ إذ ما كانت لتفعل أيدي الناس أو أيّة آلات في الإطاحة بهذه الأسوار!» (Jewish Wars, 7.1.1).

يرغب بتدمير الهيكل. ومن المفارقات أنّ اليهود أوّلاً هم الذين أضرموا النار بالأروقة. وبعد ذلك، قام الجنود بنهب الهيكل، مدفوعين بحقدهم الغامر على اليهود، ثمّ تركوه وقودًا للنار. وهكذا التهمت النار الهيكل حتّى رغم إرادة قيصر.

كذلك سبق المسيح وحذّر من *«حروب واضطرابات»* (لوقا ٢١: ٩). في ذلك الوقت كان السلام يعمّ المملكة الرومانيّة، ولكن سرعان ما هزّ صخبٌ مريع العالم الرومانيّ، فسقط أربعة أباطرة رومان: نيرون وغالبا وأوتو وفيتاليوس، الواحد تلو الآخر في غضون ثمانية أشهر. وأدّت الثورات في مدينة صلوقيا إلى مقتل خمسين ألفًا من اليهود[٦٥]. كما حدثت أمور أخرى كثيرة يشير المؤرّخ اليهوديّ إلى أنّها مقدّمة الدمار ويضيف: «كانت الاضطرابات في كامل سوريا رهيبة، وكلّ مدينة كانت منقسمة إلى جيشَين، الواحد يعسكر ضدّ الثاني»[٦٦].

كما أنبأ المسيح بأنّه ستكون هناك *«مجاعات وأوبئة، وزلازل في أماكن عديدة»، وأنّ كلّ ذلك هو «مبتدأ الأوجاع»* (متّى ٢٤: ٧-٨). فحلّت المجاعة أربع مرّات خلال حكم القيصر كلاوديوس (٤١-٤٥ م) في روما وفلسطين واليونان. كما ضربت أوبئة مدمِّرة روما (٦٥ م) قضى على أثرها، بحسب تاسيتوس، ثلاثون ألف شخص في خريف تلك السنة. ومنذ تلك النبوءة إلى حين دمار الهيكل حدثت بالطبع زلازل عديدة ولكنّنا لن نذكر سوى هذه بهدف الاختصار: في إقريطش (ما بين ٤٦-٤٧ م)، وفي روما خلال حكم نيرون (٥١ م)، وفي فريجيا (٥٣ م) وفي اللاذقيّة وسميرنا الفريجيّة وميليتيا وخيوس وساموس.

---

[65] *Antiquities of the Jews,* 18.9.8; *Jewish Wars,* 2.17.10.

[66] *Jewish Wars*, 2.18. 1-8.

ويذكر الرسول لوقا أنّه ستكون هنالك، بالإضافة إلى الزلازل: *«مخاوف وعلامات عظيمة من السماء»* (لوقا ٢١: ١١). ونعرف من يوسيفوس أنّ هذه النبوءة تحقّقت لأنّه يذكر أنّ نجمة تشبه سيفًا وقفت فوق المدينة، وبدا نجم مذنَّب عظيم طوال سنة كاملة. وشعّ نور حول هيكل المعبد لمدّة نصف ساعة خلال ليلة عيد الفطير، وأمّا بوّابة النحاس الشرقيّة التي كان يجب أن يتعاون لإغلاقها عشرون رجلاً، فانفتحت من تلقاء ذاتها، وشوهدت وحدات من جنود يركضون فوق الغيوم حول المدينة[٦٧].

كما سبق المسيح وأنبأ عن *«رجاسة الخراب... قائمة في المكان المقدّس»* (متّى ٢٤: ١٥). وقد تبع الخرابُ الرجاسة. إذ كان اليهود يعتبرون الجيش الرومانيّ رجاسة ويضمرون له الكره ليس لأنّه دخيل وحسب، بل أيضًا لأنّه نسب الإكرام الإلهيّ إلى النسور التي تتقدّم فيالق الجنود[٦٨].

---

[٦٧] أنظر الفصل التالي لوصف هذه المعجزات كما دوّنها يوسيفوس وتاسيتوس.

[٦٨] خرّب الجنود الرومانيّون المدينة المقدّسة بعد أن حاصروها لمدّة طويلة وهاجموها (لوقا ٢١: ٢٠-٢٤). ثمّ وضعوا علامة القوّة الرومانيّة (أي النسر) فوق أعلى مكان في الهيكل.

وقال المسيح: «*إنّه يكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون*» (متّى ٢٤: ٢١). ويصف المؤرّخ يوسيفوس ضخامة هذا الحزن بالقول: «يبدو لي أنّ كلّ المحن منذ ابتداء العالم هي أصغر بالمقابلة مع محنة اليهود»[٦٩].

---

[٦٩] تجاوز عدد اليهود الذين قُتلوا خلال حصار أورشليم (٧٠ م) المليون ومئة ألف نسمة (تقريبًا)، وفي المناطق المحيطة ٢٥٠,٠٠٠ (على وجه التقريب)، أي ما مجموعه ١,٣٥ مليونًا! كان اليهود والمهتدون من البلدان المجاورة وحتّى البعيدة قد أمّوا أورشليم في تلك السنة بجماعات كبيرة للاحتفال بعيد العبور. ثمّ طوّق الجيش الرومانيّ المدينة التي كانت مكتظّة بالسكّان الذين احتُجزوا كما في سجن. ويقول يوسيفوس: «كان عدد الذين قضوا من المجاعة في المدينة هائلاً، والمآسي التي كابدوها لا وصف لها» (*Jewish Wars*, 6.3.3). ويخبر يوسيفوس الآتي: «كانت هناك امرأة تعيش ما وراء الأردن واسمها مريم... هذه كانت معروفة بعائلتها وثرائها، هربت إلى أورشليم مع الجماهير وحوصرت معهم في ذلك الوقت... وسلب الحرّاس الجشعون الطعام الذي تدبّرت أمرها لتحتفظ به، إذ كانوا يأتونها كلّ يوم ويتجوّلون في منزلها لهذا الغرض. وهذا ما وضع المرأة الشقيّة في نزاع عظيم جدًّا، وجعلت أولئك الأوغاد الجشعين يستشيطون غضبًا منها بسبب كلّ ما كانت تكيل لهم من الشتائم واللعنات... وكانت إن وجدت بعض الطعام، يذهب تعبها هدرًا للآخرين وليس لها. وصار مستحيلاً عليها أن تجد المزيد من الطعام بأيّة طريقة كانت فيما الجوع يقضم أحشاءها حتّى العظام... وعندها قامت بعمل مستهجن جدًّا: انتزعت ابنها الذي كان طفلاً يرضع على صدرها قائلة: «أنت أيّها الطفل البائس! لَمن أحفظك في هذه الحرب، وهذه المجاعة، وهذا الاضطراب؟ لأنّ الرومان، إن كانوا سيبقون على حياتنا، في هذه الحرب، فلكي نصبح عبيدًا! وهذه المجاعة أيضًا سوف تقضي علينا حتّى قبل أن نصل إلى العبوديّة. كما أنّ هؤلاء المحاربين الأوغاد أسوأ من الاثنين. تعال، وكن طعامي، وكن أنت انتقامًا في وجه هؤلاء الجنود الأشقياء ومأثرة للعالم الذي يريد اليوم أن يكمّل مصائبنا، نحن اليهود». وما أن تلفّظت بهذه الكلمات حتّى ذبحت ابنها، ثمّ قامت بشوائه على النار وأكلت نصفه، وأخفت النصف الآخر. وعلى الأثر حضر الأشقياء وإذ اشتمّوا رائحة هذا الطعام الكريهة، هدّدوها بقطع عنقها في الحال إن لم تُرهم الطعام الذي طبخته. فأجابت بأنّها احتفظت لهم بحصّة جميلة منه، وفيما هي تتكلّم كشفت ما بقي من ابنها. وعندها أصاب الجنود رعبٌ وذهول ووقفوا مشدوهين للمنظر حين قالت لهم: «هذا ابني أنا، وما حصل له هو من صنيع يدي! تعالوا وكلوا من هذا الطعام، فقد أكلت منه أنا نفسي! لا تدّعوا أنّكم أرقّ من امرأة، أو أكثر عطفًا من أمّ... وعندها غادر هؤلاء الرجال مرتعدين، إذ لم يروّعهم إلى هذا الحدّ أيّ شيء كهذا من قبل، وبصعوبة تركوا بقيّة ذلك اللحم للمرأة» (*Jewish Wars*, 6.3.4). كما قام الجنود الرومان خلال ذلك الحصار بصلب العديد من اليهود أمام أسوار أورشليم إلى درجة أنّ «المكان كان يطلب الصلبان، والصلبان تطلب الأجساد» (*Jewish Wars*, 5.11.1).

الفصل الثالث عشر
حول المعجزات التي حدثت في اليهوديّة

وصف المؤرّخان يوسيفوس وتاسيتوس المعجزات التي حدثت في هيكل أورشليم قبل حصار المدينة بوقت قصير. ويخبر تاسيتوس الأحداث على الشكل التالي:

«حدثت معجزات لم تعتبرها هذه الأمّة الميّالة إلى تصديق الخرافات، ومع ذلك تكره كلّ الطقوس الدينية، جديرةً بالتكفير بالتقدمات والأضاحي. إذ شوهدت حشود تتلاحم في معركة في السماوات، مع بريق الأسلحة الناريّ، والهيكل مضاء بتوهّج مفاجئ من الغيوم. فجأة فُتحت أبواب المقام المقدّس الداخليّ، وسُمع صوت فيه نغمة الموت يبكي ويقول إنّ الآلهة ترحل. وفي تلك اللحظة حدثت ضجّة هائلة تشبه الرحيل. أعطى بعضهم معنًى مخيفًا لهذه الأحداث، وأمّا في الغالب فكانت هناك قناعة راسخة بأنّ في سجّلات كهنتهم القديمة نبوءة تصف كيف أنّ الشرق، في ذلك الوقت بالتحديد، سيتعاظم قوّة، وأنّ حكّامًا آتين من اليهوديّة سوف يحوزون إمبراطوريّة عالميّة. أشارت هذه النبوءات الغامضة إلى فيسباسيانوس وتيطس. ولكن عامّة الشعب فسّروا هذه التكهنات الجبّارة، بعمى الطموح المألوف، على أنّها تخصّهم، ولم تستطع النكبات أن تجعلهم يصدّقون الحقيقة»[٧٠].

[70] Tacitus, *Histories*, Trans. Alfred John Church and William Jackson Brodribb, New York: Random House, 1942, Book 5, Chapter 13.

وهذا ما يقول يوسيفوس عن العلامات والمعجزات: «وهكذا كان الشعب الشقيّ مقتنعًا بهؤلاء المضِلّين وكأنّه كذَّب الله نفسَه، ففي حين أنّهم لم يهتمّوا ولا صدّقوا هذه العلامات التي كانت جليّة جدًّا وكانت تنبئهم بوضوح بدمارهم الآتي، فإنّهم، كأناس فاقدي اللبّ، لا عيون لهم ليبصروا ولا أذهان ليفهموا، لم يعتبروا العلامات التي صنعها لهم الله. وهكذا وقف نجمٌ على شكلِ سيف فوق المدينة، ونجمٌ مذنَّب استمرّ عامًا كاملاً. كما حدث أيضًا، قبل تمرّد اليهود وحصول تلك الاضطرابات التي سبقت الحرب، حين جاء الشعب لحضور عيد الفطير بحشود عظيمة، في الثامن من نيسان، وفي الساعة التاسعة من الليل، إذ شعّ نور عظيم مدّة نصف ساعة حول الهيكل والبيت المقدّس حتّى بدا الوقت كنهار مشرق. واعتُبر هذا النور علامةً جيّدة لغير الحاذقين إلاّ أنّ الكتبة المتديّنين فسّروه على أنّه ينذر بتلك الأحداث التي تلته مباشرة. وفي ذلك العيد أيضًا، كان الكاهن الأعلى يسوق بقرة صغيرة للذبح، فوضعت عجلاً في وسط الهيكل. وإلى ذلك فإنّ البوّابة الشرقيّة لباحة الهيكل الداخليّة، وهي مصنوعة من النحاس وثقيلة للغاية، وكان عشرون رجلاً يتعاونون لإغلاقها بصعوبة، وهي ترتكز على قاعدة محصّنة بالحديد، ولها مزاليج مثبّتة عميقًا في الأرض الصلبة التي كانت مكوّنة من حجر واحد كامل، شوهدت تنفتح من تلقاء ذاتها في الساعة السادسة من الليل تقريبًا. وللحال ركض الذين يقومون بالحراسة في الهيكل إلى قائد الهيكل وأخبروه بما جرى. فحضر إلى المكان ولم يستطع إعادة إغلاق البوابة إلاّ بصعوبة بالغة. وهذا أيضًا بدا لعامّة القوم معجزة سعيدة جدًّا، وكأنّ الله فتح لهم بوّابة السعادة. إلاّ أنّ المتعلّمين فهموا أنّ أمن بيتهم

المقدّس انحلّ من تلقاء ذاته، وأنّ البوّابة فُتحت لمصلحة أعدائهم، فصرَّح هؤلاء علنًا أنّ هذه العلامة سبقت وأظهرت الخراب الآتي عليهم.

«وإلى ذلك، ففي اليوم الحادي والعشرين من شهر أرتميس (أيّار)، أي بعد انقضاء بضعة أيّام على ذلك العيد، حصلت ظاهرة معجزة لا تصدّق. وأظنّ أنّ روايتها ستبدو من الخرافات، لو لم يكن قد رواها مَن شاهدوها، ولو لم تكن الأحداث التي تلتها ذات طبيعة عالية الأهمّيّة، لكي تستحقّ مثل هذه العلامات. إذ شوهدت قبل غروب الشمس عرباتٌ وأفواج من جنود مدرّعين يتجوّلون بين الغيوم، ويطوّقون المدن. وأكثر من ذلك، ففي ذلك العيد الذي ندعوه العنصرة، وفيما كان الكهنة يدخلون ليلاً إلى باحة الهيكل الداخليّة، لتأدية خِدمهم المقدّسة كما كانت العادة، قالوا بأنّهم شعروا أوّلاً باهتزاز وسمعوا صوتًا عظيمًا، ثمّ سمعوا صوتًا يشبه حشدًا كبيرًا يقول: «لنرحل من ها هنا».

«ولكنّ الأكثر فظاعة من كلّ ذلك، أنّه كان هناك رجل يُدعى يسوع ابن أنانوس، وهو مزارع رومانيّ من عامّة الشعب، حضر إلى ذلك العيد الذي فيه جرت العادة عندنا أن يصنع كلّ شخص مظالاً لله في الهيكل. وكان ذلك قبل أن تندلع الحرب بأربع سنوات، وفي وقتٍ كانت المدينة تنعم بازدهار وبسلام عظيم جدًّا؛ ولكنّه بدأ فجأة بالصراخ عاليًا: «صوت من الشرق، صوت من الغرب، صوت من الرياح الأربع، صوت ضدّ أورشليم والبيت المقدّس، صوت ضدّ العرسان والعرائس، صوت ضدّ هذا الشعب برمّته!». هذه كانت صرخته حين كان يتجوّل نهارًا وليلاً، في كلّ أزقّة المدينة. ولكنّ بعضًا

من الناس الأكثر رفعة في الشعب، غضبوا أشدّ الغضب لصرخته الأليمة هذه، وقبضوا على الرجل وأشبعوه ضربًا قاسيًا. ولكنّه لم يقل شيئًا عن نفسه ولا شيئًا خاصًّا للذين عاقبوه، بل استمرّ يجول ويقول الكلمات ذاتها التي كان ينادي بها من قبل. وعلى أثر ذلك اعتبر حكّامنا، كما ثبت من القضيّة، أنّ في الرجل نوعًا من حنقٍ إلهيّ، فاقتادوه إلى النائب العامّ الرومانيّ حيث جُلد بقوّة حتّى بانت عظامه. ومع ذلك فإنّه لم يقدّم أيّ استرحام من أجل نفسه ولا ذرف دمعة واحدة، بل جعل لصوته النبرة الأكثر حزنًا، وكان جوابه عند كلّ ضربة سوط: «الويل، الويل لأورشليم!». وعندما سأله ألبينوس (لأنّه كان في ذلك الحين النائب العامّ عندنا) عن هويّته، ومن أين أتى ولِمَ يتلفّظ بهذه الكلمات، لم يحاول حتّى الردّ على ما سأله، ولكنّه لم يتوقّف عن أغنيته القصيرة الحزينة إلى أن اعتبره ألبينوس رجلاً مجنونًا وصرفه.

«في ما بعد، وخلال كلّ الوقت الذي سبق اندلاع الحرب، لم يقترب ذلك الرجل من أحد المواطنين، ولا رآه أيّ منهم حين كان يردّد كلّ يوم تلك الكلمات المحزنة وكأنّها نذره المتعمّد: «الويل لأورشليم!»، ولم يتلفّظ بكلمات سيّئة لأيّ من الذين كانوا يضربونه كلّ يوم، ولا قال كلمات جيّدة للذين أعطوه طعامًا، بل كان ذلك جوابه لجميع الناس، ولم يكن ذلك بالطبع سوى نبوءة محزنة بما سوف يحدث.

«كانت صرخته هذه أعلى ما سُمع في الأعياد. واستمرّ بترداد هذه الأغنية القصيرة لسبعة أعوام وخمسة أشهر من دون أن يبحّ صوته أو يتعب إلى الوقت الذي فيه رأى نبوءته تحقّقت جدّيًا في حصارنا، فتوقّفت. إذ حين كان يدور حول الجدار، صرخ بأعلى صوته وبكلّ

قوّته: «الويل، الويل للمدينة مجدّدًا، وللشعب، وللبيت المقدّس!». وما كاد يضيف في الآخر: «الويل، الويل لي أنا أيضًا!» حتّى سقط عليه حجر من أحد المحرّكات وضربه بقوّة وقتله للحال، وفيما كان ينطق بالنبوءة ذاتها، لفظ أنفاسه»[٧١].

---

[71] *Jewish Wars*, 6.5.3.

القسم الثالث

اعلان الله للعالم

الفصل الأوّل

جهل الله والإنسان هو سبب رفض المعجزات

نحن نعتبر أنّ الفلاسفة[٧٢] يرفضون اعتلان الله للعالم ويصرفون النظر عن المعجزات بسبب جهلهم الله والإنسان بالدرجة الأولى. إذ لن يتجرّأ يومًا مَن له معرفة بخصائص الله وبطبيعة الإنسان الروحيّة، على إنكار الاعتلان الإلهيّ للعالم. وليس الدليل العلميّ وحده هو الذي يقنع الإنسان بهذا، بل ينبئه أيضًا إحساسه الخاصّ (المدعو دينيًّا). لذا فإنّ جهل الله والإنسان هو السبب الرئيس لعدم الإقرار بالمعجزات.

هذا الجهل يضع الله، بغطرسة، في سموّ[٧٣] من طرف واحد. فيحدّد مكان إقامته مثلما يحدّد أحدهم منزل خادمه. إنّه يحصر الله في مكان واحد وكأنّه كائن محدود، ويضع الله حيثما يرتضي العقل المغرور. إنّه

---

[٧٢] في القرن السابع عشر بدأت آراء العالم تتغيّر. فقد أدّت بعض الاختراعات، مثل فكرة الكون الآليّ لإسحق نيوتن، إلى جعل الأوروبّيّين يبدأون بتفسير الظواهر على المثال الآليّ عينه. فأزيلت الديانة والألوهيّة من الساحة ببطء، ما أدّى إلى جعل عالم الظواهر المادّيّة والبشريّة عقلانيًّا، متوقعًا وقابلاً للتلاعب به. وفي نهاية المطاف أدّت طريقة التفكير هذه إلى الاستنارة الأوروبّيّة التي تطوّرت جزئيًّا على يد مجموعة من المفكّرين الفرنسيّين النشيطين الذين ازدهروا في منتصف القرن الثامن عشر ودُعوا: «الفلاسفة». كانت هذه المجموعة خليطًا غير متجانس من أناس ذوي اهتمامات فكريّة متنوّعة: علميّة، وميكانيكيّة، وأدبيّة، وفلسفيّة، واجتماعيّة، لا تجمعهم سوى مواضيع مشتركة قليلة جدًّا: شكّ لا يتزعزع بكمال الكائنات البشريّة، ورغبة عنيفة بتبديد أنظمة تفكير مغلوطة (كالدين) وتكرّس من أجل منهجة الأنظمة الفكريّة المتنوّعة. كما طوّروا فكرة الربوبيّة التي افترضت أنّ كل الظواهر يمكن أن تُفهَم بالعقل البشريّ وحده من دون أيّ تفسير إلهيّ على الإطلاق. هؤلاء هم الذين يشير إليهم القدّيس نكتاريوس بـ«الفلاسفة».

[٧٣] حين تُستعمل كلمة سموّ في الكلام عن الله، فإنّها تعني الوجودَ بعيدًا عن محدوديّات الكون المادّيّ وعدم الخضوع لها؛ أو في سياق فلسفة «كانت» أنّ الله غير مدرَك بالخبرة. وعكس ذلك هو «ملازِم»: الله يملأ الكون على الدوام ويسانده.

يمنع عليه حقّ الاتّصال بالعالم ويجعل الخليقة مستقلّة ومكتفية بذاتها. فيزيّن هذا الجهل الخليقة ويمنحها القوّة، والحرّيّة، والحكمة الكاملة، والهناء.

وعبر هذا التصرّف المتعجرف يقتطع الإنسان المستبدّ من الله، خالقِ الكون، بعضَ الخصائص المطلقة ويمنحها للخليقة بضمير هادئ وذهن متعالٍ. ويلذّ هذا التحويل للأذهان المتكبّرة لأنّه يرفع مكانة الإنسان ويقدِّمه خلسة من منزلة المرؤوس إلى منزلة المكتفي بذاته والمستقلّ، واضعًا عرشه أخيرًا أعلى من الله. إنّه يجعل الإنسان إلهًا كاملاً يعيِّن حدود الله ونشاطاته. ويفرح الإنسان بضعفه القليل الذكاء والأنانيّ. ويرضى الإنسان الجاهل، المنتفخ بهذه الطريقة، بعظمته الوهميّة ويتباهى بالأمور التي تجاسر على القيام بها. ولكنّ المؤسف بخصوص هذه النظريّة أنّ الحقيقة الثابتة، حقيقة الأمور، تفضح الغشّ وتبرهن على عقمها وتكشف جهل الذين اخترعوها وخلقوها. الحقيقة تنتصب بقوّة ورسوخ، مستدعية معجبيها بإعلان نبيل.

ويؤمن مؤيّدو النظريّة آنفًا بأنّ الإنسان يرتفع بها أعلى من السماوات ويشغل مكانته الجليلة الحقيقيّة. أمّا نحن، فإذ نرفض تلك الفكرة، نؤكّد أنّ الإنسان يتدنّى ويُذلّ بها لأنّه لا يصبح إلهًا، بل حيوانًا، حين يرفض الاعتلان الإلهيّ. ولو كان هؤلاء الأشخاص يملكون المعرفة التامّة بقيمة الإنسان الروحيّة والأخلاقيّة الحقيقيّة، لما احتملوا أن يُحرموا على الإطلاق من علاقة كهذه تشرِّف الطبيعة البشريّة إلى هذه الدرجة العظيمة. فالعلاقة مع الله (التي تتكوّن عبر الاعتلان) هي غطاء برّاق يحوط الطبيعة البشريّة ويسبغ عليها بهاءً

إلهيًّا. إنّها عنوان نبل الإنسان الذي يميّزه عن باقي الطبيعة. إنّها غمامة خفيفة ترفعه من الأرض وترقى به إلى السماء الثالثة حيث يسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يمكن للإنسان أن يقولها. إنّها تضعه في مكان عالٍ حيث لا يمكن سوى لطبيعة نقيّة وروحيّة أن ترتفع. هذه العلاقة التي يمكن أن يقيمها الإنسان مع الله هي القوّة التي تجعل المرء مثاليًّا، القوّة التي تحرّره من القيود، القوّة التي تنقّيه وتقدّسه، وهي أخيرًا الطاقة المحوِّلة الحقيقيّة التي عبرها يصبح الإنسان إلهًا. على هذا النحو تكون الامتيازات في حال وجود علاقة بين الله والإنسان. ولذا فالذين ينكرون هذه العلاقة يجهلون الإنسان. لأنّهم لو كانوا على علم بقيمته العظيمة وعلاقته بالألوهة، لما تجرّأوا يومًا على إذلاله وإهانته إلى مثل هذا الحدّ. وهكذا فإنّ جهل الله والإنسان هو السبب الرئيس الذي يدفع المرء ويشجّعه على أن يتجاسر ويرفض العلاقة بينهما. إذ إنّ جهل الله يقود إلى إنكار خصاله الإلهيّة، كما يقود جهل الإنسان إلى إذلال الطبيعة البشريّة إراديًّا والحطّ من قدرها.

أظنّ أنّ أحدًا لا يمكنه أن ينكر هذه الحقيقة، بما أنّه يستحيل علينا القبول بأنّ معرفة الله وإنكار اعتلانه، يمكن أن يوجدا في آن. وسوف نقدّم الدليل على هذه الحقيقة.

مَن يعرف الله يعرفه عبر خصاله. فإله من دون خصال هو إله من دون جوهر، وتاليًا، كلمةٌ من دون معنى أو مدلول. وكما نعجز عن القول إنّنا نعرف إنسانًا ما إن كنّا نجهل قوّة روحه وذهنه، فإنّنا، على نحو مماثل، نعجز عن القول إنّنا نعرف الله إن لم نكن نعرفه عبر خصاله. ومَن يعرف الله عبر خصاله يجب أن يقبل أيضًا اعتلانه للعالم؛ لأنّ خصال الله المطلقة والنسبيّة تعبّر عن العلاقة بين جوهر

الله ونفسه، وأيضًا عن علاقته بالعالم. إنّ مَن يعرف الله عبر خصاله وينكر علاقة الله بالعالم، يناقض نفسه وليس فيه حقّ. إنّ إنكار العلاقة المعلنة بين الله والخليقة هو إنكار لخصال الله. وبالنتيجة فعلى المرء إمّا القبول بالاثنين معًا من أجل أن تكون له معرفة بالله، أو أن يرفض الاثنين معًا حتّى لا يناقض نفسه.

الذي ينكر الاعتلان الإلهيّ ينكر الله ووجوده. حين ينكر الإنسان الاعتلان، فإنّه ينكر خصال الله، ينكر جوهر الله، ينكر شخصيّة الله، وتاليًا فإنّه ينكر الله نفسه. وبهدف إدراك الله، من الضروريّ أن يُدركه المرء ككائن شخصيّ يكشف نفسه للعالم. ورغم ذلك فنحن لا نقصد بهذا أيضًا أنّ العالم ضروريّ لكي يوجد الله. إذ ليست خصال الله من نتاج الخليقة ولا تنبثق منها. إنّها بالحريّ جوهر الله نفسُه، وهي موجودة بغضّ النظر عن الخليقة. وليست ضرورة الاعتلان متعلّقة بطبيعة الله، بل بفهم الإنسان لله. كما أنّ خصال الله النسبيّة التي نُدركها عبر الاعتلان ليست أمرًا تمنحه الخليقة لله، بل هي أشكال خاصّة تعبّر عن التعريفات الداخليّة لجوهر الله، والتي تنشأ من العلاقة بين الله والخليقة. من هنا فإنّ الخليقة تقدّم سببًا لظهور هذه الخصال وليس لوجودها.

الفصل الثاني
مفهوم الله ككائن مطلق يدعم اعتلانه للعالم

بعد أن أثبتنا الحاجة الملحّة إلى وجود إله شخصيّ، سوف نبرهن الآن ضرورة اعتلان الله للخليقة.

مفهوم كون الله شخصيّة مطلقة يدعم اعتلانه للعالم. ويسمح لنا هذا الإدراك بأن نتفحّص علاقة الله بالعالم ونحدّدها، تمامًا كما يمكن أن تُحدَّد العلاقة بين كلّ شخص ومحيطه.

الله، ككائن مطلق، يملك وعيًا ذاتيًّا مطلقًا وحرّيّة مطلقة وقدرة مطلقة. وعبر هذه الخصال المطلقة، يعي الله أنّه كائن مطلق وأنّه خلق الكون، الفاسد والمتحوِّل. ومع ذلك فإنّه يستحيل على الله أن يعي مثل هذا الأمر حين نسلب منه الخصال التي تسمح بوجود ذلك الوعي. إنّ إنكار الاعتلان الإلهيّ، لكونه رفضًا لخصال الله وخصائصه، هو رفض لشخصيّته. وهذا يصنِّف الله ككائن يفتقد إلى الوعي الذاتيّ والحرّيّة. إذ إنّ كائنًا ذا وعي ذاتيّ وحرّيّة ويملك إدراكًا لذاته، يمكنه أيضًا أن يفهم الأمور الخارجة عن شخصه. بالإضافة إلى أنّه قادر على الإدراك والرغبة، وعلى إعلان ذاته للخليقة التي هي خارج جوهره. وحتّى يكون الله شخصيّة، من الضروريّ إذًا أن يتمتّع بالوعي الذاتيّ والحرّيّة؛ وتاليًا الخصائص التي عبرها يملك معرفة ذاته والأمور الخارجة عن ذاته، والتي عبرها يعلن للعالم قدرته الخالقة التي تحفظ الخليقة وتنمّيها وترشدها إلى نهاية هادفة ومنطقيّة.

ولكنّ مؤيّدي النظريّة القائلة بسموّ الله المطلق والأحاديّ

الجهة، إذ حادوا عن المسار الصحيح، انتهى بهم المقام إلى دروب معوجّة وملتوية. إنّهم يضلّلون باستمرار ويسقطون بشكل متواصل من مبدأ «الربوبيّة»[٧٤] إلى «ضدّ الكونيّة» (Acosmism)[٧٥]، ومنها إلى «الحلوليّة»[٧٦] ومن تلك إلى «الكونيّة»[٧٧] والمادّيّة المحضة. وبالمقابل فإذ إنّ الكونيّة عاجزة عن إعطاء حلّ لكلّ المسائل المتعلّقة بها، فإنّها تتلقّى تشكّلاً ربوبيًّا من جديد. وهذا يقود إلى دائرة كاملة، دورة تؤكّد عدم ثبات نظريّة الربوبيّة وعدم دقّتها. ولسوف نشرح بإيجاز، ولكن بوضوح، الطريقة التي بها تنحرف نظريّة داخل أخرى، وسبب عودة الدوران هذه حتّى يكون الأمر مفهومًا تمامًا.

إنّ إنكار علاقة الله بالعالم، أي مبدأ سموّ إله «الربوبيّة» من جهة واحدة، يقود إلى «ضدّ الكونيّة» للأسباب التالية: فلكي يُبقي الله على المدلول المخصّص له، ينبغي أن يكون مطلقًا. ولكن الله، بحسب الربوبيّة، هو كائن سام يقيّد العالمُ طابعَه المطلق، لأنّ العالم حدّ تامّ لا يستطيع الله أن يتجاوزه. وعلى هذا فإنّ الله، لكونه محصورًا في العالم،

---

[٧٤] Deism: الربوبيّة. تعبير صاغته الحركة الفلسفيّة ويطبّق على فكرتين مرتبطتين: أ) الدين يجب أن يكون منطقيًّا وأن يقود مناصريه إلى السلوك الأخلاقيّ الأرفع. ب) معرفة العالم الطبيعيّ والعالم البشريّ لا علاقة لها على الإطلاق بالدين، ويجب مقاربتها بعيدًا تمامًا عن أيّة أفكار دينيّة أو معتقدات. الربوبيّة هي الإيمان بالدين الطبيعيّ فقط، أو بتلك الحقائق، في المعتقد والممارسة، التي يجب أن يكتشفها الإنسان على ضوء العقل ـ بمعزل عن أيّ كشف من الله. من هنا تفترض الربوبيّة وجود كفر أو عدم إيمان بالمنشأ الإلهيّ للكتاب المقدّس. إنّها نموذج العقلانيّة اللاهوتيّة التي تؤمن بالله على أساس العقل ومن دون عودة إلى الكشف الإلهيّ.

[٧٥] Acosmism: هي على عكس الحلوليّة، تنفي واقعيّة الكون، إذ تعتبر أنّه وهميّ أساسًا، وأنّ المطلق اللامحدود غير الظاهر وحده (أي الله) هو حقيقيّ.

[٧٦] Pantheism الحلوليّة. هي العقيدة التي تقول بأنّ هذا العالم المادّيّ غير مختلف عن الله وأنّ «كلّ شيء هو الله، والله هو كلّ شيء».

[٧٧] Cosmism: الكونيّة. مرادفة للمادّيّة: هي العقيدة التي تقول بأنّ شيئًا لا وجود له سوى المادّة وتحرّكاتها وتحوّلاتها.

هو غير مطلق. وهكذا لا يكون الله مستقلاً ولا حرًّا، بل هو كائن محدود مشابه للعالم. وبما أنّ كلّ الأشياء المشابهة للعالم عاجزة عن أن تكون الله، فالله تاليًا ليس الله لأنّ العالم يشبهه وهو يشبه العالم.

وإذ تدرك «الربوبيّة» أنّ هذه المغالطة تتأتّى من إبعاد الله بشكل مجحف، وتبتغي حمايته من الفناء، فإنّها تبدّل مبدأها وتحوّله. إنّها تعتبر العالم وجودًا خياليًّا بينما تسبغ على الله وحده كيانًا حقيقيًّا. بهذه النظريّة الجديدة تنجح «الربوبيّة» في حفظ الله من الفناء عبر التمييز بين طريقة وجود هذين الكائنَين المستقلَّين، ولكنّها تواجه معضلة جديدة. فالله، بحسب هذه الفرضيّة، هو الكائن، بينما العالم هو لاكائن. ولكنّ وجود العالم الثابت ينفي هذه الفكرة ويدحضها. فلو كان العالم مجرّد كينونة خياليّة لا حقيقيّة، لكان عندنا الله وحده من دون العالم، ولكان الله في اكتفاء ذاتيّ كامل، ولكان الله كلّ شيء، ولكان هو الوجود بأسره، ولكان لدينا نوع من «الحلوليّة» (Pantheism) ليس في شكل «الكونيّة» (Cosmism)، بل بشكل «ضدّ الكونيّة» (Acosmism). ومع ذلك فإنّ هذه النظريّة تصطدم أيضًا مع حقيقة العالم المثبَتة التي تبرهنت بالخبرة. ومهما صقلت «الربوبيّة» نظريّتها، فإنّها ستبقى إلى الأبد عاجزة عن إقناع الناس بأنّهم يعيشون حياة وهميّة، غير واقعيّة، في عالم وهميّ.

وفي محاولة لتجنّب هذا المأزق، تنحرف «الربوبيّة» مجدّدًا إلى ضلال آخر: «السلطة الثنائيّة»، لأنّ الواقع يُكرهها على أن تقبل بعالم واقعيّ، ولكنّه عالم مكتفٍ بذاته مستقلّ عن الله، ومخلوق بذاته. ولكن هناك أيضًا تعجز «الربوبيّة» عن إيجاد الراحة لأنّ شوكة أخرى تنخسها نحو الأمام. إنّها نتيجة غير ملائمة يجب تعديلها. فالمبدآن معًا:

الله والعالم، عاجزان عن أن يكونا مطلقَين لأنّهما كلاهما حصريّان. وما من شيء محصور مطلق. ولكنّ العقل يتطلّب أن يكون مفهوم الله أنّه كائن يحوي في ذاته كلّ كمال في كلّ الحالات. وتضع هذه المعضلة «الربوبيّة» في موقف حرج للغاية: فهي إن أنكرت واقعيّة العالم تقع في «الحلوليّة» التي هي «ضدّ الكونيّة». وإن أنكرت الله أصبحت مجبرة على إعطاء كلّ الصفات الإلهيّة للعالم بهدف حلّ مجموعة التناقضات والمسائل المعروضة أعلاه، فتقع في «الكونيّة الكلّيّة» (Pancosmism)، أي الإلحاد والمادّيّة. وهكذا تُلزم هذه المشكلة «الربوبيّة» على أن تعود إلى ذاتها وتبدأ دورانها من جديد، كما تدور الكواكب في أفلاكها.

من هنا فإنّ نظريّة «الربوبيّة» مغلوطة. والله على اتّصال بالعالم. وتاليًا فإنّه يكشف نفسه للإنسان بشكل مباشر وغير مباشر، عبر الوحي والعجائب. وليس ما يضير في اعتماد هذا الأمر.

ولكن تعالوا لنقبل للحظة بأنّ الله، بحسب النظام الربوبيّ، خلق العالم ولكنّه تخلّى عنه بعد ذلك ليلقى مصيره. هذه الفرضيّة تثير فينا هذا الفضول: هل خلق الله عالمًا مثاليًّا تمامًا لا يحتاج إليه، أم أنّه خلق العالم بشكل مغاير؟ حين نسلّم بوجود عالم مثاليّ تمامًا، فمن الضروريّ أن نعتبره مساويًا لله، لأنّ الله هو وحده مثاليّ. وإن كان العالم، من ناحية أخرى، ينقصه كمال الله، فمن الضروريّ أن يكون متغيّرًا، أي بحاجة إلى العناية الإلهيّة. وهكذا فعلينا أن نسلّم بأمر من اثنين: إمّا بعالم مساوٍ لله أو بعالم متغيّر. والمؤسف أنّ أنصار «الربوبيّة» لا ينزعجون من مثل هذه الأفكار، بل يبقون غير مقتنعين. وما زالوا يملكون شيئًا يقولونه للدفاع عن مبادئهم.

هم يدّعون أنّ «الله قد خلق عالمًا متغيّرًا وغير كامل، إلاّ أنّه منحه

قدرة التطوّر والتكاثر والكمال والتغذية الذاتيّة والإعالة الذاتيّة. هذا يعني أنّ الله لا يهتمّ للعالم ولا العالم يحتاج إلى عناية الله بعد الآن. كما أنّ النظريّة القائلة بأنّ الله يعيل الخليقة ويهتمّ لها، هي إهانة غير لائقة بشكل خاصّ بذكاء الله، الذي خلق كلّ الأشياء بحكمة. وضع لخليقته قوانين أبديّة حتّى تتمكّن من الاستمرار والتعاظم والتطوّر والمحافظة على نفسها».

جيّد. ولكن هنا تظهر مسألتان:

١) هل توقّفت الخليقة المتغيِّرة عن أن تكون عرضة للفساد؟ هل جعلتها قدراتها التي تخوِّلها المحافظة على نفسها بنفسها، غيرَ قابلة للفساد إلى الأبد، فمكّنتها من الوجود إلى ما لا نهاية؟

٢) جعلتنا لا مبالاة الله تجاه العالم نحذف من الله، بوقاحة، إحدى صفاته التي هي العدالة، والتي بها يحمي الله نفسه من أن نخلط بينه وبين الخليقة.

بخصوص المسألة الأولى: من المستحيل لشيء متغيِّر ألّا يكون أيضًا عرضة للفساد. فما هو عرضة للفساد قد يمتلك قوّة للتعاظم والبقاء والتكاثر والكمال، ولكن ليس إلى الأبد. وحده الله سرمديّ. ما هو عرضة للفساد هو غير قادر على الاستمرار إلى الأبد لأنّه يصبح عندئذ إلهيًّا. وما هو متغيِّر، على مثال شيء قابل للانحلال، يمكن أن يعاني الفساد حتّى وهو يؤدّي وظيفته المحدّدة. مَن يُثبت لنا أنّ الأمر المتغيِّر سوف يستمرّ في الوجود والعمل بثبات إلى ما لا نهاية؟ ربّما يردّ أتباع «الربوبيّة» على هذا بالقول: «حكمة الله». ولكن عندها يجب أن تُعتبَر حكمة الله على أنّها القدرة الخلّاقة التي تعضد كلّ الأشياء. ما يعني أنّ العالم موجود لأنّ إرادة الله وحكمته تحفظانه. ولكن قوانين

«الربوبيّة» تعتبر أنّ العناصر التي تحكم العالم ليست أبديّة بالطبيعة، بل جُعِلت لها هذه الوظيفة. ليست طبيعتها هي التي تعضدها إلى الأبد، بل مشيئة الله. من هنا فإنّ قوانين الخليقة الأبديّة الحقيقيّة هي حكمة الله وإرادته، فهما اللتان توجِّهان العالم وتجعلانه يستمرّ. فقوانين الطبيعة هي أدوات خدمة تنفّذ مشيئة الله. وسوف تستمرّ ما دام الله يعتبر وظيفتها ضروريّة. وتاليًا فإنّ العالمٍ خاضع لمشيئة الله وهو موجود فقط لأنّ الله يرغب بوجوده. لذا فباطلاً تستحضر «الربوبيّة» قوانين أبديّة وباطلاً تحاول أن تنفي العلاقة القائمة بين الله والعالمٍ، لأنّ الأمور ستعترض إلى الأبد على هذه النظريّة، وستدين الحقيقة الكِذبة.

دعونا الآن نتفحّص الاستفهام الثاني. لنرَ كيف توفِّق «الربوبيّة» فكرتها عن الله مع لامبالاته المزعومة، وكيف يوفَّق اكتفاء العالم الذاتيّ مع المطلق الإلهيّ.

لا يمكننا أن نفهم المتناقضات التي تربط بينها «الربوبيّة» بهذه السهولة. إذ لا يمكننا أن نفهم إلهًا لامباليًا وعالمًا مطلقًا (ما يعني إلهًا غير كامل وعالمًا كاملاً). ولا يمكننا أن نقبل بأن يكون كلاهما كاملاً لأنّ أحدهما يحول دون وجود الآخر.

لا يمكننا أن نفهم إلهًا لامباليًا. وبما أنّ اللامبالاة عيب في حين أنّ مفهوم الله يستلزم الكمال، فلا يمكننا أن نفهم إلهًا يعاني نقائص. اللامبالاة نقص لأنّها تصوِّر الله كمحبّ لذاته، محدود في حبّ الذات ويجد راحته في سعادته الخاصّة. لا يمكننا أن نفهمه ككائن غير كامل، وهي الحال إنّ كان الاهتمام بالخليقة يمكن أن يُحدث تغييرًا ما في سعادة الله. كما لا يمكننا أن نفهمه كانفعاليّ على الطريقة البشريّة؛

ولكان الأمر على هذه الصورة لو أنّه خلق العالم لكي يختبر حكمته وقدرته الكلّيّة، ثمّ تخلّى كلّيًّا عن خليقته بعد أن اختبر فضائله وحقّق رغبته. وهكذا فإنّ «الربوبيّة» التي تسلّم بإله كهذا تضلّ كثيرًا. فالإله الانفعاليّ على طريقة البشر ليس بإله.

ولا يمكننا بالمثل أن نفهم عالمًا مطلقًا مكتفيًا بذاته وإلهًا كاملاً في الوقت عينه. فإنّ مطلقَين في آن يعجزان عن التعايش. إذًا علينا إمّا أن نسلّم بأنّ العالم ناقص وبحاجة إلى عناية الله، وإمّا أن الله أدنى من العالم، وهكذا نفهم أنّ أحدهما مطلق: الله أو العالم.

فإن سلّمنا، وفقًا «للربوبيّة»، بعالم ناقص، عندها يجب علينا أن نسلّم بأنّ الله هو معيله. إذ ليس من العدل أن يتخلّى الله عن الخليقة، ونحن عاجزون عن أن نفهم إلهًا غير عادل. فالظلم ينتقص من الله إحدى فضائله الإلهيّة (أي العدالة) التي عبرها يحفظ الله نفسه، إذا جاز التعبير، من أن نخلطه بالعالم. العدالة تحفظ الحدود والاختلافات. فإن حذفنا من الله العدالة، نخلط بينه وبين الخليقة، وننكر شخصيّته. يفترض مفهوم وجود الله إعطاءه صفة العدالة. ولكن حين نقرّ بتحلّي الله بصفة العدالة يُدحض رأي «الربوبيّة» بخصوص لامبالاة الله. لذا فعلى أنصار «الربوبيّة» القبول بأحد أمرين: إمّا أنّ الله يقيم علاقة مع العالم، وإمّا أنّ العالم كامل. ولكنّ القبول بكونٍ كامل يقود إلى استنتاجات أخرى غير ملائمة من نوع: أنّ الكون لا يتغيّر، وأنّه أبديّ، وغير قابل للفساد، وأنّه تاليًا مساوٍ لله. وأمّا فكرة كمال الخليقة بشكل مطلق (التي عبرها وحدها يمكن القبول بالرأي القائل إنّ الله تخلّى تمامًا عن العالم) فتقود إلى فكرة خليقة غير متغيّرة وبدورها، إلى فكرة الله. وبحسب ذلك، يكون الله خلق العالم كإله ثانٍ بهدف أن يأخذ

مكانه، تمامًا كما أنّ زفس حلّ محلّ خرونوس الذي أصبح عتيقًا حين ولد الإله زفس. فإنّ وجود إلهين في آن غير مسموح بحسب مفهوم الألوهة. من هنا مهما كان الشكل الذي تستعمله «الربوبيّة» لتعرض معتقداتها، فإنّها مغلوطة وخالية من كلّ شرعيّة وحقيقة.

الفصل الثالث
خيريّة الله تعلنه للعالم

إنّ استعلان الله هو نتيجة لخيريّته، ويشهد بتألّق بالنيابة عنه. كما أنّ خيريّة الله تمنحنا سبب الاستعلان وسبب الخليقةً معًا. فالخليقة هي عمل حكمةٍ عظيمة وقوّةٍ انبجست من يدي خالقٍ كلّيّ المعرفة وكلّيّ القدرة. العمل يشهد بأنّ الحرفيّ لا يحتاج إلى شيءٍ، في حين أنّ عالمه يصدح بغنى المنعِم عليه. فالخليقة هي نتاجُ واسع الثراء، وبهذا تشهد بكنوز الله. وإذ لم يكن هناك أيّ سبب يُلزم الله على خلق العالم، فالعالم إذًا ليس نتاج ضرورةٍ بل بالحريّ نتاج خيريّة الله الخاصّة. نقلٍ الله صلاحه الوافر للخليقة ليجسِّد غناه ويجعل كائنات أخرى مشاركةً في صلاحه الخاصّ ونعيمه. وهكذا يكون سبب وجود العالم هو خيريّة الله.

والسؤال الذي يبرز هو التالي: بما أنّ العالم هو نتاجُ صلاح الله، فهل يمكن أن يكون الله قد تخلّى عنِ العالم؟ بالطبع لا! فمثلَ هذا التخلّي يمكن أن ينسب إلى الله ضعفًا بشريًّا ويفترض أحد الأمور التالية:

١) الله خلق العالم بهدف التسلية، وبعد أن تسلّى لبعض الوقت من سأمه، تعب من العالم. وبما أنّه خلقه من دون أيّ هدف على الإطلاق، فقد تخلّى عنه لمصيره.

٢) العناية بالعالم والاهتمام به شكّلا عبئًا على الله.

٣) الله استاء من خليقته فتخلّى عنها.

ولكن أيًّا من الأمور السابق ذكرها لا يمكن قولها عن الله. إذ إنّ حكمة الله، إلى جانب فكرة الله بشكل عامّ، تستبعدان كلّ الأمور المشابهة. وبما أنّ الله كلّيّ المعرفة، كما ثبت، فإنّ كلّ ما خلقه، قد خلقه بحكمة. كلّ ما يرغب به الله له سبب وليس من دون غاية. وتاليًا رغب الله بخلق العالم لسبب وهدف ما. وبما أنّ التسلية لا يمكن أن تُعتَبر هدفًا للخليقة لأنّها تتعارض وحكمة الله وصلاحه، ينتج من ذلك أنّ خلق العالم هو ذو هدف عظيم.

ثمّ يبرز سؤال آخر: هل يجوز أن تتخلّى حكمة الله عن عمل الخلق قبل أن تنجزه؟ هل يجوز أن يترك الله المخطّط الذي رسمه دونما إنجاز؟ بالطبع لا. ألعلّ أحدًا يمكنه أن يقول بأنّ الخليقة حقّقت هدفها؟ بالطبع لا. في مثل هذه الحال ليس من سبب يدعم استمرار وجودها أكثر من ذلك. وإذ لا يجوز أن نوافق على أنّ أعمال الله تفتقر إلى الهدف، ولا يجوز أن نتصوّر أنّ الله قادر على التخلّي عن الهدف الذي خلق العالم من أجله، وبما أنّ هدف العالم لم يتحقّق بعد، وبما أنّ التخلّي عن العالم مرتبط بدماره، وبما أنّ العالم موجود، فيتأتّى عن ذلك أنّ الله على علاقة بخليقته، وأنّه معيلها، وأنّه يوجّهها نحو نهاية هادفة ومدروسة.

هذا الاهتمام الذي يوليه الله للخليقة لا يمكن في أيّ حال من الأحوال أن يحطّ من قدر الفكرة السامية الخاصّة بحكمة الله. ونحن لا نعتبر ذلك ضعفًا بشريًّا، كما يحدّده روح «الربوبيّة»، لأنّ عناية الله بالعالم لا تشبه هموم الإنسان المحمومة التي لا تُعَدّ، بل تحمل مسحة إلهيّة تشابه الطاقة الخالقة. إنّ الخليقة، وكذلك عناية الله بها، تعبّران معًا وبشكل قاطع عن رغبة الله بوجودها المستمرّ. لذا، فعبثًا تحاول

«الربوبيّة» أن تنفي العلاقة بين الله والخليقة. إنّ هذه العلاقة موجودة للأسباب المذكورة أعلاه.

تكلّمنا حتّى الآن على علاقة الله بالعالم وعنايته به، وعلى عنايته بالخليقة ككلّ بشكل عامّ. أمّا الآن فسنشرع بتأكيد علاقة الله بالإنسان بشكل خاصّ.

الفصل الرابع
بخصوص علاقة الله المميزة بالإنسان

الله، لكونه الخالق، يحبّ خليقته. ولكنّه يكنّ محبّة مميّزة للإنسان الذي صنعه على صورته لكي يجعل منه مشاركًا لخيريّته ونعيمه. وإلى ذلك فقد تثبَّتت حقيقة الكتاب المقدّس هذه وتحقَّقت عبر دراسة تركيبة الإنسان الفيزيولوجيّة والمعنويّة. لأنّنا إذا تفحّصنا الإنسان في كلّيَّته، نجد أنّه، بفضل طبيعته العاقلة، ذلك الكائن المميَّز الذي فيه يعي العالمُ الطبيعيّ ذاته، وينال قدرة التوصّل إلى معرفة خالقه، وعبره يمكن أن يتواصل معه. بكلام آخر الإنسان هو، على الأرض، النقطة التي فيها تتلازم الروح مع المادّة. الإنسان هو الوسيط بين الله والعالم، أي، نوعًا ما، الرابط الذي يجمع العالم الروحيّ بالعالم المادّيّ. حبّ الله المميّز للإنسان يسبغ عليه بسعة منحة الكشف الإلهيّ. والإنسان يتقبّل بشكل خاصّ هذا الاعتلان لأنّه كائن يعي وجوده ويدرك وعيه الشخصيّ. فالإنسان، إذ هو كائن ذو وعي لذاته، يملك القدرة على البحث عن خالقه والسعي للشركة معه. وبما أنّ البحث يعبِّر عن لهفته لملء فراغ، ينتج من ذلك أنّ الإنسان منفتح على الاعتلان الإلهيّ، وأنّ الرغبة تنبع من تقبّله الاعتلان الإلهيّ، لذلك فالإنسان قادر على لقاء الله، تمامًا كما يلتقي المرء بشخص آخر.

الفصل الخامس
بخصوص الطريقة التي يتمّ بها الكشف الإلهيّ

يتمّ الاعتلان الإلهيّ للإنسان بطريقتين: غير مباشرة ومباشرة. أمّا بالطريقة غير المباشرة، فيظهر اعتلان الله عبر الخليقة ويتأكّد بالأعضاء الحسّيَّة. أمّا بالطريقة المباشرة، فيتمّ في داخل الإنسان ويُدرَك عبر انفعالاته. فالأولى تُدعى «عجائب»، في حين تصنَّف الثانية على أنّها «وحي» أو «وحي إلهيّ». فعبر العجائب يدفع الله الإنسانَ العاقل، بطريقة ما، باتّجاه إدراك كيانه الإلهيّ، ومعرفة إرادته، وعودته إليه لأنّ الكمال، الذي أُعِدَّ له الإنسان، لا يوجد إلاّ فيه. ويظهر الله لمختاريه عبر الإعلان الإلهيّ، ويتكلّم إليهم كما يتحاور المرء مع صديقه. ويتّضح عبر ما سبق أنّ العجائب هي شكل غير مكتمل لاعتلانٍ يعضد نقص الإنسان وضعفه، في حين أنّ الوحي الإلهيّ هو شكل أكثر كمالاً ينير الأبرار.

كلّ يوم ينادي الكون بأسره أنّ الله يكشف ذاته للعالم عبر خليقته. من الخليقة المتناهية الصغر إلى الخليقة الأضخم، كلّ الأشياء تصرّح بحكمة الخالق وقدرته وصلاحه وعدله. هذا الكشف يمكن اعتباره الشكلَ المعتاد الذي به يعتلن الله باستمرار للإنسان العاقل. وإلى هذا الشكل المعتاد، هناك شكل أقلّ شيوعًا يحدث عبر قوانين استثنائيّة حين يتطلّب ضعفُ الإنسان نجدةَ الله. ولكنّ ظهور مبادئ جديدة لا يُلغي المبادئ الموجودة، فهي لا تظهر بهدف الحلول محلّ القديمة، بل بالحريّ لمساعدة الخليقة المتألّمة وبطريقة ما، للتعاون مع

النظام السائد. قد تكون المبادئ الجديدة مدمِّرة فقط إن تصرَّفت بشكل يتعارض مع الخليقة، وليس كما تتصرّف بقيّة القوانين، من أجل حفظ هذه الخليقة وتطويرها وتقدّمها. وهكذا فالقوانين غير المألوفة لا تثبت أمرًا مغلوطًا ولا تصطدم بالمنطق.

بالإضافة إلى أنّ العجائب ليست حدثًا جديدًا، بل قديمًا، لأنّها نشأت مع بدء الخليقة. وبما أنّ الله يرى مسبقًا كلّ شيء على مرّ الزمن، فقد نظر كلّ الظروف غير الاعتياديّة، وعيَّن منذ ذلك الوقت العجائب كقوّة مقابِلة تبدو لنا على شكل قوانين جديدة. وُجدت هذه القوانين الجديدة منذ ذلك الحين، بهدف تحقيق مشيئة الله في الوقت المناسب، بحسب الطبيعة. من هنا فهي ليست انعكاسًا لمبادئ ولا شيئًا آخر يمكن «للربوبيّة» أن تستحضره بخيالها.

إلى جانب هاتين الطريقتين غير المباشرتين في الاعتلان، توجد طريقة ثالثة: تلك التي تحدث حين يقارب اللهُ أحدَهم. في هذا اللقاء يرى الإنسان اللهَ بالروح ويشعر بوجود الله فيه بحسب قول الربّ: *«أسكن فيهم وأسير بينهم»* (٢ كورنثوس ٦: ١٦). وتتمّ هذه المصادقة عبر فهم المشيئة الإلهيّة فهمًا صحيحًا وتطبيقها بالطريقة المناسبة. فمَن يفهم الله بشكل صحيح ويسعى إلى تحقيق إرادته بكلّ ما أوتي من قوّة، ينجح، بالعون الإلهيّ، في تحرير ذاته من الأمور الدونيّة والوضيعة، ويرفع نفسه إلى فلك أعلى، ويتصادق مع الله. وتتمّ هذه المصادقة حين يقترب الذهن البشريّ من الكلمة الإلهيّة ويتواصل معه. وفي أثناء هذه المشاركة الواعية تبلغ المعرفة والإدراك والرغبة ذروتها. وعبر هذه الذروة يرتفع الإنسان بدوره فوق الفلك، الذي لا يملك فيه سوى فكرة مجرَّدة عن الله ويبلغ، إذ لا يعود شيء بعد ذلك

يتوّسط بين الكائنَين، فلكًا آخر يلتقي فيه اللهَ نفسه مباشرة. إنّه يلتقي الكلمة الإلهيّة نفسه الذي يولد كلّ فكرة إلهيّة، والذي يملك القدرة على تجسيد هذه الأفكار، والذي يُحضر الكائنات إلى الوجود. وبهذه الطريقة يعيش الإنسان في شركة مباشرة وحقيقيّة مع الله ويسمع صوته. أسبغ الله بسعة على الطبيعة البشريّة هذه القدرة على مقاربته حتّى تكمل وتتقدّس عبر نفخته. وهذا يمكن وصفه على أنّه كشف داخليّ ومتواصل يتولّد داخل الإنسان.

لا يمكن لأحد أن ينكر هذا الكشف من دون أن ينكر أوّلاً طبيعة الإنسان الروحيّة، لأنّ الإنسان يحتلّ عبره مرتبة استثنائيّة في الكون، ويمكن بحقّ أن يُدعى ملك الأرض وذروة الخليقة. هذا هو الإنسان الذي حطّت «الربوبيّة» من قدره، لأنّها بإنكارها اعتلان الله المباشر للإنسان، تنكر هذا التقبُّل الذي يتحلّى به الإنسان. وتاليًا فهي تنكر أنّ الإنسان مخلوق من قبل الله، وتنكر طبيعة الإنسان الروحيّة، وتنكر الشركة الموجودة منذ البدء بين الله والإنسان، وتنكر سقطة الإنسان وغربته عن الله، وتنكر أخيرًا كلّ مبدأ بشريّ سام ونبيل، لأنّنا إذا أذعنّا لشرٍّ واحد، فلسوف يتّبعه الآلاف غيره. يمكنُ لأيٍّ كان أن يلاحظ كم هي ملتوية عقيدة العقلانيّين والأيديولوجيّين. ونستنتج بفضل طبيعة الإنسان الروحيّة وتقبّله الكمال، أنّه ذو أصل رفيع ونبيل يرتقي إلى الخالق الإلهيّ. ونعترف بأنّ الإنسان خلقه الله وحصل منه على المقدرة الفريدة التي تخوّله التواصل معه، بهدف بلوغ الكمال.

لو لم يكن الإنسان خليقة الله لما كان قادرًا على السعي إلى الكمال وعلى أن يضحّي بنفسه من أجل هذا الكمال. فالأرض التي

ولدته من العناصر بالشكل الناقص، شكل كائن متناهي الصغر، كما يزعمون، تعجز عن أن توحي بهذا في داخل الإنسان. فكلّ رغبة مرتبطة بموضوع رغبة، وكلّ غرض مرغوب به له المعجَب المقابل. الإنسان يرغب بالله، ولذا فهو من الله. وبما أنّه موافِق فإنّ الله يحقّق رغبته. لا وجود لرغبة من دون موضوع رغبة لأنّ الرغبة تولد من وجود غرض مرغوب به يتعلّق به المعجَب. ولكنّ المادّة تفتقر إلى مثل هذه الميزات. ولذا فإنّ هذه الرغبة تنشأ من كائن موجود خارج المادّة. الإنسان يرغب بالله الذي يكمن فيه موضوع الرغبة. وبما أنّه لا يمكن للإنسان أن يرغب بكائن لم يعرفه، فينتج من ذلك أنّ الإنسان يعرف أنّ الله هو خالقه. ولهذا فهو يرغب بالله ويسعى إليه. عبر الله وحده يمكن للإنسان أن يبلغ الكمال.

الفصل السادس
طبيعة الإنسان الروحيّة تحتاج إلى كشف إلهيّ

اعتلان الله ضروريّ لأنّ الخطيئة ولّدت إظلامًا خاصًّا لقوى الروح ونسيانَ الإنسان هدفه السامي. وحتّى لو لم يعلّمنا الكتاب المقدّس هذا، فكان ينبغي أن يُستدلّ عليه من السقوط العموديّ الذي تعرّض له الجنس البشريّ. بالاعتلان يوجِّه الله الإنسان إلى درب الحقيقة ويرفعه من السقطة. ويفرض المنطق أنّ الإنسان بحاجة إلى مرشد روحيّ. فمن غير المنطقيّ أن نقبل بأنّ المادّة يمكن أن تكون قادرة على إرشاد الروح، لأنّ الروح تتطلّب مستشارًا روحيًّا لتتلقّى التوجيه وتتطوَّر. كما أنّ طبيعة الإنسان الروحيّة تتطلّب كشفًا إلهيًّا الذي بدونه يبقى الإنسان روحيًّا «محتمَلاً» فقط. إنّه يتطلّب اعتلانًا إلهيًّا لكي يصبح روحيًّا حيويًّا. وعلى ذلك فالاعتلان الإلهيّ ليس حدثًا فائق الطبيعة، بل هو بالحريّ الحدث الأكثر طبيعيّة. إنّه مرتبط بالتطوّر الروحيّ للإنسان وتقدّمه، رغم أنّنا لا نلاحظه لكونه غير قابل للإدراك بحواسّنا. ولكنّ انعدام قابليّة الإدراك هذا لا يمكن أن يُستخدم كحجّة دامغة لإنكار الاعتلان، لأنّ الروح لا تخضع لحواسّنا، ومع ذلك فهي موجودة.

كلّ أمم الأرض وشعوبها اعترفت بحاجتها إلى الإرشاد. وهذا القبول وحده كافٍ ليشهد على الأقل بقناعة الناس المشتركة. لو لم يعلن الله عن نفسه للعالم، فإنّي أشكّ كثيرًا في أنّ الإنسان كان ليستطيع أن يتخيَّل حتّى مفهوم الله. والذي ينكرون الآن اعتلان الله

ما كان ليمكنهم أن يعرفوا شيئًا عنه لو لم يتلقّنوا ذلك بالاعتلان. وإن كان الناس الآن يفخرون بمعرفة الله، الذي ينكرونه، فإنّهم يدينون بذلك إلى الاعتلان. فنحن، من دون الاعتلان: ١) نجهل الأمور التي تتجاوز الحواسّ و٢) ونعجز عن أن نصبح روحيّين. فإنّ معرفة الله والتنشئة الروحيّة كليهما مردّهما اعتلان الله الأوّليّ. ولذا فإنّ الله يعلن عن ذاته بالضرورة.

ويضلّ كلّ الضلال مَن يظنّون أنّ الإنسان قد طوَّر، من تلقاء نفسه، فكرة الله من الخليقة، مرتقيًا إلى هذا المفهوم عبر خطوات متدرّجة (كما على سلّم يوجد على قمّته الفهم الحقيقيّ لله وتكمن على قاعدته عبادة بدائيّة للخليقة، من حيث ابتدأ الإنسان ارتقاءه إلى الذروة). إذ لا يمكن للعبادة، وهي حجّ روحيّ، أن تنطلق في مسيرتها مدفوعة من قِبل المادّة، لأنّه يجب أن تتلقّى الدفع من مصدر روحيّ. ويعجز الإنسان عن تصوّر فكرة كائن فائق الطبيعة إن كان يعيش في حالة روحيّة محتمَلة، لأنّ الطبيعة المادّيّة تسيطر في داخله. وبما أنّ الروح تدفعها روح أخرى، كما برهنّا (وكما تشهد على ذلك الخبرة وأمثلة الحيوانات التي درّبها الإنسان)، ينجم عن ذلك أنّ الإنسان توصَّل إلى عبادة الله عبر الاعتلان. ولم يتسلّق الإنسان إلى أعلى نقطة من أدنى درجة، بل سقط، على العكس، من القمّة إلى أدنى مستوى، الذي هو بقيّة بائسة للعبادة الحقيقيّة.

كانت السقطة نتيجة لرغبة الإنسان التي ضلَّت. فاستُبدلت رغبة الإنسان، التي سعت على الدوام إلى كلّ ما هو صالح ومثاليّ ومرضيّ لله، بحرّيّة معنويّة خياليّة قَبِلها مخدوعًا على أنّها حرّيّة أخلاقيّة حقيقيّة.

وتؤكّد سقطة الإنسان ضرورة: ١)الوحدة بين إرادتنا وإرادة الله التي فيها حرّيّتنا الأخلاقيّة الحقيقيّة، و٢)الشركة المستديمة مع الله لأنّ كلّ الأمور الصالحة تتولّد من الإرادة الإلهيّة. فالانحراف عن إرادة الله هو سقوط عموديّ وشرّ. خُلق الإنسان ليمارس الفضيلة. خُلق ليتعاون مع الله، ليتواصل معه، وليعيش فيه. وهكذا استطاع الإنسان منذ البدء أن يعرف ويعبد الإله الحقيقيّ وحده الذي أراد أن يكشف نفسه للإنسان ويخلّصه. فمن دون الله يسقط الإنسان في الجحيم؛ ومع الله يرتقي إلى السماوات. السقطة تشهد على رفض إرادة الله وتغرّب الإنسان عن إله الحقّ. كما يشهد بقاء الإنسان في السقطة لآلاف السنين، على الحاجة إلى التدخّل الإلهيّ والاعتلان. فمن دون الاعتلان الإلهيّ يعجز الإنسان الساقط عن عبادة الإله الحقيقيّ. والعبادة المستمدَّة من معرفة الله معرفةً طبيعيّة فقط، هي عبادة إله وهميّ وليست عبادة إله معروف. كما أنّ عبادة إله مجهول هي عبادة العقل وليست عبادة القلب. إنّها عبادة من دون حبّ، من دون شركة مع الإلهيّ وارتقاءٍ للذهن باتّجاه فكرة كائن أعظم. ولكنّ ارتقاء الذهن هذا ليس عبادة الله. فالعبادة من دون حبّ ليست عبادة، بل فلسفة خالق. والكلام على الله شيءٌ وعبادة الله شيءٌ آخر. فالمرء الذي يعبد الله يتواصل معه ويصبح بذلك كاملاً ويتقدّس. والذي لم يتوصّل إلى معرفة الله لم يعبده أيضًا. والذي لم يعبد الله لم يصبح كاملاً أو قدّيسًا أو مشاركًا في الإلهيّ. من دون الاعتلان يعجز الإنسان عن بلوغ معرفة الإله الحقيقيّ، وعن أن يصبح كاملاً في حبّ الله. كان الاعتلان الإلهيّ ضروريًّا جدًّا من أجل خلاص الإنسان. كشف الله ذاته، فتوصّل الإنسان، بالمقابل، إلى معرفة الله، وعَبَده، وصار كاملاً في محبّته.

الفصل السابع
بخصوص اعتلان الله للعالم عبر الكتاب المقدّس

دُوِّن اعتلان الله للعالم في الكتاب المقدّس، كحدث تاريخيّ. واعتلان الله التاريخيّ للعالم هو موضوع النصوص المقدّسة في العهدَين القديم والجديد، إذ تملأ صفحات الكتاب المقدّس من بدئه إلى نهايته أحداثٌ كالظهور الإلهيّ والاعتلان والوحي والنبوءة والعجائب وكلّ أنواع الأحداث المنسوبة إلى القدرة الإلهيّة. والذي ينكر اعتلان الله للعالم ينبغي أن يرفض أوّلاً الكتاب المقدّس على أنّه غير موثوق، ثمّ يشكّ في صدقيّته التاريخيّة التي أيّدتها أربعون قرنًا. وعند ذلك فقط يستطيع أحدهم أن يبدي رأيًا مضادًا لاعتلان الله للعالم. ولكن مَن هو الذي، لكونه يمتلك معرفة دقيقة بتاريخ الكتابِ المقدّس، والطريقةِ التي بها كُتب وحُفظ، والعنايةِ والاجتهاد اللذَين بهما انتقل من جيل إلى جيل، والاحترام والإجلال اللذَين يحملهما الناس له (هؤلاء الناس الذين حفظوا الكتاب المقدّس على الدوام مثل كنز مقدّس)، يقدر على أن يبدي رأيًا يتعرّض، ولو قليلاً جدًّا، لدقّة الأحداث المدوَّنة بين طيّات الكتاب المقدّس؟

قِدم الكتاب المقدّس وصدقيّته لا يقبلان الجدل. ولا وُجد يومًا كتاب آخر يحمل برهانًا أعظم على قِدمه وأصالته مثل الكتاب المقدّس، ولا حُفِظ كتاب غيره بمثل هذا الإجلال والاهتمام. فقد حَفظ اليهود على الدوام العهدَ القديم الذي يزخر بالنبوءات، بإجلال ودقّة شديدة. فقد كان الكتاب المقدّس مجموعة المخطوطات المقدّسة

الخاصّة بناموسهم السياسيّ والدينيّ التي دُوِّنت فيها مسلكيّاتهم ونظام عبادتهم. ومنذ العصور الغابرة الأكثر قِدمًا، كانت هذه الذكرى الوحيدة من تاريخهم على مدى قرون عديدة متتالية، وفيها تكمن النبوءات التي تسبق فتخبر عن مستقبلهم وما ينتظرهم.

كان الكتاب المقدّس، وما يزال، الرواية المحبوبة التي تُليت في الهيكل خلال كلّ الخدم الدينيّة والطقوس، كما في كلّ يوم أحد، وأُلزِم كلّ يهوديّ بدراسته. وفسَّره العديد من الشرّاح ووضعوا له الحواشي بتدقيق فائق. لم يحصوا فقط عدد فصوله وفقراته، بل حتّى كلماته وحروفه. وكان على نسخ الكتاب المقدّس ومخطوطاته أن تخضع لتصديق المجمع، ولم يكن يُسمح لأيٍّ من هذه النصوص أن تحلّ محلّ مخطوطات أقدم من دون موافقة اللجنة المراقِبة المسؤولة عن أسفار الكتاب المقدّس. وتثبت الترجمة «السبعينيّة» الإجلال العظيم الذي كانت تكنّه الأمّة اليهوديّة لهذا الكتاب القدسيّ. ويشهد المترجمون الاثنان والسبعون الأجلّاء الذين أتقنوا جميعهم اللغتين إتقانًا ممتازًا حتّى يترجموا بدقّة نصّ هذا الكتاب، على الإجلال الأقصى الذي كان اليهود يكنّونه لمحتواه، وعلى اهتمامهم العظيم بنقل كلّ الحقائق المتضمَّنة فيه نقلاً مضبوطًا من لغة إلى أخرى[٧٨]. حصل ذلك كيلا تتعرَّض الحقيقة المعلَنة للتحريف بطريقة ما، ولكي ينسكب الروح الذي يهبّ بين طيّات الكتاب المقدّس ويهبّ داخل الترجمة على السواء. وبفضل هذه الدقّة، أضحت الترجمة السبعينيّة كتابًا معترفًا به

---

[٧٨] كانت ترجمة العهد القديم هذه إلى اللغة اليونانيّة عمل العناية الإلهيّة من دون شكّ. فقد جعلت من ناحية أولى كلمةَ الله والنبوءات المتعلّقة بالمسيّا في متناول الأمم، قبل حضور المسيح. ومن ناحية ثانية، حدث خلال دمار أورشليم السنة ٧٠ م. أن فُقدت نسخ العهد القديم العبريّة ومخطوطاته، فصارت هذه الترجمة السبعينيّة، الملهَمة من الله، المصدرَ الموثوق للعهد القديم واستشهد بها كتَّاب العهد الجديد وآباء الكنيسة الأوائل على السواء.

واستُعملت في مجامع اليهود اليونانيّين التي يؤمّها أشخاص لا يعرفون سوى اليونانيّة.

الحقيقة التاريخيّة للأحداث المدوَّنة في العهد القديم مثبتة في الحقائق الدينيّة المقابِلة المدوَّنة في داخله. ولا يبدو أنّ هذه هي وليدة فكر بشريّ واسع المعرفة، أو أفكار ذهن أرضيّ راقٍ، بل بالحريّ عمل الله الكلّيّ القدرة: الذي يوحي ويمنح الحكمة ويرقّي الذهنٍ البشريّ، والذي يكشف الحقائق المعجزة ليُفقّه الإنسان ويجعله كاملاً. فالإنسان عاجز عن أن يرقى بنفسه إلى العلو السامي الذي دُعي له، من دون العون والتدخّل الإلهيَّين. كما أنّ الطابع المعجز الذي يميّز هذه الأحداث المذكورة أعلاه وهي الأحداث الأكثر أهمّيّة وفرادة في تاريخ العالم، يجب أن يحفّز المفكّرين العظماء على السعي إلى اكتشاف سبب وجودهم بدل الشكّ فيها. إذ إنّ رفض هذه الأحداث وإنكارها لا يرضي الروح بالقدر الكافي لأنّه ليس استنتاج دراسةٍ وحقيقة علميَّتين بل هو إعلان الـ«أنا» البشريّ المتغطرس الذي لا يرتكز سوى على المبدأ التالي: «أسقِط كلّ ما هو غير محسوس وغير مفهوم».

ولكنّ العلم هو ما يقنع العقل والحقيقة هي ما يسرّه. فالاستدلالات العلميّة هي الحقيقة. والحقيقة وحدها تُقنع وتُرضي. إنّي أسأل الذين ينكرون الحقائق الفائقة الطبيعة لأنّهم لا يفهمونها ولا يدركونها: هل يعتبرون أنفسهم راضين؟ بالطبع لا! والسبب: ١) أنّ شكًّا بسيطًا بخصوص احتمال هذه الحقيقة الفائقة الطبيعة يبقى مخفيًّا داخل ذواتهم. و٢) أنّهم أجبِروا عقلهم على قبول مهما قدَّمه له الـ«أنا» رغم أنّه لم يقنعه. فالقوّة تُخضع، ولكنّها لا تُرضي العقل. لذا فالرفض غير العلميّ لهذه الحقائق الفائقة الطبيعة هو غير مناسب،

وغير منطقيّ، ومتسرّع. وعلى العلم أن يبرهن أنّه ليس هناك من اعتلان صادر عن الله للعالم، وأنّ الأحداث المنسوبة للاعتلان هي حصيلة القوانين الطبيعيّة، وأنّ جهل قدرة القوانين الطبيعيّة وقواها وحده يمكن أن يؤدّي إلى القبول بالاعتلان الإلهيّ، والوحي المسّاريّ والاستيقاظ وظهور الإله. ولكن العلم عجز عن إثبات أيّ من ذلك.

نجح العلم في اكتشاف قوانين الطبيعة التي يحصل عبرها أمر ما، وهو قادر على تدريس الطريقة التي بها يظهر أمر ما، ولكنّه عاجز عن إنكار أحداث تاريخيّة على أساس أنّ هذه الأحداث لم تحصل بحسب قوانين الطبيعة المعروفة. كما يعجز العلم عن إنكار الصدقيّة التاريخيّة التي يتحلّى بها الكتاب المقدّس بفضل السمات المعجزة للأحداث المرويّة فيه. ليس الفائق الطبيعة سببًا لرفض التاريخ. وليس العلم قادرًا على أخذ الأحكام المسبقة وعلى الإدانة، بل يجدر به بالحريّ أن يتحرّى ويتفحّص. إن كانت الأمور المكتوبة أساطير ومن نتاج الكتّاب، فعلى العلم أن يبرهن ذلك ويرفض الأحداث؛ ولكن، إن هو حسم أنّها مدعومة تاريخيًّا، فيجدر به أن يعترف بضعفه ويعطي الأحداث طابعها الحقيقيّ، حتّى ولو كان عاجزًا عن تفسير طبيعتها.

بشكل عامّ، وحتّى الآن، لم يفلح العلم، الذي باسمه يرفض مناصرو المادّيّة اعتلان الله للعالم، بإبطال صدقيّة الكتاب المقدّس التاريخيّة. فقد حفظ التاريخ الأحداث المتضمَّنة في الكتاب المقدّس مثل جدار لا يُتلف. فكيف إذًا يتمّ رفضه من دون أن يُفحص ويُدحض؟ وهل هُزم يا تُرى بسبب هذا النبذ؟ وهل تضاءلت أسبقيّته بسبب الإنكار المتعجرف؟ على العكس! إنّ شرعية الكتاب المقدّس أبديّة، على مثال الله الذي يُعتلن داخل طيّاته. والذين يسعون إلى تفسير الأحداث

الكتابيّة من طريق العلوم الطبيعيّة، ويسعون إلى حلّ الأسرار ذات الطابع الفائق الطبيعة عبر العلم، وفي الوقت عينه يغضّون الطرف عن كونها من خارج هذا العالم وعن كشفها، يعجزون عن إنكار الطابع الفائق الطبيعة للأحداث المدوَّنة في الكتاب المقدّس. فعلى سبيل المثال يمكن للكيمياء والفيزياء أن تكتشفا القوانين التي بحسبها يحدث أمر ما، وأن تَشْرحا الطريقة التي بها يتمّ البرق والرعد والمطر والبرَد، ولكنّهما تعجزان عن إنكار أنّ كلّ هذه الظواهر يمكن أن تحدث أيضًا بالإرادة الإلهيّة.

جاء في سِفر الخروج أنّ الله سلَّم موسى لوحَيْ الشريعة على جبل سيناء (راجع خروج ١٩: ١٦-١٩). ربّما تكون هذه العناصر عملت بحسب قوانين الطبيعة المعروفة. ولكن هل ينتج من ذلك أنّ هذه العناصر لم تخدم الإرادة الإلهيّة أيضًا؟ فالبرق يلمع ويلتهم كلّ الأشياء التي يقع عليها. ولكن، ألم يخدم أيضًا الإرادة الإلهيّة حين كان يسقط على أولئك الذين يقتربون من الجبل ويضربهم (خروج ١٩: ١٢)؟ انفتحت الأرض تحت أقدام داثان وأبيرام. وربّما يمكننا أن نعثر على سبب ذلك في قوانين الفيزياء، ولكن ألم يخدم ذلك الإرادة الإلهيّة حين انفتحت الأرض في الوقت المناسب وابتلعت العاقَّين الآثمَين اللذين حرمهما موسى (راجع عدد ١٦: ٣١-٣٣)؟ ما هو الأمر الأكثر طبيعيّة من أن تنبع الماء من صخرة؟ ولكن هل يمكننا أن ننكر أنّ وجود صخرة في وسط الصحراء تدفّقت منها أنهار ماء مانحةً المياه المنقذة للشعب الظامئ المرتحِل، هو أمر فائق الطبيعة (خروج ١٧: ٥-٦)؟ كلّ يوم تغطّي الغيوم الشمس، ولكن أليست معجزة أن تمتدّ غمامة فوق كامل مخيّم الأمّة اليهوديّة مدّة أربعين عامًا حتّى لا تفتك بهم أشعّة

الشمس الحارقة (خروج ١٣: ٢١-٢٢)؟ قد يكون عمود النار الذي كان يتقدَّم الشعب أمرًا خارجًا عن المألوف، ولكنّه أضحى أداة للإرادة الإلهيّة (راجع خروج ١٣: ٢١-٢٢). تُنتج الشجرة أوراقًا بشكل طبيعيّ، ولكن في ظلّ ظروف معيّنة. وأمّا عصا هرون فقد أزهرت من دون أن تكون في ظلّ هذه الظروف: أزهرت حتّى وهي مجرّد عود جافّ، بخلاف قوانين الطبيعة (راجع عدد ١٧: ٨). فماذا يقول الذين يحلّون معضلات الكتاب المقدّس بالعلوم الطبيعيّة، عن هذه العصا؟ لقد أوقف نهر الأردن سيره وعاد إلى الوراء أمام التابوت وجفّ مساره (راجع يشوع ٣: ١٤-١٧). والبحر الأحمر انقسم إلى قسمين حين ضربه موسى بعصاه. وعلى أثر ضربة العصا وقفت المياه وعادت إلى الوراء كالجدار من كلّ جانب حتّى تجتاز في وسطها الأمّة اليهوديّة المطارَدة (راجع خروج ١٤: ٢١-٢٢). فما هي الأسباب الطبيعيّة التي حدثت؟ وهل نُجبَر، لأجل هذا، على اعتبار هذه الأمور المدوَّنة في الكتاب المقدس، من الأساطير، والمؤلّفين القدّيسين، مخترعي أساطير؟ ولكن ما حال الأمّة، وعددها يزيد على ثلاثة ملايين نسمة كانوا شهودًا عيانًا، التي تحتجّ على هذه الإهانة التي تطال الكتاب المقدّس، هذه الأمّة التي سارت وسط نهر الأردن وعبرت البحر الأحمر بأقدام غير مبتلَّة؟ هل ستؤخذ في الاعتبار أم تُهمَل؟ لو كان الكاتب هو الشخص الوحيد الذي عاين الأحداث المدوّنة لكان إنكار الإيمان مسوغًا. ولكن حين تشهد أمّة كاملة على المعجزة، وحين يدوِّن الكاتب تاريخ هذه الأمّة (التي يسلِّمها الكتاب منذ البدء لتدقّق به)، وحين يتفحّصه الشعب ويوافق عليه، وحين يُقرأ ويُحفظ بإجلال، فكيف يمكننا أن نردّ على ذلك؟ لا شكّ في أنّ التغاضي عن مثل هذه الجمهرة من الشهود العيان سيكون سخافة

وظلمًا لم يُسمع به من قبل. تُرى، هل تفرح هذه الأمّة بخداع نفسها طوال عشرين قرنًا قبل ولادة المسيح، في حين أنّ أحدًا غيرها لا يعير ديانتها اهتمامًا؟ أضف إلى ذلك عشرين قرنًا أخرى حتّى اليوم، عندما تكون أسباب ذلك الخداع قد تلاشت، لو أنّها وُجدت يومًا؟ فماذا يمكن أن يكون سبب ذلك الخداع الذاتيّ؟

وأمّا نحن، فنشكّ إلى أبعد الحدود في إمكانيّة وجود مثل هذا الخداع الذاتيّ. إذ لا يمكن أن ترتضي أمّة كاملة بتحميل قادتها مثل هذا العبء. بل لكان ارتفع صوت احتجاج أو اعتراض ضدّ التزوير، ولعَرَضَ مؤرِّخ ما الاحتجاج الذي صدر والحقيقةَ المتعلّقة بهذه القضيّة. لهذه الأسباب فإنّ اعتلان الله للعالم، كما يظهر في الكتاب المقدّس، هو حدث لا يقبل الجدل، وفوق كلّ شكّ. ولسوف يكتشف العلم دائمًا قوانين الطبيعة التي بحسبها وُجِّهت الأمورُ الحيّة، والخليقة بشكل عامّ، لتأتي إلى الوجود وتستمرّ. ولكنّ العلم لن يجد يومًا الجواب على هذه الأحداث الاستثنائيّة ما لم يقرّ بوجود خالق للخليقة، وربٍّ للسماء والأرض، ومعيل للعالم وصائن له.

ويسعى العقلانيّون، والعلوم الطبيعيّة، إلى اكتشاف أصل الكائنات. ويتعجلّون لاكتساب المعرفة حول بدء الحياة وأوّل قبس حيويّ. وقد تتكلّل محاولاتهم بالنجاح. ولكن هل تتمكّن يومًا نتائج دراساتهم من أن تنكر وجود حاجات الروح الفائقة الطبيعة والروحيّة؟ على الإطلاق! لا تجرّ عربةُ معرفةِ أصلِ الحياة الأمورَ الفائقة الطبيعة. ولسوف يذيع أصلُ الحياة على الدوام حكمةَ الخالق وكونه فائق الطبيعة، وقدرته الكلّيّة. فالحياة هي حركة المادّة الجامدةِ في حين أنّ الروح هي قولبة المادّة وتكوّنها. وسوف يكتشف العلماء كيف

تتحرّك الأشياء الجامدة، ولكنّهم سيجهلون إلى الأبد سبب قولبة كلّ الأشياء وتكوّنها، والرابط السرّيّ الذي يجمعها بخالقها. سوف يغفلون عن الروح الدائمة الوجود، والتي ستبقى متعلّقة بالله إلى الأبد. وطالما أنّ الذين ينكرون الاعتلان الإلهيّ لا يقدّمون سببًا كافيًا يرضي الروح، وطالما أنّهم لا يقدّمون تفسيرًا واضحًا وإثباتًا لكلّ الأحداث المذكورة في الكتاب المقدّس، فإنّهم لا يتبرّرون بإنكار حقيقته ورفض صحّته لكونهم يقومون بذلك بسبب «أناهم» ووقاحتهم أكثر ممّا يسوقون استنتاجات مرتكزة على دراسة علميّة ودلائل.

فالذين يعترضون على أمانة الأنبياء، يفعلون ذلك بشكل اعتباطيّ ومخالف للمنطق. لأنّهم ينطلقون من مبدأ، حدَّدوه على أنه عقيدة لا يمكن انتهاكها، أنّ الأنبياء لم يتبلّغوا شيئًا من طريق الكشف. بل إنّ كلّ ما قالوه أو كتبوه كان بالحريّ مجرّد روايات لأحداث حصلت خلال الأيّام التي عاشوا فيها، وتلفيقاتٍ من مخيّلتهم. وأنّ كلّ ما أنبأوا به لم يكن نتيجة معرفة سابقة أو وحي إلهيّ، بل بالحريّ مجرّد شعور مسبق مرتكز على بعض الوقائع، وحصيلة الأوضاع الراهنة. ولكن هذا الرأي مستنكر لأنّه مغلوط ومخالف للمنطق. إنّه نتاج عقل مظلم وفكرٍ ميّال إلى الشكّ بالاعتلانات الإلهيّة، لأنّ الأنبياء أخبروا مسبقًا بأمورٍ مستقبلة لا بفضل الخبرة ولا بإحساس مسبق عاديّ؛ تكلّموا وتنبّأوا محرَّكين بالروح القدس. كانوا أدوات الإرادة الإلهيّة ومفسّريها، وكان الروح القدس يتجاوز أذهانهم. كان ينير ويقوّي ويكشف لعيونهم الذهنيّة الأحداثَ المستقبلة والأمور المخفيّة داخل أعماق القرون.

تاريخ الأمّة اليهوديّة هو شهادة حيّة للكتاب المقدّس الموحَى

به إلهيًّا وعلاقةِ الله بالعالم ـ وخصوصًا بالإنسان، ذروةِ روائع الخليقة الذي خُلق على صورة الله. إضافة إلى أنّ الأمّة اليهوديّة وتاريخها بدءًا بزمن جدّها إبراهيم وحتّى القرن الأخير (على مدى ٣٩ قرنًا كاملاً) هما معجزة متواصلة. وإن اقتصرنا على قراءة النبوءات التي تتوجَّه إلى الأمة اليهوديّة، نبوءات الأزمنة القديمة، أزمنة أبّهتها ومجدها، وأزمنة عبادتها وطقوسها المتنوّعة، وأزمنة ثرائها وازدهارها، إلى جانب الأزمنة الأكثر حداثة، أزمنة عارها وخزيها وجحودها وبليَّتها، فلسوف نقرّ بأنّ روح الله كان يتنبّأ ويخبر مسبقًا بما سوف يحدث في المستقبل. لأنّه يستحيل على الفكر البشريّ أن يرى مسبقًا ويتنبّأ بأمور مكتومة عن مَلَكاته الإدراكيّة في باطن أعماق القرون. فللذهن البشريّ حدوده التي يعجز عن اختراقها. ويعجز حتّى المثقّفون عن إنكار هذه الحقيقة. فالذي خطّ للمحيط حدودًا، وضع أيضًا قيودًا للذهن البشريّ. فالذهن البشريّ عاجز عن تبيان ورواية ما قد يرشح مستقبلاً، وليس فقط ما قد يتمّ بعد قرون عدّة، بل حتّى بعد سنوات قليلة. في حين أنّ النبوءات المدوّنة في الكتاب المقدّس واضحة وشفّافة للغاية وتحقّقت بشكل دقيق ومفصَّل للغاية؛ كما أنّ الأحداث التي حصلت هي من البداهة بحيث إنّ مَن يقرأ الكتاب المقدّس والتاريخ اليهوديّ يعجز عن إنكار الحقيقة، ولسوف يعترف بأنّ النبوءات الكتابيّة تحقّقت بالكامل وبأنّ النص المقدّس للعهد القديم، هو تاريخ مكتوب مسبقًا: تاريخٌ كتبه الوحي الإلهيّ.

ويستطيع الحكماء والمطّلِعون من الناس، بالخبرة واستنادًا إلى بعض الوقائع، أن يروا مسبقًا ويتنبّأوا بأمر ما سوف يحدث في المستقبل، ولكن يستحيل أن يكون هذا المستقبل بعيدًا جدًّا عن

زمان حياتهم. ولكنّ الأنبياء عاشوا قبل تحقّق نبوءاتهم بقرون عديدة. فكيف حصل أن تمّت النبوءات حرفيًّا رغم أنّها تخبر بأحداث يعود مضمونها إلى أزمنة بعيدة جدًّا؟ كيف استطاع الإنسان المائت أن يرى هذه الأمور قبل أن تحدث؟ كيف استطاع الإنسان المحدود أن ينفذ إلى أعماق القرون في قعر المستقبل البعيد المغطّى بغلاف المجهول، الذي فيه تتداخل آلافُ المتغيِّرات بين التقدير والاكتمال؟ من أين نشأ إيمان الأنبياء الدينيّ الذي به تنبّأوا؟ من أين انبثقت النبوءة الدقيقة عن أحداث بعيدة ومصادفات طبيعيّة؟ كيف تحقّقت النبوءات وتطابقت معها كلّ الأحداث؟ من أين حدّة الإدراك والبصيرة والوضوح والوصف وكشف الدراما انسجامًا مع النبوءات؟ ليست كلّ هذه الأمور بالطبع من عمل فكر راقٍ لأنّ الأحداث منفصلة بعضها عن البعض الآخر ولا تتّبع المسار المرسوم لها من قبل الفكر. إنّ تحقّق الأحداث انسجامًا مع النبوءات هو عمل قدرة تعرف المستقبل كما تعرف الحاضر وتوجّه الأحداث باتّجاه اكتمالها. لو لم تكن تلك القدرة موجودة، ولو لم تكن تلك القدرة هي التي تتنبّأ، لما تطابقت نبوءات فكر بشريّ واحد مع النتائج.

حقيقة النبوءات مثبّتة في التاريخ المقدّس والتاريخ السياسيّ على السواء، وقد دُوِّن فيهما تحقّقها حرفيًّا، كما سوف نبرهن. والذين لا يقبلون الاعتلان الإلهيّ وينكرون نشاط الله في العالم وإدارته إيّاه، ينكرون أيضًا علاقة الله بالعالم، الأمر الذي يفضي بهم إمّا إلى إيمان بارد بإلهٍ من نوع ما، أو بنظريةٍ حلوليّة ما. طبعًا لن يؤمن مثل هؤلاء يومًا بالعجائب ولن يعترفوا باعتلان الله للعالم. والصحيح أيضًا أنّهم لن يفهموا البتّة الأحداث العجائبيّة المدوَّنة في الكتاب المقدّس، ولن

يكتشفوا يومًا روح الإعلان المسيطر على امتداد هذا الكتاب المقدّس برمّته.

ويبدو بحسب النظريّات التي ترفض الإيمان والعجائب، أنّ رفض استعلان الله للعالم ناتجٌ من أنّ لهؤلاء الأشخاص إيمانًا بالله مختلفًا عن إيماننا. وليس مظهر العجائب الاستثنائيّ هو ما يزعجهم إلى حدّ بعيد بقدر ما هي فكرة اعتلان الله للعالم وطبيعة الإنسان الروحيّة. ومع ذلك، ورغم معارضة العقلانيّين، فالنبوءات هي معجزة متواصلة تشهد بعلاقة الله بالإنسان وبعنايته الإلهيّة بسعادة الإنسان الحقيقيّة، كما أنّها تحتجّ ضدّ رأي مناوئيها الملحد، وذلك بأنّ الدليل الذي يثبت طابع النبوءات الفائقَ الطبيعة واضحٌ ومفهوم مثل أيّ غرض مرئيّ وملموس في العالم.

فالنبوءات تجتمع لتؤلّف معًا موضوعًا واحدًا نهايته الهادفة هي مجيء المخلّص إلى العالم.

ورغم أنّ العهد القديم مؤلّف من أسفار كثيرة كتبها أشخاص متعدّدون فصلتهم عن بعضهم البعض أزمنةٌ بعيدة، فعلينا أن ننظر إليه كعمل واحد ينقل، من دون تغيير، الأفكارَ ذاتها منذ البدء وحتّى النهاية (من موسى إلى ملاخي)، فيه وُصِف بدقّة، وبشكل متواصل، حدثٌ عظيم واحد: مجيء المخلّص. كما تعلن النبوءات ذاتها أن هدف مجيء المخلص هو التألّم عن خطيئة الجنس البشريّ من أجل تقويم الانحراف المزريّ الذي أصاب الإنسان.

كما أنّ النبوءات السابق ذكرها، المتعلّقة بشخص المخلّص، هي من الوضوح لدرجة أنّ حدثًا واحدًا في حياته لا يبقى مخفيًّا، بل إنّ كامل حياة المخلّص على الأرض موصوفة بتفاصيل هائلة الدقّة.

فالجيل، والقبيلة، والبيت، والعائلة، والأقارب، والشخص الذي منه سوف يولد المخلِّص، كلّ ذلك مرسوم بدقّة. إضافة إلى أنّ زمن ظهور المخلِّص محدَّد، والمكان الذي سوف يولد ويترعرع فيه معيَّنٌ بجلاء. كما أنّ الطابع، والأعمال، والحياة، والتعليم، والآلام، والموت، ونوع الميتة، والدفن، والقيامة، والصعود إلى السماء، وبالإضافة إلى كلّ ذلك، ظروف أخرى عديدة، هي مذكورة بدقّة وموصوفة بشكل حيّ.

وإلى كلّ ذلك فما يلفتنا أنّ رفض المخلِّص من قِبل الأمّة التي استلمت هذه النبوءات كإرثٍ لها، مؤكدٌ عليه بصراحة، كما أنّ دعوة الوثنيّين في مكانها. أفيعقل أن ننسب هذه النبوءات إلى فكر مضلِّل؟ وهل كان ممكنًا أن يبقى ذلك التضليل الغريب غير ملحوظ طوال هذه القرون العديدة؟ ولكن، علاوة على كلّ ذلك، مَن كان ليقتنع يومًا بأنّ مثل هذا الحدث المعجِز، المتعذّر فهمه حتّى بعد كشفه، يمكن أن يتصوَّره العقل أو يتخيّله الفكر البشريّ؟ ألعلّ الصدفة وحدها هي التي جمعت هذه الخصائص، خصائص المخلِّص المعلَن عنه مسبقًا، في شخص يسوع المسيح؟ ألعلّ اكتمال هذه النبوءات العديدة والمتنوّعة، وتحقّقها، هو مجرّد صدفة أو مطابقة؟ وتحقُّق هذا العدد من الأحداث الكتابيّة والرموز؟ وانكشاف التدبير الكامل للناموس الذي لم يوجد تجسيده الحقيقيّ سوى في يسوع المسيح؟ لا! وألف لا! فإنّ تضافر مصادفات بهذا العدد والأهمّيّة كان ليبدو أكثر استرعاءً للانتباه من الرؤيا الإلهيّة المعلَن عنها في الكتاب المقدّس. وإنّه لمن الأسهل لأحدهم أن يسلِّم بوجود إله كلّيَّ المعرفة والقدرة، يوجِّه الأحداث نحو نتيجة ونهاية هادفتَين ومنطقيّتَين، قد أتمّ مشيئته، أكثر من التسليم بتزامنٍ لا هدف له جمع هذا العدد الكبير من المصادفات.

فالمنطق السليم يجبرنا على التسليم بالطبيعة الفائقة الطبيعة لما هو مستحيل من الناحية المادّيّة، وعلى الاعتراف بأنّ رجال الله القدّيسين تكلّموا محرَّكين بالروح الإلهيّ. كما يجبرنا على التسليم بأنّ الروح القدس قد تكلّم بأفواههم، وأنّ الله، لكونه يعتني بالكون بأسره بشكل عامّ، ولكن بالأخصّ بالإنسان، قد ابتغى، وتاليًا أتمّ تدبير تجسُّد الإله-الإنسان يسوع المسيح الذي أعلنت عنه كلّ النبوءات المتعلّقة بشخصه.

كما تقتضي النبوءات ضرورةَ التسليم بالوحي الإلهيّ، هذه النبوءات التي تتكلّم ضدّ الأمم التي كانت تحوط بأرض إسرائيل، إلى جانب أمم كثيرة أخرى، وتحقّقت كلّها حرفيًّا، حتّى في أدقّ تفاصيلها. فالمعرفة المسبقة بأحداث مستقبليّة وأفعال بعيدة، ومتأتيّات القوانين الطبيعيّة التي وضعها الله بمقدرته الخاصّة، وتحقُّق ما سبق ذكره، واكتمال أحداث وفقًا للنبوءات، كلّ ذلك ليس سوى دلالة واضحة أشدّ الوضوح على أصلها الإلهيّ. تنبّأ الأنبياء بالوضع السائد في شؤون بلدان ذلك الزمان وأممه، ووصفوها بحسب وضعها القائم. كما أنّ النبوءات التي تكلّمت ضدّ الأدوميّين واليهود والأشوريّين والمصريّين والعرب والبابليّين بخصوص أدوم وأورشليم واليهوديّة وأشور ومصر وصور وصيدا ونينوى وبابل، وبلدان آسيويّة غيرها، لهي دليل قاطع وشهادة لا تقبل الجدل تؤكّد الوحي الإلهيّ. ويشهد الكتاب المقدّس وفقًا لذلك: «*لأنّه لم تأتِ نبوءة قط بمشيئة إنسان بل تكلّم أناس الله القدّيسون مسوقين من الروح القدس*» (٢بطرس ١: ٢١). وتقول آية كتابيّة أخرى: «*كلّ الكتاب موحى به من الله*» (٢تيموثاوس ٣: ١٦). ولا شكّ في أن نبوءات كثيرة ما زالت غامضة،

وذلك من ناحية بسبب جهلنا ومن ناحية أخرى لأنّها لم تتحقّق بعد. ومع ذلك فالنبوءات التي تتعلّق بيسوع المسيح، وبالأمم والبلدان المذكورة أعلاه، هي موجزة للغاية وواضحة إلى درجة أنّها قد شهدت اكتمالها حتّى الكلمة الأخيرة.

يقول نيكولاس أوغسطس: «إنّ نبوءاتنا هي من النوع بحيث إنّها تحوي الدليل الأكثر سطوعًا على ألوهيّة المسيحيّة، وهي المعجزة الأكثر غرابة التي ظهرت يومًا للفكر البشريّ. إنّها منظّمة بتدبير غنيّ لدرجة يمكننا معها القول إنّه لو كانت الأدلّة المسيحيّة الأخرى كافّة تُقصي كلّ سبب لعدم الإيمان، فإنّ هذا الدليل وحده يلغي كلّ الحجج»[٧٩].

ويقول فرايشينوس ببلاغة: تخبر النبوءات مسبقًا بأحداث مستقبليّة قبل تحقّقها بقرون عديدة. وليس لهذا الأمر من تفسير

---

[٧٩] نبوءات العهد القديم قادرة على إقناع كلّ الذين إمّا يرفضون ألوهيّة المسيح أو يشكّون في أنّ تركيبة الكتاب المقدّس موحى بها من الله. بدون شكّ! والمناقشة التالية التي يذكرها الكاتب آ. كوك في أحد كتبه، تظهر جيّدًا هذا الأمر. ففي خضمّ حوار مع مجموعة من الشبّان حول مسألة «هل المسيح هو مسيّا؟» يقول كوك إنّه بسبب رفض هؤلاء الشبّان كون الكتاب المقدّس موحَى به من الله، ذكّرهم مرّات عديدة بالنبوءات الواردة في العهد القديم والمتعلّقة بالمسيّا والتي تحقّقت بالكلّيّة في شخص يسوع المسيح. فأجاب أحدهم وكان ذكيًّا، بعد أن أدرك أهمّيّة هذه الحجّة، بأنّ يسوع المسيح، إذ قرّر تأسيس ديانته، دبّر أفعاله وفقًا للنبوءات التي قيلت عن المسيّا، لذا فلا أهمّيّة لتحقّق هذه النبوءات. فقال كوك: وعندها سألتُ محاوري الشاب أن يفسّر لي كيف تدبّر المسيح ولادته في البلدة ذاتها بالضبط التي يكتب عنها النبيّ ميخا، وفي العائلة نفسها بالذات، وفي الزمن عينه الذي وصفه الكتاب المقدّس. فأجاب الشاب: بما أنّ يسوع المسيح قد اتّفق له أن وُلد بالصدفة في البلدة والعائلة وخلال الزمن المدوّن في الكتاب المقدّس، فقد قرّر أيضًا أن يحقّق باقي النبوءات، وتاليًا أن يطالب بلقب المسيّا. فقلت، ولو كان الأمر كذلك أيضًا، فكيف تدبّر المسيح أن يُصلب بين لصّين (أشعياء ٥٣: ١٢)، وكيف تدبّر أمره حتّى يخونه يهوّذا لقاء مبلغ ثلاثين من الفضّة، وحتّى يشتري رؤساءُ الكهنة حقل الفخّاريّ بهذه الفضّة لكي تتحقّق النبوءات؟ وعلاوة على ذلك، كيف استطاع المسيح، مِن الصليب الذي كان معلّقًا عليه، أن يُقنع الجنود الرومانيّين بأن يقتسموا ثيابه بأن يقترعوا على لباسه، كما جاء في المزمور ٢١؟ ألعلّ الحربة التي ثقبت جنبه تآمرت مع يسوع حتّى تتحقّق النبوءة؟ فلم يجب الشاب...».

طبيعيّ؛ فهي تتعلّق بالكلّيّة بعناية الله المجّانيّة أكثر ممّا بمخلوقات ذكيّة. إنّها لا تعلن الأحداث من دون شكّ ولا تردّد وحسب، بل هي مفصَّلة بدقّة لدرجة أنّه يستحيل على المرء ألاّ يكتشف في ثناياها عمل الذي تضبط عينُه كلّ الأشياء. فإن اقتصرنا هنا على النبوءات المتعلّقة بمسيّا، فمَن غير الله كان قادرًا على أن يرى مسبقًا (قبل قرون عديدة) أنّ قادة من قبيلة يهوذا سوف يحكمون على التوالي حتّى يحضر انتظارُ الأمم؟ مَن غير الله كان قادرًا على أن يكشف لدانيال بمثل هذه الدقّة الحكومات الملكيّة الأربع العظمى المتتالية؟ (راجع دانيال ٢: ٣١-٣٥). فالفيلسوف بورفيريوس، إذ عجز عن إنكار قوّة هذه النبوءات بأيّة طريقة أخرى، افترض أنّها كُتبت بعد الوقائع. فمَن غير الله كان قادرًا على وصف الظروف المتنوّعة المحيطة بميلاد يسوع المسيح، وحياته، وموته، وتعليمه، قبل قرون عديدة، وبمثل هذا التفصيل، إلى جانب الثورة العظيمة التي سوف تُحدثها رسالته في العالم؟

قد يجادل أحدهم بالقول إنّ كلّ هذه النبوءات هي بوضوح نتاج حدّة ذهن طبيعيّة. ولكن ما هو السبب الطبيعيّ الذي قد يخوِّل أحدهم أن يرى، قبل قرون عديدة، أحداثًا هي رهن تضافر العديد من الأفعال الإراديّة وغير المنضبطة؟ وكما تعلّمنا الخبرة، فإنّه كما يستحيل على رجل في العالم المادّيّ، أن يحمل بيتًا على كتفيه، فبالطريقة عينها، يعلّمنا المنطق السليم أنّ مثل هذه التنبّؤات، في العالم المعنويّ، تتجاوز الفطنة الطبيعيّة لكلّ مخلوق يتحلّى بالمنطق. وقد يجادل أحدهم قائلاً إنّ التوافق الأمثل بين هذه التنبّؤات والأحداث الملائمة هو حصيلة صدفة محضة. قد يكون ذلك ممكنًا لو كنّا نتكلّم على نبوءتين أو ثلاث نبوءات عامّة ومنعزلة. ولكن مَن لا يرى مدى انعدام منطق هذا

الافتراض حين يكون الكلام على تنبّؤات عديدة تلفّظ بها أنبياء عدّة قبل قرون كثيرة، وهي تصف، بالتفاصيل المتناهية الدقّة، أحداثًا مستقبليّة غير مترابطة على الإطلاق؟ إنّ الذي يبتغي أن يرفع الصدفة إلى مثل هذه الدرجةٍ يشبه إنسانًا مجنونًا يؤكّد أنّ لوحات رافاييل وروبنس الرائعة قد أُنتجت برمي مجموعة ألوان على قطع القماش، مصادفةً وعشوائيًّا»[٨٠].

[80] Frayssinous, *Défense du Christianisme*, Discours sur les prophéties, 2, p. 482.

الفصل الثامن
نبوءات تناولت ازدهار اسرائيل ورخاءها

يوصي موسى، النبيّ العظيم ومعطي الشريعة (في الإصحاح ٢٨ من سِفر التثنية) اليهودَ بالمحافظة على الوصايا العشر كلّها وبتطبيقها، هذه الوصايا التي أعطاهم الله إيّاها من طريقه وأمرهم باتّباعها. ويبارك موسى الأمّة اليهوديّة ويضمن لهم بركات الله الوافرة ومجدهم وتوفيقهم إن هم حفظوا الوصايا الإلهيّة، ويلعن في الوقت عينه الأمّة ويتنبّأ بالكوارث التي ستحلّ بهم إن هم نبذوا الشريعة وتعدّوا وتمرّدوا.

«ولسوف يحدث، حين تعبر الأردنّ... إن أنت سمعت لصوت الربّ إلهك، حافظًا جميع وصاياه التي أنا آمرك بها اليوم، يجعلك الربّ إلهك فوق جميع أمم الأرض، وتحلّ عليك هذه البركات كلّها وتُدركك، لأنّك سمعتَ صوت الربّ إلهك» (تثنية ٢٨: ١-١٣).

تحقّقت هذه النبوءات مرّات عدّة. أوّلاً طوال حكم يشوع بن نون الذي خلف موسى، وبعدها خلال حقبة قضاة إسرائيل، وأخيرًا خلال حكم ملوك يهوّذا.

أمّا البركات فتحقّقت لأوّل مرّة خلال أيّام يشوع بن نون: *«ولم يزل الكهنة حاملو التابوت واقفين في وسط الأردن، إلى أن تمّ كلّ ما أمر به الربّ يشوعَ أن يقوله للشعب، على حسب كلّ ما أمر به موسى يشوع، وأسرع الشعب إلى العبور. فلمّا انتهى كلّ الشعب من العبور عَبَر تابوت الربّ والكهنة أمام الشعب»* (يشوع ٤: ١٠-١١).

والمثال الثاني هو نهب أريحا: «*فقال الربّ ليشوع: أنظر! إنّي قد أسلمتُ أريحا وملكها إلى يدك، وهم محاربون بواسل... ولـمّا كان اليوم السابع، بكّروا عند طلوع الفجر... في ذلك اليوم فقط طافوا حول المدينة سبع مرّات. فلمّا كانت المرّة السابعة، نفخ الكهنة في الأبواق... فهتف الشعب هتافًا شديدًا، فسقط السور في مكانه. فصعد الشعب إلى المدينة*» (يشوع ٦: ٢-٢٠).

والمثال الثالث هو دمار العيّ: «*وكان جُملة مَن سقط في ذلك اليوم، من رجل وامرأة اثني عشر ألفًا، جميع أهل العيّ*» (يشوع ٨: ٢٥-٢٦).

والمثال الرابع هو القضاء على ملوك الأموريّين الذين قطنوا في الجبال: «*وقال الربّ ليشوع لا تخف منهم، فإنّي قد أسلمتهم إلى يدك، فلا يقف أحد منهم في وجهك... فهزمهم الربّ أمام إسرائيل وضربهم ضربة شديدة في جبعون، وطاردهم في طريق عقبة بيت حورون، وفيما هم منهزمون... رماهم الربّ بحجارة ضخمة من السماء حتّى عزيقة فماتوا، وكان الذين ماتوا بحجارة البَرَد أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف*» (يشوع ١٠: ٨-١٢). وفي ذلك اليوم أيضًا جمدت الشمس في مكانها.

وهناك مثال آخر هو موت الملك يابين من حاصور والملك يوباب من مادون وأيضًا ملوك شمرون وأكشاف وكنروت ودوروحرمون ومسبات، وملوك الكنعانيّين والأموريّين والحثّيّين والفَرزيّين واليبوسيّين والحوّيّين: «*وخرجوا هم وملوكهم... في شعب كثير مثل الرمل الذي على شاطئ البحر كثرة، وخيل ومركبات كثيرة جدًّا... فقال الربّ ليشوع: لا تخف من وجوههم، فإنّي في مثل هذا الوقت*

من غدٍ أجعلهم جميعًا قتلى أمام إسرائيل. وعاد يشوع في ذلك الوقت فاستولى على حاصور وقتل ملكها بالسيف، لأنّ حاصور كانت قديمًا رأس جميع تلك الممالك. وضربوا كلّ نفس فيها بحدّ السيف محرِّمين إيّاهم، ولم تبقَ نسمة، وأحرق حاصور بالنار. واستولى يشوع على جميع مدن أولئك الملوك مع ملوكها، وضربهم بحدّ السيف، وحرَّمهم كما أمر موسى، عبد الربّ» (يشوع ١١: ١-١٢).

واحد وثلاثون هو عدد الملوك والممالك الذين أسلمهم الله إلى بني إسرائيل وقضى عليهم موسى وبنو إسرائيل وورثوا أرضهم. قهرهم الإسرائيليّون جميعًا بالقدرة القديرة، قدرة الله الذي كان معهم، تمامًا كما وعدهم موسى حين باركهم.

فقال يشوع: «لقد طرد الربّ من أمامكم أممًا عظيمة قويّة، ولم يثبت في وجوهكم أحد إلى هذا اليوم. الواحد منكم يطارد ألفًا، لأنّ الربّ إلهكم هو المحارِب عنكم كما قال لكم. فاحرصوا لأنفسكم جدًّا أن تحبّوا الربّ إلهكم. ولكن، إن ارتددّتم وتعلّقتم ببقيّة تلك الأمم التي بقيت معكم وصاهرتموها ودخلتم بينها ودخلت بينكم، فاعلموا أنّ الربّ إلهكم لا يعود يطرد تلك الأمم من وجهكم، بل تصير لكم شبكةً وفخًّا وسوطًا على جنوبكم وشوكًا في عيونكم، حتّى تزولوا عن هذه الأرض الطيّبة التي أعطاكم الربّ إلهكم إيّاها. وها أنذا اليوم ذاهب في طريق الأرض كلّها وأنتم تعلمون بجميع قلوبكم وجميع نفوسكم أنّ لم تسقط كلمة واحدة من جميع كلمات الخير التي قالها الربّ إلهكم في شأنكم، بل تمّت لكم كلّها ولم تسقط منها كلمة واحدة. فيكون، كما تمّت لكم كلمة الخير التي كلّمكم بها الربّ إلهكم، أنّه يجلب عليكم الربّ كلّ كلمة الشرّ، حتّى يبيدكم

عن الأرض الطّيبة التي أعطاكم الربّ إلهكم إيّاها إذا خالفتم عهد الربّ إلهكم والذي أمركم به فذهبتم وعبدتم آلهة أخرى وسجدتم لها» (يشوع ٢٣: ٩-١٦).

ويشهد يشوع بن نون في الفصل المذكور بأنّ كلمة واحدة لم تسقط من بين كلّ الوعود الطيّبة التي أعطاها الربّ لبني إسرائيل من طريق النبيّ موسى. ولكنّه يتنبّأ، بالطريقة ذاتها، بتحقّق الكلمات السيّئة بشكل دقيق أيضًا: *«كما تمّت لكم كلمة الخير التي كلّمكم بها الربّ إلهكم، إنّه يجلب عليكم الربّ كلّ كلمة الشرّ»* (يشوع ٢٣: ١٤-١٥).

الفصل التاسع
نبوءات تناولت خراب اليهوديّة وعدم إيمان اليهود

يجدر بنا أن نذكر أيضًا دمار اليهوديّة، كمثل آخر على الحقائق النبويّة، إذ يقول موسى: «وأترك أرضكم قفرًا» (لاويّين ٢٦: ٣٣).

ويعلن أشعياء: *«والآن لأعلمنَّكم ما أصنع بكرمي: أزيل سياجه فيصير مرعى وأهدم جداره فيصير مُداسًا وأجعله بورًا لا يُقضب ولا تُقلع أعشابه فيطلع فيه الحسكُ والشوك وأوصي الغيوم ألاّ تُمطر عليه مطرًا. لأنّ كرم ربّ القوّات هو بيت إسرائيل وأناسُ يهوذا هم غرس نعيمه وقد انتظر الحقَّ فإذا سفكُ الدماء، والبرَّ فإذا الصراخ»* (أشعياء ٥: ٥-٧). فإنّ كامل الإصحاح الخامس هو نبوءة تعلن أحداث الدمار.

ويتنبّأ أشعياء في إصحاحه السادس بهجر اليهوديّة وعدم إيمان اليهود: *«فقال اذهب وقل لهذا الشعب: اسمعوا سماعًا ولا تفهموا، وانظروا نظرًا ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه وأغمِض عينيه لئلاّ يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى. فقلت: إلى متى أيّها السّيد؟ فقال: إلى أن تصير المدن خرابًا بغير ساكن والبيوت بغير إنسان، والأرض خرابًا مقفرًا»* (أشعياء ٦: ٩-١١).

كما يقول حزقيال: *«فثلث منكِ يموتون بالطاعون ويفنون بالجوع في وسطكِ، وثلث يسقطون بالسيف من حولك، وثلث أذرّيهم لكلّ ريح، وأستلّ السيف وراءهم»* (حزقيال ٥: ١٢، وراجع أيضًا حزقيال ١٢: ١٦، و٧: ١٩).

فالأحداث ذاتها تشهد بصدقِ تحقّق هذه النبوءات وبشكل دقيق، ما يجعل أيّة شهادة بشريّة غير ضروريّة على الإطلاق. ومَن جهل أمر هجر كامل ذرّيّة إسرائيل، فليتعلّم من أصحاب المعرفة.

ويسخر أشعياء في إصحاحه الثالث والخمسين من عدم إيمان اليهود على هذا النحو: *«مَن الذي آمن بما سمع منّا ولِمَن كُشفت ذراع الربّ؟»* (أشعياء ٥٣: ١). ويعزو الرسول الإلهيّ يوحنّا الإنجيليّ (راجع يوحنّا ١٢: ٣٧-٤٠) وكذلك الرسول بولس (راجع رومية ١٠: ١٦-٢١) بصراحة هذه النبوءات إلى عدم إيمان اليهود في أيّامهما.

ويقول إرميا: *«طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا وأدركوا وفتّشوا في ساحاتها هل تجدون إنسانًا، هل يوجد مَن يعمل للحقّ ويطلب الأمانة، فأغفر لها، يقول الربّ... أيّها الربّ أليست عيناك على الأمانة؟ قد ضربتَهم فلم يشعروا، أفنيتهم فأبوا أن يقبلوا التأديب وصلّبوا وجوههم أكثر من الصخر وأبوا أن يتوبوا»* (إرميا ٥: ١-٣). وبعد أن يروي النبيّ الانهيار الأخلاقيّ المريع، يضيف في الآية الثالثة والعشرين: *«ولكن هذا الشعب له قلب عاصٍ متمرّد فابتعدوا ومضوا ولم يقولوا في قلوبهم: لنخشَ الربّ إلهنا»* (إرميا ٥: ٢٣-٢٤). ثمّ يتابع من جديد تأنيب الشعب على خطاياهم، وفسادهم الأخلاقيّ وعدم إيمانهم.

ولن يكفينا الوقت لكي نعرض كلّ النبوءات التي ذكرها الأنبياء عن دمار اليهوديّة وعدم إيمان اليهود. ولذا فإنّنا نقتصر على ما ذُكر أعلاه لأنّ فيه ما يكفي من الدلائل المناسبة.

الفصل العاشر
نبوءات تناولت قبيلة مسيّا وجيله ومكان ولادته

رغم أنّ رفاق ربّنا يسوع المسيح وأبناء وطنه لم يقبلوه، إلاّ أنّه بقي يرعاهم. وعلى هذا النحو نجد أنّ سلالة المخلِّص والمسيّا البشريّة، وكذلك زمن ظهوره، محدَّدان بدقّة في النبوءات. كما أنّ شخصيّة مسيّا الإلهيّة، وكذلك تجسّده، معلَن عنهما بوضوح في العهد القديم، في حين أنّ العهد الجديد يؤكّد أنّ الله، في النهاية، صار إنسانًا كاملاً.

فالنبوءة الأولى التي خرجت من فم الله، وتحقّقت في ما بعد في أوانها المحدّد، هي التالية: *«وقال الربّ للحيّة (الشيطان)... وأجعل عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهو يسحق رأسكِ وأنتِ تُصيبين عقبه...»* (تكوين ٣: ١٥-١٦). وعن تحقّق هذه النبوءة يذكر العهد الجديد أنّه: *«ولـمّا حان ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة»* (غلاطية ٤: ٤). وعلاوة على ذلك فالله يُعلِم الشيطان بتحطّم سيطرته الجبّارة وبآلام ابنه، بالقول: *«يسحق رأسكِ وأنتِ تُصيبين عقبه»* (تكوين ٣: ١٥). ويؤكّد العهد الجديد أنّ هذه النبوءة تحقّقت، إذ يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية: *«إنّ إله السلام سيسحق الشيطان وشيكا تحت أقدامكم»* (رومية ١٦: ٢٠).

وكثيرًا ما يتكرّر ذكر مجيء المخلِّص والفادي في المستقبل، وعمله وشخصيّته الإلهيّة. ويؤكّد الله لإبراهيم أنّ: *«بنسلك تتبارك جميع أمم الأرض»* (تكوين ٢٢: ١٨). ويوضح بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية هذا الوعد بالقول: *«ورأى الكتاب من قبل أنّ الله سيبرِّر*

الوثنيّين بالإيمان فبشّر إبراهيم من قبلُ قائلاً: تتبارك بك جميع الأمم. لذلك فالمبارَكون مع إبراهيم المؤمن إنّما هم أهل الإيمان» (غلاطية ٣: ٨-٩).

ويعِد يعقوبُ رئيس الآباء، وهو يبارك يهوّذا، بأنّ المخلِّص سوف يولد من قبيلته، فيقول: *«يهوذا، إخوتك يمدحونك... يسجد لك بنو أبيك. يهوّذا شبل أسدٍ من الافتراس صعدتَ يا بنيّ. جثم وربض كالأسد واللبوة فمَن ذا يُقيمه؟»* (تكوين ٤٩: ٨-٩).

ويتنبّأ أشعياء الجهير الصوت بأنّ مخلِّص العالم الذي سبق الإعلان عنه سوف يخرج من يهوّذا. ويحدّد بالإضافة إلى ذلك أنّ المخلِّص سيظهر من جذر يسّى، سليل يهوّذا: *«ويخرج غصن من جذع يسّى وينمي فرعٌ من أصوله ويحلّ عليه روحُ الربّ، روحُ الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة، روح المعرفة ومخافة الله»* (أشعياء ١١: ١-٤)؛ *«ويكون في ذلك اليوم أصل يسّى القائم رايةً للشعوب إيّاه تلتمس الأمم ويكون مكان راحته مجيدًا»* (أشعياء ١١: ١٠).

وإلى ذلك يتنبّأ النبيّ إرميا بأنّ المخلِّص سوف يبرز من نسل داود: *«ها إنّها تأتي أيّام، يقول الربّ، أقيم فيها لداود نبتًا بارًّا ويملك ملكٌ يتصرّف بفطنة ويُجري الحكم والبرّ في الأرض. في أيّامه يُخلَّص يهوّذا ويسكن إسرائيل في أمان. والاسم الذي سيُدعى به هو «الربّ برُّنا»* (إرميا ٢٣: ٥-٦).

ويتنبّأ أيضًا النبيّ ميخا بمكان ولادة المخلِّص، فيقول: *«وأنتِ يا بيت لحم، يا بيت إفراثا إنّك أصغر عشائر يهوذا ولكن منكِ يخرج لي مَن يكون متسلّطًا على إسرائيل وأصوله منذ القديم منذ أيّام الأزل»* (ميخا ٥: ٢ وراجع متّى ٢: ٦).

كما يسبق النبيّ أشعياء ويرى أنّ ابن الله سوف يولد (بالجسد) من نسل داود، فيقول: «*لأنّه قد وُلد لنا صبيٌ وأُعطي لنا ابن فصارت الرئاسة على كتفه ودُعي اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا جبّارًا، أبا الأبد، رئيس السلام، لنمو الرئاسة ولسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكته ليُقرّها ويوطّدها بالحقّ والبرّ من الآن وللأبد. غيرة ربّ القوّات تصنع هذا*» (أشعياء ٩: ٥-٦).

«*أنا، الربّ دعوتكَ في البرّ وأخذت بيدكَ وجبلتك وجعلتكَ عهدًا للشعب نورًا للأمم لكي تَفتح العيون العمياء وتُخرج الأسير من السجن والجالسين في الظلمة من بيت الحبس*» (أشعياء ٤٢: ٦-٧).

«*فلا يقضي بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه، بل يقضي للضعفاء بالبِرّ ويحكم لبائسي الأرض بالاستقامة ويضرب الأرض بقضيب فمه ويُميت الشرّير بنفس شفتيه ويكون البِرّ حزام حقويه والأمانة حزام خصره*» (أشعياء ١١: ٤-٥).

«*أميلوا آذانكم وهلمّوا إليّ، اسمعوا فتحيا نفوسكم فإنّي أعاهدكم عهدًا أبديًا على الخيرات التي وُعد بها داود هاءنذا جعلته للشعوب شاهدًا للشعوب قائدًا وآمرًا*» (أشعياء ٥٥: ٣-٤).

أمّا عن العهد الحديث الذي أقامه الفادي الآتي، فيتنبّأ إرميا بالتالي: «*ها إنّها تأتي أيّام، يقول الربّ، أقطع فيها مع بيت اسرائيل (وبيت يهوّذا) عهدًا جديدًا لا كالعهد الذي قطعته مع آبائهم، يوم أخذت بأيديهم لأُخرجهم من أرض مصر لأنّهم نقضوا عهدي مع أنّي كنتُ سيّدهم، يقول الربّ. لكن هذا العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيّام، يقول الربّ، هو أنّي أجعل شريعتي في*

بواطنهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا. ولا يُعلِّم بعدُ كلّ واحدٍ قريبه وكلّ واحد أخاه قائلاً: «اِعرِفْ الربّ» لأنّ جميعهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الربّ، لأنّني سأغفر إثمهم ولن أذكر خطيئتهم» (إرميا ٣١: ٣١-٣٤، وراجع عبرانيّين ٨: ٨-١٢).

إنّ الصبي الذي وُلد من جذر يسّى ونسل داود، المشير العجيب، ورسول الرأي العظيم، ورسول العهد الحديث، أبا الدهر الآتي، الله الكلّيّالقدرة، الذي سوف يسحق رأس الأفعى القديمة، والتنّين العظيم (راجع رؤية ١٢: ٨-٩)، هو ابن الإنسان، الذي أتى إلى العالم ليخلِّص البشريّة. كُتب إنّ هذا الإله الكلّيّ القدرة سوف يولد في بيت لحم، في بيت إفراثا. وسيظهر من هناك كقائد لإسرائيل ومدبِّر له، منذ دخوله وحتّى نهاية الدهر. وعليه وحده يكون رجاء الأمم.

الفصل الحادي عشر
تأمّلات في تعليم المسيح

«لماذا كنتما تطلبانني؟ ألَم تعلما أنّه ينبغي لي أن أكون في ما لأبي؟» (لوقا ٢: ٤٩). *«لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة!»* (يوحنّا ٢: ١٦).

هكذا يبدأ الكشف عن طبيعتي يسوع الإلهيّة والبشريّة المتّحدتين في شخصه بآن. ورغم أنّ هذا الكشف يهزّ العالم وينشأ عنه تحدٍ عظيم، فالإنجيل الإلهيّ ينبِّهنا إلى النبوءة التي قالها سمعان البارّ: *«ها إنّ هذا الطفل قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوَم»* (لوقا ٢: ٣٤).

يميِّز يسوع المسيح قدرة الشركة التي لا تتزعزع ولا مثيل لها، المؤسّسة على الفضيلتين الأهم أيّ: الإيمان والمحبّة. إنّه يختار تلاميذ مخلِصين ويُتّحِد ذاته بهم من طريق الصداقة المحبّة: *«ليس أنّكم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم»* (يوحنّا ١٥: ١٦)، معبِّرًا بذلك عن قدرته الأسمى.

إنّه يعلن محبّته واهتمامه بهم، ويرفعهم في الوقت عينه إلى المصفّ الذي يورثهم إيّاه: *«لا أعود أسمّيكم عبيدًا لأنّ العبد لا يعلم ما يعمل سيّده لأنّي أعلمتكم بكلّ ما سمعته من أبي»* (يوحنّا ١٥: ١٥).

إنّه يحدّثهم عن هدف مهمّتهم السامي وعن الوصيّة الجديدة، الفريدة من نوعها، التي يودعهم إيّاها: *«لأنّه قد أُعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات وأمّا لأولئك فلم يُعطَ»* (متّى ١٣: ١١).

هو يعاتب تلاميذه لحبّهم المجد الباطل حين لا يدركون المثال الذي

عليهم أن يتبعوه: «*لستما تعلمان ما تطلبان... أمّا كأسي فتشربانها وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان وأمّا الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلاّ للذين أُعِدّ لهم من قبل أبي*» (متّى ٢٠: ٢٢-٢٣).

هو لا يعدهم بمناصب ومراتب مرموقة، لأنّه سوف يمنحها للمستحقّين: «*أنتم تعلمون أنّ الذين يُحسَبون رؤساء الأمم يسودونهم وأنّ عظماءهم يتسلّطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم. بل مَن اراد أن يصير فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا ومَن أراد أن يصير فيكم أوّلاً يكون للجميع خادمًا*» (مرقس ١٠: ٤٢-٤٤).

إنّه يعلّمهم عن التواضع الذي يرفع، ويكشف لهم طبيعة مهمّتهم: «*إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريّين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنّه قد اقترب ملكوت السماوات*» (متّى ١٠: ٥-٧). وهكذا فإنّ الذي حصل على مواعيد الأمم بالحقّ والعدل هو يفتتح المهمّة الرسوليّة.

إنّه يعلّمهم مبدأً أخلاقيًّا وجذر فضائل كثيرة: «*مجّانًا أخذتم، مجّانًا أعطوا*» (متّى ١٠: ٨).

ويعلّمهم أساس عدم البخل: «*لا تقتنوا ذهبًا ولا فضّة ولا نحاسًا*» (متّى ١٠: ٩).

ويعلّمهم أنّ الدرجة العليا في الفقر الأمثل والمتعمّد هي فضيلة لا غنى عنها لاتّباع الطريق الروحيّة في الحياة: «*لا مزودًا للطريق ولا ثوبين*» (متّى ١٠: ١٠).

كما يرسم المسيح الخطوط العريضة للشخصيّة الموافِقة للرسول

والعامل بالإنجيل، فيعلن أنّ عليهم أن يكونوا ودعاء كخراف لا تفتح فاها أمام الذي يقصّ صوفها. عليهم أن يكونوا حذرين وودعاء، ألاّ يفكّروا بشرٍّ على الإطلاق، ومع ذلك عليهم أيضًا أن يكونوا حكماء وصادقين على الدوام: «*ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب. فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام*» (متّى ١٠: ١٦).

إنّه يعلّمهم ميزة التعليم الحقيقيّ: «*الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور*» (متّى ١٠: ٢٧).

ويعلّمهم الشجاعة المقرونة بالإيمان والرجاء: «*ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكنّ النفس لا يقدرون على أن يقتلوها*» (متّى ١٠: ٢٨).

إنّه يؤكّد التزامه لهم حين يعدهم بالقول: «*كلّ مَن يعترف بي قدّام الناس أعترف أنا به أيضًا قدّام أبي الذي في السموات*» (متّى ١٠: ٣٢).

هو يطلب من أتباعه الصدق ومحبّة الحقيقة اللذين من دونهما لا يكون لأحد مكان معه: «*ولكن مَن ينكرني قدّام الناس أنكره أنا أيضًا قدّام أبي الذي في السموات*» (متّى ١٠: ٣٣).

إنّه يعلن لهم مصيرهم في العالم وفي الوقت عينه يشدّدهم في عملهم الرسوليّ: «*لأنّهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم وتُساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم... وتكونون مُبغَضين من الجميع من أجل اسمي*» (متّى ١٠: ١٧-٢٢).

هو يكشف لهم كلّ ما كشفه للرسول بولس. ويُعْلمهم بالمكافأة الجزيلة التي سوف ينالونها مقابل التضحيات التي يقدّمونها من أجل اسمه: «*أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على*

كرسيّ مجده تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل. وكلّ مَن ترك بيوتًا أو إخوة أو أخواتٍ أو أبًا أو أمًّا أو امرأة أو أولادًا أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبديّة» (متّى ١٩: ٢٨-٢٩).

لا يتكلّم المسيح مثل الفرّيسيّين والكتبة، ولا حتّى مثل الفلاسفة، وليس تعليمه نظامًا فلسفيًّا ولا براغماتيّة ذاتيّة. إنّه لا يتكلّم مثل أفلاطون في الجامعة، أو أرسطو في المدرسة الثانويّة، أو مثل زينون في الكوخ. وما كان مستمعوه موعوظين في العقيدة الباطنيّة ولا في تعليم فلسفةٍ داخليّ ولا خارجيّ (وهو الخاصّ بالفرّيسيّين والكتبة). إنّه لا يناقش فلسفة داخليّة وعقائد غير مكتوبة. وليس هذا اجتماع فيتاغوراس مع تلاميذه الحاذقين للتحدّث حول المبادئ العلميّة السامية داخل متاهات الروح البشريّة. إنّه يتوجّه إلى الإنسان، إلى كلّ الشعب، وليس من سامع مستثنى. موضوعه هو الإنسان، والحياة البشريّة، وروح الإنسان، ومصير الإنسان، وحاضر الإنسان، وازدهار الإنسان الأقصى، وتصالح الإنسان مع الله الآب والخالق، واسترجاع الإنسان من تمرّد العصيان إلى الطاعة، وخلاص الإنسان، وملكوت الحقّ والصلاح، وملكوت الله.

«بهت الجموع من تعليمه لأنّه كان يعلّمهم كمَن له سلطان وليس كالكتبة» (متّى ٧: ٢٨-٢٩). *«حتّى بُهتوا وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوّات؟»* (متّى ١٣: ٥٤). *«وكان الجميع يشهدون له ويتعجّبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه»* (لوقا ٤: ٢٢). *«لم يتكلّم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!»* (يوحنّا ٧: ٤٦). فكيف كانت ستصدر مثل هذه الآراء عن المسيح لو لم يحتوِ تعليمه على شيء

فريد لا يُصادَف عند المعلِّمين المألوفين؟

كان الإيمان والرجاء والمحبّة الوصايا الجديدة التي علَّمها يسوع للجنس البشريّ. إنّها الفضائل المسيحيّة الأساسيّة التي كشفها الله للعالم! *«تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يفعل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلّم من نفسي. مَن يتكلّم من نفسه يطلب مجد نفسه وأمّا مَن يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق»* (يوحنّا ٧: ١٦-١٨). *«أنا لم آتِ من نفسي، بل الذي أرسلني هو حقّ الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأنّي منه وهو أرسلني»* (يوحنّا ٧: ٢٨-٢٩).

يسوع يعيد كلّ شيء إلى الله الذي لا يحدّده ولا يفسّره، بل بالحريّ يشير ويؤكّد أنّه السلطة الأولى، والعلّة الأساسيّة والأكثر تفوّقًا لكلّ الأشياء.

فالإيمان هو النبع الرئيس للفضيلة والقدرة. وأمّا الرجاء فهو العزاء والانتعاش والتعزية للمحزونين. وهو ينقذ من هاوية اليأس الذين أنهكتهم كوارثُ الحياة ومآسيها، كما يسكِّن آلام النفوس التي جار عليها ظلم العالم المرهِقُ، والقدرُ المتقلِّب، والمِحَن المؤلمة: *«تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيليّ الأحمال وأنا أريحكم»* (متّى ١١: ٢٨).

والمحبّة هي التي توحّد المجتمع، وتجعل جميع أعضاء الجنس البشريّ إخوةً. إنّها أساس سعادة الإنسان ونعيمه، وقاعدة كلّ الفضائل. إنّها السلَّم الذي يرفع الإنسان إلى الكمال، جاعلاً إيّاه صورة ومثالاً حقيقيّين لله: *«المحبّة تتألّم وترفق، المحبّة لا تحسد. المحبّة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تُقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتدّ ولا تظنّ السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحقّ. وتحتمل كلّ شيء وتصلّق كلّ شيء وترجو كلّ شيء*

وتصبر على كلّ شيء. المحبّة لا تسقط أبدًا» (١كورنثوس ١٣: ٤-٨).

يُظهر يسوع، وهو يحدّد العلاقة بين الله والإنسان، طبعه الثنائيّ من الصرامة التي لا تلين والمحبّة الودودة. فقد ساد في كلمات يسوع وأعماله النقاءُ الخالص الكامل والعطف الرقيق. فناموس الله مقدّس بشكل مطلق ولكنّ تعدّي ناموسه خطيئةٌ مروّعة وجريمة وموت ورجاسة. ومع ذلك فالخاطئ هو محور اهتمام يسوع المتواصل، وموضوع عطفه ورحمته: *«أيّ إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحدًا منها ألا يترك التسعة والتسعين في البرّيّة ويذهب لأجل الضالّ حتّى يجده. وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحًا. ويأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً لهم: افرحوا معي لأنّي وجدت خروفي الضالّ. أقول لكم إنّه هكذا يكون فرحٌ في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة»* (لوقا ١٥: ٤-٧).

كان هذا الائتلاف المتجانس من الصرامة والمحبّة، من القداسة والإشفاق، هو طبيعة الإله- الإنسان المعتلِن يسوع المسيح، الذي أبوه الله وإخوته الشعب. فكإله، هو طاهر وقدّوس، وكالإله-الإنسان، هو لطيف وممكن المقاربة. إنّه يعتني بالإنسان ويهتمّ بمصيره، ويُبدي له في الوقت ذاته عنايته المتواصلة. لقد عيَّن طبيعة الإنسان وسلالته وفهمها، وتحادث معه. وأدرك مأزق الجنس البشريّ وسعى إلى حلٍّ نهائيّ وشامل ودائم له.

لو رغب أحدهم بعرض المقاطع الملائمة من الأناجيل الإلهيّة كلمة بكلمة، لكي يبرهن أن النبوءات قد تحقّقت بالفعل، لوجب عليه أن ينقل النصّ الكامل. لذا فإنّنا سنعرض مجموعة من الآيات الإنجيليّة التي تبيّن هدف تجسّد مسيّا.

الفصل الثاني عشر
الأناجيل الإلهيّة تصف مسيّا كما جاء في النبوءات

«وكان يسوع يطوف المدن كلّها والقرى يعلّم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كلّ مرض وكلّ ضعف في الشعب. ولـمّا رأى الجموع تحنّن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها» (متى ٩: ٣٥-٣٦؛ أشعياء ٦١: ١-٢).

«اذهبا وأخبرا يوحنّا بما تسمعان وتنظران. العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يُطهَّرون والصمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشَّرون» (متّى ١١: ٤-٥؛ أشعياء ٣٥: ٤-٥).

«تعالوا إليَّ يا جميع المتعَبين والثقيليّ الأحمال وأنا أريحكم، احملوا نيري عليكم وتعلموا منّي لأنّي وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لأنّ نيري هيِّن وحملي خفيف» (متّى ١١: ٢٨-٣٠).

«أيّ إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه؟ فالإنسان كم هو أفضل من خروف؟!» (متّى ١٢: ١١-١٢؛ أشعياء ٤٠: ١١).

«وشفاهم جميعًا وأوصاهم بأن لا يُظهروه» (متّى ١٢: ١٥-١٦؛ حبقوق ٣: ٤).

«جيل فاسق شرّير يطلب آية ولا تُعطى له آية إلاّ آية يونان النبيّ» (متّى ١٢: ٣٩؛ ملاخي ٣: ٥).

«وكلّمهم كثيرًا بأمثال» (متّى ١٣: ٣؛ مزمور ٧٧: ٢).

«حتى بُهتوا وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوّات؟!» (متّى

١٣: ٥٤).

«فجاء إليه جموع كثيرة معهم عرجٌ وعُمي وخرسٌ وشُلّ وآخرون كثيرون وطرحوهم عند قدمي يسوع فشفاهم حتّى تعجّب الجموع» (متّى ١٥: ٣٠-٣١؛ أشعياء ٣٥: ٤-٥).

«حينئذٍ أوصى تلاميذه بألّا يقولوا لأحد أنّه يسوع المسيح» (متّى ١٦-٢٠).

«فإنّ ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذٍ يجازي كلّ واحد حسب عمله» (متّى ١٦: ٢٧؛ دانيال ٧: ١٣-١٤).

«أوصاهم يسوع قائلاً: لا تُعلموا أحدًا بما رأيتم حتّى يقوم ابن الإنسان من الأموات» (متّى ١٧: ٩؛ مزمور ٨٢: ٨).

«لأنّ ابن الإنسان قد جاء ليخلّص ما قد هلك» (متّى ١٨: ١١؛ حبقوق ٣: ١٥).

«أيّها العبد الشرّير، كلّ ذلك الدَين تركته لك لأنّك طلبت إليّ. أفما كان ينبغي أنّك أنت أيضًا ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟» (متّى ١٨: ٣٢-٣٣).

«فما جمعه الله لا يفرّقه إنسان» (متّى ١٩: ٦).

«فخذْ الذي لك واذهب فإنّي أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك... هكذا يكون الآخِرون أوّلين والأوّلون آخِرين لأنّ كثيرين يُدعَون وقليلين يُنتخبون» (متّى ٢٠: ١٤-١٦).

«على كرسيّ موسى جلس الكتبة والفرّيسيّون. فكلّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنّهم يقولون ولا يفعلون... وكلّ أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس» (متّى ٢٣: ٢-٥؛ مزمور ٨١: ١-٧).

«فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أيّ روح أنتما. لأنّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُهلك أنفس الناس بل ليخلّصهم» (لوقا ٩: ٥٥؛ مزمور ٧١: ١٢-١٣).

«لأنّ الذي أرسله الله يتكلّم بكلام الله لأنّه ليس بكيل يعطي الله الروح. الآب يحبّ الابن وقد دفع كلّ شيء في يده» (يوحنّا ٣: ٣٤-٣٥؛ مزمور ٢: ١-٩).

«لأنّ الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كلّ الدينونة للابن لكي يكرِّم الجميع الابن كما يكرّمون الآب» (يوحنّا ٥: ٢٢-٢٣؛ مزمور ٧١: ١-٢).

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأنّي لا ،أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنّا ٥: ٣٠).

«فتّشوا الكتب لأنّكم تظنّون أنّ لكم فيها حياة أبديّة وهي التي تشهد لي... مجدًا من الناس لست أقبل» (يوحنّا ٥: ٣٩-٤١؛أشعياء٤٢: ١-٤).

«وأمّا يسوع فإذ علم أنّهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا، انصرف أيضًا إلى الجبل وحده» (يوحنّا ٦: ١٥).

«لا تحكموا حسب الظاهر، بل احكموا حكمًا عادلاً» (يوحنّا ٧: ٢٤؛ مزمور ٤٤: ٨).

«لم يتكلّم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!» (يوحنّا ٧: ٤٦؛ مزمور ٤٤: ٢).

«يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليكِ؟ أما دانك أحد؟ فقالت لا أحد يا سيّد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينكِ. اذهبي ولا تخطئي

أيضًا» (يوحنّا ٨: ١٠-١١).

«متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون أنّي أنا هو... وتعرفون الحقّ والحقّ يحرّركم» (يوحنّا ٨: ٢٨-٣٢؛ مزمور ١٠٨: ٢-٣).

«ولكنّكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلّمكم بالحقّ الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم» (يوحنّا ٨: ٤٠؛ مزمور ٤٠: ٦).

«مَن منكم يبكّتني على خطيئة؟» (يوحنّا ٨: ٤٦؛ أشعياء ٥٣: ٨).

«لدينونةٍ أتيت أنا إلى هذا العالم حتّى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذي يبصرون» (يوحنّا ٩: ٣٨؛ ملاخي ٤: ٢؛ أشعياء ٤٢: ٦-٧).

«وأمّا الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف... والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصّة بأسمائها ويخرجها. ومتى أخرج خرافه الخاصّة يذهب أمامها والخراف تتبعه... أنا باب الخراف. وجميع الذين أتوا قبلي هم سُرّاق ولصوص ولكنّ الخراف لم تسمع لهم... أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف... ليس أحد يأخذها منّي، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضًا» (يوحنّا ١٠: ٢-١٨؛ أشعياء ٦٣: ١١).

«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يوحنّا ١٢: ٣٣؛ تثنية ٢٨: ٦٦).

«لأنّي لم آتِ لأدين العالم بل لأخلّص العالم» (يوحنّا ١٢: ٤٧؛ أشعياء ٥٢: ٦-٧).

«ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضًا فتسمع صوتي وتكون رعيّة واحدة وراعٍ واحد» (يوحنّا ١٠: ١٦؛ مزمور ٢١: ٢٨).

«الحقّ الحقّ أقول لكم إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت

فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يوحنّا ١٢: ٢٤؛ أشعياء ٥٣: ٤-١٢).

«أنا هو الطريق والحقّ والحياة» (يوحنّا ١٤: ٦).

«لو لم أكن قد جئتُ وكلّمتهم لم تكن لهم خطيئة وأمّا الآن فليس لهم عذر في خطيئتهم... وأمّا الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يوحنّا ١٥: ٢٢-٢٤؛ تثنية ١٨: ١٥-١٩).

«ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيئة وعلى بِرّ وعلى دينونة» (يوحنّا ١٦: ٨).

«فخرج يسوع وهو عالم بكلّ ما يأتي عليه وقال لهم مَن تطلبون. أجابوه يسوع الناصريّ... قال لهم يسوع قد قلت لكم إنّي أنا هو فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون» (يوحنّا ١٨: ٤-٨).

«وقال لهم هذا هو الكلام الذي كلّمتكم به وأنا بعد معكم أنّه لا بدّ أن يتمّ جميع ما هو مكتوب عنّي في ناموس موسى والأنبياء والمزامير» (لوقا ٢٤: ٤٤؛ مزمور ٣٩: ٨).

فمَن يتفحّص النبوءات بهدف التعرّف إلى مسيّا المعلَن عنه، ومَن يدرس بأكثر إمعانًا الفقرات المذكورة أعلاه من الأناجيل المقدّسة، مفسّرًا بعضها حرفيًّا والبعض الآخر رمزيًّا، سوف يجد دقّة كبيرة في اكتمال الأحداث حتّى ليستحيل عليه ألاّ يقرّ بإعجاب بأنّ يسوع المسيح هو مسيّا الذي أعلنت عنه النبوءات.

الفصل الثالث عشر
نبوءات تناولت آلام المسيح وموته ودفنه وقيامته

كما وصفت النبوءات فضائل المسيح، فإنّها تصف بشكل مماثل آلامه وموته. فقد كبر المسيح مثل غصن طريّ في أرض قاحلة ودخل أورشليم بانتصار متواضع، راكبًا على جحش. تعرَّض للخيانة وبيع بثلاثين من الفضَّة. وتعرَّض للجلد والصفع والبصاق والسخريّة. ثُقبت يداه ورجلاه ولكن عظمًا من عظامه لم يُكسر. طُعن جنبه وأُعطي خلاًّ ممزوجًا بمرارة ليشربه. اقتُسمت ثيابه وأُلقيت القرعة على لباسه. مات ودُفن ولكنّ روحه لم تُترك للفساد. كلّ ما جاء أعلاه تمّ الإعلان عنه قبل أوانه وتحقّق في وقت لاحق حرفيًّا، كما جاء في النبوءات.

«يا ربّ مَن آمن بما سمع منّا؟ ولِمَن كُشفت ذراع الربّ؟ فإنّه نبتَ كفرع أمامه وكأصلٍ من أرض قاحلة. لا صورة له ولا بهاءَ فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه. مزدرى ومتروك من الناس» (أشعياء ٥٣: ١-٣).

«ابتهجي جدًّا يا بنت صهيون واهتفي يا بنت أورشليم هوذا ملككِ آتيًا إليكِ بارًّا مخلِّصًا وضيعًا، راكبًا على حمار وعلى جحشٍ ابن أتان» (زكريّا ٩: ٩).

«فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضّة... فأخذت الثلاثين من الفضّة وألقيتها إلى السبّاك في بيت الربّ» (زكريّا ١١: ١٢-١٣).

«أمّا أنا فدودة لا إنسان. عار للبشر وسخرية للشعوب. كلّ الذين رأوني استهزأوا بي. تكلّموا عليَّ بشفاههم وهزّوا رؤوسهم

قائلين: اتّكلَ على الربّ فلينجِه ويخلّصه لأنّه راضٍ عنه» (مزمور ٢١: ٦-٨).

«صار قلبي كالشمع الذائب في وسط بطني. يبسَتْ مثل الفخّار قوّتي ولساني لصق بحنكي. وفي تراب الموت ألقيتني.. ثقبوا يديَّ ورجليَّ. أحصوا كلّ عظامي وتفرَّسوا فيَّ وحدّقوا» (مزمور ٢١: ١٤-١٧).

«اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقترعوا» (مزمور ٢١: ١٨).

«لأنّي من أجلك احتملت العار فغطّى الخجل وجهي. صرتُ غريبًا عند إخوتي وأجنبيًّا لدى بني أمي. لأنّ غيرة بيتك أكلتني وتعييرات معيّريك وقعت عليَّ. أذللت بالصومٍ نفسي فصار هذا عارًا لي. جعلتُ لي المسح لباسًا وصرت لهم مثلاً. الجالسون بالباب تقوّلوا عليَّ وصرتُ أغنية لشُرّاب الخمور... لأنّك تعرف عاري وخزيي وخجلي. قدّامك جميع الذين يضايقونني... جعلوا لي في طعامي مرارة وفي عطشي سقوني خلاًّ... أنا بائس وحزين» (مزمور ٦٨: ١٠-١٥، ٢٣-٢٦، ٣٤).

«أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك جحيم؟» (هوشع ١٣: ١٤).

«هوذا عبدي يوفَّق ويتعالى ويرتفع ويتسامى جدًّا. كما أنّ كثيرين ذُعروا في شأنك هكذا لم يعد منظره منظر إنسان وصورته صورة بني آدم» (أشعياء ٥٢: ١٣-١٤).

«كان رجل أوجاع وعارف بالألم ومثل من يُستر الوجه عنه مزدرى فلم نعبأ به. لقد حملٍ هو آلامنا واحتمل أوجاعنا فحسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومذلّلاً. طُعن بسبب معاصينا وسُحق بسبب آثامنا. نزل به العقاب من أجل سلامنا وبجرحه شُفينا. كلّنا ضلّلنا

كالغنم كلّ واحد مال إلى طريقه فألقى الربّ عليه إثمنا كلّنا. عومل بقسوةٍ فتواضع ولم يفتح فاه. كحمل سيق إلى الذبح كنعجة صامتة أمام الذين يجزّونها ولم يفتح فاه. بالأكراه وبالقضاء أخِذ فمَن يفكّر في مصيره؟ قد انقطع من أرض الأحياء وبسبب معصية شعبي ضُرب حتّى الموت... مع أنّه لم يصنع عنفًا ولم يوجد في فمه مكرٌ... فلذلك أجعلُ له نصيبًا بين العظماء وغنيمة مع الأعزّاء لأنّه أسلم نفسه إلى الموت وأُحصي مع العصاة وهو حمل خطايا الكثيرين وشفع في معاصيهم» (أشعياء ٥٣: ٣-١٢).

«لذلك فرح قلبي وتهلّل لساني وجسلي أيضًا يرقد مطمئنًا لأنّك لن تترك نفسي في الجحيم ولن تدع قدّوسك يرى فسادًا» (مزمور ١٥: ٩-١٠).

هذه المذكورة أعلاه نبوءاتٌ كُتب بعضها منذ أكثر من ألف سنة بينما كُتب بعضها الآخر منذ ما يفوق سبعة قرون قبل عهد المسيحيّة. ومع ذلك فالأنبياء يصفون الأحداث وكأنّهم يدوِّنون التاريخ وهم جالسون عند قاعدة الصليب. فهم يصفون آلام المسيح وموته وإذلاله ووداعته وكربه وجهاده؛ وأنّ اليهود ازدروا به ونبذوه؛ ولم يقتنع أحد بكلامه؛ وأنّه كان يعاني حزنًا مؤلمًا؛ وأنّ وجهه كان الأكثر خزيًا وخجلاً من بين جميع أبناء البشر؛ وأنّه احتمل كلّ هذا بصمت، ولم يبدر عنه سوى نداء من أجل المعتدين عليه: *«يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون»* (لوقا ٢٣: ٣٤).

لم يتمّ التنبّؤ بهذه الأمور حرفيًّا وحسب، بل هي تشكّل أيضًا أحداثًا تاريخيّة. ويدلّ تحقّق هذه النبوءات اليهوديّة الكتابيّة وحدها، المتعلّقة بإذلال المسيح وآلامه وموته، على أنّه هو مسيّا المنتظَر. كما

يشهد عار الصليب علانية على يسوع: «*هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن يتألّم المسيح*» (لوقا ٢٤: ٤٦). فقد أكمل المسيح التدبير الخلاصيّ من أجلنا، وأتمّ بالحقيقة كلّ ما أعلنه الله للجنس البشريّ منذ أجيال من طريق الأنبياء.

ولسوف يبقى اليهود، وهم القائمون الساهرون على الكتاب المقدّس، الشهودَ الأبديّين على اعتلان الله وحقيقة النبوءات المتعلّقة بمسيّا، ويستمرّون في الوقت عينه، ويا للمفارقة، أعداءه الألدّاء الذين لا يلينون.

الفصل الرابع عشر
نبوءات تناولت رجوع الأمم إلى الإله الحيّ

وكما هي الحال مع كلّ النبوءات، فإنّ تلك المتعلّقة بحجّ الأمم وعودتها إلى الإله الحيّ تعلن بصوت عالٍ اعتلان الله للعالم. وإلاّ، فكيف استطاع الأنبياء أن يخبروا مسبقًا بأحداث سوف تقع بعد قرون عديدة لو لم يُعلن الله لهم هذه الأمور؟ إنّ الأنبياء الحاملين الإله يتكلّمون بفرح وذهول عن ملكوت مسيّا الكونيّ:

«*سلني فأعطيك الأمم ميراثًا وأملّكك أقاصي الأرض*» (مزمور ٢: ٨).

«*وتذكر الربّ جميعُ أقاصي الأرض وترجع إليه وجميع أجناس الأمم تسجد قدّامه*» (مزمور ٢١: ٢٨).

«*ويكون في آخر الأيّام أنّ جبل بيت الربّ يوطّد في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه الشعوب وينطلق أمم كثيرون ويقولون: هلمّوا نصعد إلى جبل الربّ وبيت إله يعقوب وهو يعلّمنا طرقه فنسير في سبله لأنّها من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمةُ الربّ*» (ميخا ٤: ١-٢).

«*لأنّه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم في الأمم، وفي كلّ مكان تحرَق وتقرَّب لاسمي تقدمة طاهرة، لأنّ اسمي عظيم في الأمم، قال ربّ القوّات*» (ملاخي ١: ١١).

ويصف النبيّ أشعياء هذه الأحداث، كما في نبوءاته الأخرى، مع تفاصيل أكثر تفوق ما ذكره غيره من الأنبياء، إذ يصف الإصحاحان ٤٩

و٦٠ مجد الكنيسة حين تعود الأمم إلى الله. ويهتف في الإصحاح التاسع والأربعين: *«وقال: قليلٌ أن تكون لي عبدًا لتُقيم أسباط يعقوب وتردَّ المحفوظين من إسرائيل. إنّي قد جعلتك نورًا للأمم ليبلغ خلاصي إلى أقاصي الأرض»* (أشعياء ٤٩: ٦).

وفي الإصحاح الستّين يبشّر أورشليمَ بحلول مجد الربّ، بالقول: *«استنيري استنيري يا أورشليم فإنّ نوركِ قد وافى ومجدَ الربّ قد أشرق عليكِ. ها إنّ الظلمة تغطّي الأرض والغمام المظلم يشمل الشعوب ولكن عليكِ يشرق الربّ وعليكِ يتراءى مجدُه. فتسير الأمم في نوركِ والملوك في ضياء إشراقكِ»* (أشعياء ٦٠: ١-٣).

الفصل الخامس عشر
تحقّق الزمن الذي حدّده الأنبياء

يعيِّن النبيّ دانيال زمن حضور المخلِّص بشكل دقيق؛ فهو يسبق فيُخبر بتوقّف الكلمة النبويّة، وحضور السابق، ونهاية العبادة القديمة والذبيحةِ والسكيب، وبتدنيس الهيكل، وهجر اليهوديّة. هاكم أقوال النبيّ:

«إنّ سبعين أسبوعًا حُدِّدت على شعبك وعلى مدينة قدسكَ لإفناء المعصية وإزالة الخطيئة والتكفير عن الإثم والإتيان بالبرّ الأبديّ وختم الرؤيا والنبوءة ومسح قدّوس القدّيسين... واعلم وافَهمْ. إنّه من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى رئيس مسيح سبعةُ أسابيعَ، ثمّ في اثنين وستّين أسبوعًا تعود وتُبنى السوقُ والسّور، ولكن في ضيق الأوقات» (دانيال ٩: ٢٤-٢٥).

«هاءنذا أرسل إليكم إيليّا النبيّ قبل أن يأتي يوم الربّ العظيم الرهيب. فيردّ قلوب الآباء إلى البنين وقلوبَ البنين إلى آبائهم، لئلاّ آتي وأضرب الأرض بالتحريم» (ملاخي ٣: ٢٣).

«وبعد الأسابيع الاثنين والستّين، يُفصَل مسيحٌ ولا يكون له خطيئة ويأتي رئيسٌ فيدمّر المدينة والقدس. بالطوفان تكون نهايتها، وإلى النهاية يكون ما قُضي من الدمار والتخريب... وفي أسبوع واحد يقطع مع كثيرين عقدًا ثابتًا. وفي نصف الأسبوع يُبطِل الذبيحة والتقدمة، وفي جناح الهيكل تكون شناعة الخراب» (دانيال ٩: ٢٦-٢٧).

وتُعتبر الأسابيع السبعون ٤٩٠ عامًا بحسب لغة الكتاب المقدّس

التي تساوي أيّام الأسبوع بالسنين[٨١]. لذا فقد كان من الضروريّ أن تتحقّق كلّ النبوءات المتعلّقة بالمسيح في غضون هذه الفترة الزمنيّة. إذ يقول دانيال إنّ هناك سبعة أسابيع (٧ x ٧ = ٤٩ عامًا) منذ إعطاء أرتحشستا مكروشيروس الإذن بإعادة بناء أورشليم وحتّى ظهور المسيح الأمير، يزاد عليها ٦٢ أسبوعًا (٦٢ x ٧ = ٤٣٤ عامًا)، أي ٤٨٣ عامًا. وعلى هذا فإنّ المسيح سوف يظهر للشعب اليهوديّ بعد ٤٨٣ عامًا من إعطاء الإذن بإعادة بناء أورشليم.

وقد أعطي الإذن لنحميّا بإعادة التشييد في السنة العشرين من حكم أرتحشستا مكروشيروس. وهذا يوافق تقريبًا السنة ٣٠٠ بعد تأسيس روما (AUC 300)[٨٢]. ويذكر القدّيس لوقا أنّ يسوع كان يبلغ نحو الثلاثين من العمر حين اعتمد خلال السنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس قيصر، أي ما يوافق السنة (AUC 782) تقريبًا. وهكذا فإنّ هناك ٤٨٢ عامًا (٧٨٢ – ٣٠٠ = ٤٨٢) بين إعطاء الإذن وزمن ظهور المسيح. فإذا أضفنا ثلاث سنوات (أي نصف أسبوع) حتّى صلب المسيح، يصبح لدينا ٤٨٥ عامًا. وهذا الرقم يوازي تقريبًا الـ ٦٩ أسبوعًا ونصف الأسبوع (أي منتصف الأسبوع السبعين) الذي في خلاله، يقول النبيّ دانيال، سوف «يُقضى» على المسيح ويتوقّف تقديم الذبائح. وقد تمَّت كلّ هذه الأحداث بالحقيقة.

كما أنّ السبعين أسبوعًا المحدّدة للأمّة اليهوديّة وفقًا للنبيّ دانيال، والتي على أثرها سوف «يُقضى» على المسيح، والتي تدلّ بالتحديد

---

[٨١] راجع لاويّين ٢٥: ٨ وسِفر العدد ١٤: ٣٤، وحزقيال ٤: ٦.

[٨٢] (AUC) اختصار لعبارة «*ab urbe condita*» التي تعني: «منذ إنشاء المدينة»، وتُستعمل لتحديد تاريخ معروف بالنسبة إلى سنة إنشاء روما.

على زمن صلب المخلِّص، قد تأكَّدت أيضًا بعمليّات حسابيّة مرتكزة على شهادات تاريخيّة غير كتابيّة. إذ تتطابق السنة الثالثة والعشرون لمملكة أرتحشستا مكروشيروس مع السنة الثانية للأولمبياد الثاني والثمانين، أو العام ٣٣٦ بعد الألعاب الأولمبيّة الأولى. ولكن، وبما أنّ السنة ٢٣ من الأولمبياد تتطابق مع السنة الأولى لتأسيس روما (1 AUC)[٨٣]، فإنّ السنة الثالثة والعشرين لمملكة أرتحشستا تتطابق أيضًا مع السنة ٣٠٣ AUC (٣٣٦ - ٢٣ = ٣٠٣). وحين نطرح ٣ سنوات (من السنة الثالثة والعشرين لنصل إلى السنة العشرين التي في خلالها أصدر أرتحشستا أمر البناء) نصل إلى السنة AUC 300. ولذا فإنّ أمر بناء أورشليم أعطي خلال تلك السنة.

ولدينا، علاوة على ذلك، شهادة من فليغون الذي يقول: «في السنة الرابعة للأولمبياد الثاني بعد المئة، حدث أعظم كسوفٍ للشمس عُرف حتّى ذلك التاريخ. ففي الساعة السادسة، أصبح النهار مظلمًا كالليل، وبانت النجوم في السماء. وحدثت هزّة أرضيّة في بيثينيا دمَّرت مباني عدّة في نيقيا»[٨٤]. وتتطابق السنة الرابعة للأولمبياد الثاني بعد المئة مع

[83] Vid. William Smith, *A Dictionary of Greek and Roman Antiquities,* J. Murray, London: 1875, pp. 280-282.

[٨٤] لاحظ مؤرّخون آخرون أيضًا هذا الظلام اللافت الذي عمَّ العالم. إذ يسجّل العالم يوليوس أفريقانوس أنّ «ظلامًا مخيفًا للغاية ضغط على العالم بأسره، وتمزّقت الصخور بفعل هزّة أرضيّةَ وتهاوت منازل كثيرة في اليهوديّة ومناطق أخرى» (*On the Circumstances connected with our Saviour's Passion*», Ante-» Nicene Fathers, Vol. 6, pp. 136-137). كان القدّيس ذيونيسيوس الأريوباغيّ في مدينة هليوبوليس في مصر، ساعة صلب المسيح. وحين أبصر الظلام المباغت، هتف: «إمّا أن يكون الخالق يتعذّب أو أنّ العالم قد وصل إلى نهايته». وسجّل اليوم والساعة والسنة التي حدثت فيها هذه الواقعة. وبعد عودته إلى أثينا وصل إليها الرسول بولس مبشّرًا بإنجيل المسيح. وحين تكلّم الرسول بولس على الظلام الذي غطّى الأرض خلال آلام المسيح، تثبّت القدّيس ذيونيسيوس من الحقيقة وآمن بالمسيح.

العام AUC 785 (إذ إنّ ٨٠٨ – ٢٣ = ٧٨٥). وهو عام صلب الربّ. وعلاوة على ذلك، فبين العام AUC 300 الذي فيه صدر المرسوم، وحتّى عام الصلب، فترة ٤٨٥ سنة. وهذا يثبت بالفعل دقّة نبوءة دانيال عن الأسابيع السبعين. والآن سوف نبرهن أنّه «قضي» على المسيح في منتصف الأسبوع السبعين.

الفصل السادس عشر
نبوءة دانيال تتطابق مع الكرونولوجيا اليونانيّة والرومانيّة

i) يعتبر النبيّ دانيال أنّه سينقضي سبعون أسبوعًا أو ٤٩٠ عامًا (٧٠ X ٧ = ٤٩٠)، منذ إعطاء الأمر بإعادة تشييد أسوار أورشليم وحتّى زمن تحقّق النبوءات.

ii) صدر هذا المرسوم خلال السنة العشرين لحكم أرتحششتا[٨٥].

iii) تتطابق السنة الثالثة والعشرون لحكم أرتحششتا مع السنة الثانية للأولمبياد الثاني والثمانين (أو ٣٣٦ عامًا بعد الأولمبياد الأوّل)[٨٦].

iv) تتطابق السنة الثانية للأولمبياد الثاني والثمانين مع السنة ٣٠٣ في الكرونولوجيا الرومانيّة (أي AUC 303).

v) لذا فإنّ السنة الثالثة والعشرين لحكم أرتحششتا تتطابق مع السنة AUC 303.

vi) ويؤكّد القدّيس لوقا الإنجيليّ أنّ المسيح ظهر واعتمد في نهر الأردن إبّان السنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس قيصر.

vii) والسنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس هي نحو AUC 782 [٨٧].

viii) لذا فمن السنة الثالثة والعشرين لمملكة أرتحششتا (أي 303

---

[٨٥] راجع نحميا ٢: ١-٨.

[٨٦] راجع يوليوس أفريقانوس (*The Chronology*, Ante-Nicene Fathers, Vol. 6, pp. 137).

[87] Vid. Theophilus of Antioch, *Theophilus to Autolycus,* Ante-Nicene Fathers, Vol. 2, p. 120.

AUC)، وحتّى ظهور يسوع المسيح في نهر الأردن (أيّ 782 AUC) هناك ٤٧٩ عامًا (٧٨٢ - ٣٠٣ = ٤٧٩ عامًا). وإن أجرينا الحساب من السنة العشرين لحكم أرتحشستا، نجد أنّ هناك ٤٨٢ عامًا (٤٧٩ + ٣ = ٤٨٢).

ix) ويعتبر الإنجيليّون أنّ يسوع المسيح احتفل بالفصح أربع مرّات (أي مرّت ثلاث سنوات) منذ وقت اعتماده وحتّى صلبه. فيكون الربّ قد صُلب في خلال العام ٤٨٥ (٤٨٢ + ٣ = ٤٨٥).

x) ويقول النبيّ دانيال إنّ يسوع سوف يظهر للشعب بعد انقضاء سبعة أسابيع، يضاف إليها اثنان وستّون أسبوعًا على صدور المرسوم المختصّ ببناء أسوار أورشليم (أي بعد ٤٨٣ عامًا).

xi) رأينا أنّ السنة العشرين لمملكة أرتحشستا تقابل العام 300 AUC بما أنّ السنة الثالثة والعشرين تقابل العام 303 AUC.

xii) ظهر المسيح في العام 782 AUC.

xiii) وهكذا فمنذ صدور المرسوم وحتّى ظهور المسيح تكون قد انقضت ٤٨٢ سنة (٧٨٢ - ٣٠٠ = ٤٨٢)، التي هي سنوات الأسابيع الـ٦٩ التي تكلّم عليها النبيّ دانيال.

xiv) حدث الصلب بعد ثلاث سنوات (أي في خلال العام 785 AUC).

xv) منذ صدور المرسوم (أي منذ العام 300 AUC) وحتّى العام 785 AUC، انقضت ٤٨٥ سنة.

xvi) من هنا فإنّ منتصف الأسبوع السبعين هو بالحقيقة العام 785 AUC الذي فيه صُلب المسيح.

جدول زمنيّ مقارن

الكرونولوجيا اليونانيّة (الأولمبياد)	الحدث	الكرونولوجيا الرومانية (AUC)	
٦,٣	تأسيس روما (السنة الـ٢٣ للأولمبياد)	٠	
٣١,٣		١٠٠	
٥٦,٣		٢٠٠	
٨١,٣	إعادة بناء أورشليم (السنة الـ٢٠ لحُكم أرتحشستا)	٣٠٠	
١٠٦,٣		٤٠٠	
١٣١,٣		٥٠٠	AUC 782) 300 – = (AUC ٤٨٢ عامًا
١٥٦,٣		٦٠٠	
١٨١,٣		٧٠٠	
٢٠٢,١	معموديّة المسيح (السنة الـ١٥ لحُكم طيباريوس)	٧٨٢	
			٣ سنوات
٢٠٢,٤	صلب المسيح	٧٨٥	

- في العمود اليمين، يدلّ الرقم الذي قبل الفاصلة على الأولمبياد، في حين يدلّ الرقم الواقع بعد الفاصلة على السنة من ذلك الأولمبياد المعيَّن. وعلى سبيل المثال: ٦,٣ يعني السنة الثالثة التي تلت الأولمبياد السادس.
- تدلّ الأرقام في عمود اليسار على عدد السنوات بعد تأسيس روما (AUC).
- كلّ رقم في عمود اليسار يطابق الرقم الموازي له في العمود اليمين.

الفصل السابع عشر
نبوءات تحقّقت بعد الأسابيع السبعين

لن يكفّ القادة والمشترعون اليهود عن التحدّر من نسل يهوّذا قبل حضور انتظار الأمم و«مَن بقي منهم». فإنّ الذي تاقت إليه كلّ الأمم سوف يظهر في الهيكل الثاني. وسيجمِّله بحضوره ويمجِّده ويكسوه بنبلٍ وكرامة أعظم. وسوف يظهر ملاكُ العهد، الربّ الذي تاقوا إليه وتمنَّوه. وسيرسَل أمامه إيليّا التسبيتيّ، الذي هو يوحنّا السابق، كصوتٍ صارخ في البرّيّة، لكي يهيّئ طريقه[88]. وبعد موت المسيح مسيًّا، كُلِّف قائد الأمّة وحاكمها، بأن يدمّرها ويبيد الشعب. وسوف يدمِّر الهيكل والمذبح ويلغي الذبائح والسكائب ويُحِلّ رجاسة الخراب في الهيكل. كلّ ما سبق ذكره تمّ بحسب النبوءات.

مَن لا يقتنع، عند قراءته المؤرّخ اليهوديّ، يوسيفوس، بخصوص المحصِّلة الدقيقة لكلّ النبوءات؟ مَن لا يرى، حتّى اليوم، حقيقة الموضوع المشهود له؟ نحن نعلم من التاريخ الدينيّ أنّ صولجانات المملكة اليهوديّة كانت بيد الملوك اليهود، ولكنّها انتقلت، بعد تدمير مملكتهم، إلى عهدة مجلس وثنيّ. وبرز كنيس عظيم من جيل يهوّذا، وارتفع وبقي في السلطة. وانتصب الهيكل، وكانت الذبائح

[88] كان **السابق** للمجيء الأوّل للمسيح هو القدّيس يوحنّا المعمدان الذي يُشار إليه بإيليّا لأنّه كان يشبه النبي إيليّا بالروح والقوّة، كما أنبأ ملاكُ الربّ زكريّا بالقول: «ويتقدّم أمامه بروح إيليّا وقوّته ليردَّ قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيّئ للربّ شعبًا مستعدًّا» (لوقا ١: ١٧). وسوف يكون النبيّ إيليّا نفسه هو سابق المجيء الثاني المجيد للمسيح، إذ تقول طروباريّته: «أيّها الملاك بالجسم، قاعدة الأنبياء وركنهم، السابق الثاني لحضور المسيح، إيليّاس المجيد الموقّر...».

والسكائب تُقدَّم فيه بحسب الشريعة الموسويّة بتواصل لأطول وقت ممكن. وقد سارت كلّ الأمور كما جاء في النبوءات إلى أن ظهر ربّنا يسوع المسيح، مسيّا المنتظَر. غير أنّه حالما ظهر المسيح تقاربت كلّ العلامات باتّجاه نهاية. وبعد موته بوقت قصير، امَّحت وكأنّها لم توجد يومًا. اكتملت الأسابيع السبعون وانتهى الزمن المحدَّد للأمّة وللمدينة المقدّسة.

قبل حياة يسوع المسيح العلنيّة، أُرسِل الملاك المعلَن عنه (القدّيس يوحنّا السابق) ليهيّئ الطريق أمامه ويجعل طرقه مستقيمة. كان حقًّا ملاكًا ظهر بجسد. ويصف يوسيفوس، في معرض روايته أحداث ذلك الزمن، حياةَ القدّيس يوحنّا المدعو المعمدان الطاهرة، والموتَ الوحشيّ الذي تعرَّض له: «كان يحضّ اليهود على ممارسة الفضيلة والاستقامة تجاه بعضهم البعض، والتقوى تجاه الله، وعلى أن يُقبلوا تاليًا إلى المعموديّة»[٨٩].

ثمّ ما عادت قبيلة يهوّذا موجودة، وما عاد لها مَلِك. واليهود الذين ابتعدوا إلى ما وراء حدود أرض أجدادهم، انتقلوا إلى سلالة أجنبيّة. ومنذ ذلك الحين وحتّى اليوم ما زالوا بعيدين عن ميراثهم. هل يوجد مشترع من قبيلة يهوذا؟ لقد سوِّي الهيكل بالأرض ولم يبقَ فيه حجر على حجر، كما تنبّأ المخلِّص. أين قبيلة لاوي؟ أين هم رؤساء الكهنة العظماء؟ وأين الكهنة؟ وأين رجال الدين القدّيسون؟ أين خدّام الهيكل والمذبح؟ أين الذبائح والسكائب؟ أين تابوت العهد؟ أين المذبح الذي تقدَّم عليه القرابين؟ وبشكل عامّ، أين عظمة العبادة اليهوديّة؟ انتهى كلّ شيء، لأنّه كان ظلاً عابرًا ورمزًا للعهد الجديد،

---

[89] *Jewish Antiquities*, 18.5.2.

للواقع الحقيقيّ. ومنذ ذلك الحين ضاعت في الشتات السجلاّتُ التي تدوَّن فيها الأنساب. وبفقدان قبيلة لاوي الوثائق والأدلّة على نسلها الكهنوتيّ، فقد أصبحت تاليًا ملتئمة بقبيلة يهوّذا التي لم تحصل على الحقّ بالكهنوت. بادت كلّ رتبة كهنوتيّة وأسقفيّة وفقد اليهود في الشتات الوسيطَ بينهم وبين الله، الذي يستغفر اللهَ على خطاياهم، فصاروا ينحدرون إلى الجحيم مثقلين بمعاصيهم المفرطة. ووصلت العبادة الناموسيّة إلى نهايتها (كما جاء في النبوءات). ولم يبقَ هناك ما يشهد على وجودها وكيانها.

ولكن إن افترضنا للحظة أنّ مسيّا الذي أعلن عنه الأنبياء، انتظارَ الأمم وإسرائيل، لم يأتِ، فسيضطرّ المرء بحقٍّ إلى التساؤل: كيف تحقّقت أقوال الأنبياء إن لم يأتِ مسيّا؟ إن كان مسيّا الذي ينتظره اليهود، كما جاء في كتبهم المقدّسة، لم يظهر، وإن كان الذي حضر ليس ربّنا يسوع المسيح، فإنّ كلّ نبوءة تصبح إذًا باطلة. في هذه الحال يكون كلّ شيء قد مرّ ولم يحدث أيّ أمر يحقّق النبوءات.

ومع ذلك فكلّ الأشياء تؤكّد أنّ مخلّص البشريّة وفاديها قد وصل. حضر انتظار الأمم وإسرائيل. والذي حضر هو ربّنا يسوع المسيح.

القسم الرابع
تألّق الإيمان المسيحيّ

الفصل الأوّل

مَن يُدرك وجود الله ملزم بأن يؤمن باعتلانه

إنّ الله الذي حدَّ أعمالَ خليقته، وختم اللجج بكلمة أمره وضع أيضًا قيودًا لفكر الإنسان وسبق فرسم خطًّا حول الفهم: «*أنت جعلتَ لها حدًّا لا تتعدّاه*» (مزمور ١٠٣: ٩). ويستحيل على العقل البشريّ أن يخترق هذا الحدّ. فمعرفة الإنسان محدودة ويكفيه أن يتفقّه في الأمور التي جُعلت في متناول فهمه. والرغبة بمعرفة اللامحدود هي منطقة يعجز فكره عن الاقتراب منها. كما أنّ فهم الأسرار هو معرفة بعيدة المنال بالنسبة إليه. كُشف الوجود له وأمّا المعرفة فبقيت مكتومة. وجعل خالق السرّ في سلطته الخاصّة القدرة على التصرّف، وهو يكشف قدرته كما يرغب هو. مشيئته شريعة، والشريعة هي مشيئته: «*لأنّه مَن عرف فكر الربّ؟ أو مَن صار له مشيرًا؟*» (رومية ١١: ٣٤). ولذا فإنّ أحدًا لا يستطيع، على الإطلاق، أن يفهم أسرار الله ويدركها. ورغم أنّ الله غلَّف أعماله الخارقة بطريقة جعلتها بعيدة المنال عن الفكر، إلاّ أنّه يكشف هذه الأمور لأنقياء القلب ولأولئك الذين يؤمنون به وللذين يعترفون بعزّة قدرته. حقًّا إنّ الله يكشف أسراره للأطفال ويكتمها عن الحكماء والعقلاء (متّى ١١: ٢٥؛ لوقا ١٠: ٢١).

اعتلان الله للعالم هو لغز. كما أنّ تجسّد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح هو سرّ. الديانة المسيحيّة سرٌّ بما أنّ مضمون إيمانها هو الله المتجسّد. ولكونها سرًّا فيستحيل أن يلتقطها الفكر. فكيف للعقل المحدود أن يفهم ما هو غير محدود؟ كيف يمكن لما هو محصور في

مكان أن يقدر على احتواء ما هو بلا حدود؟

إذا فُهم أمر لا حدود له فإنّه يكفّ حينئذٍ عن أن يكون لانهائيًّا. لذا فحين يُفهم إلهٌ فإنّه يكفّ عندئذٍ عن أن يكون الله[٩٠]. أعطي للإنسان أن يدرك الله عبر حسٍّ غريزيّ فقط ولكن ليس بمعرفة الله بحدّ ذاتها. الإنسان يعي أنّ الله موجود ولكنّه لا يعرف بالضبط ما هو. هذا الواقع يُجبر الإنسان على أن يؤمن بأنّ الله موجود مهما يكن الله. والوعي بأنّ الله موجود يُجبر المرء على اكتساب معرفته عبر الإيمان. والذي يُدرك أنّ الله موجود ولكنّه لا يؤمن به بالفعل، هو في تناقض مع نفسه. لذا فالإيمان هو نتيجة للإدراك. كلّ مَن يُدرك ملزمٌ بأن يؤمن بوجود الله وباعتلانه في آن، وبأن يقبل أفعال الاعتلان الإلهيّ بتوقير، حتّى ولو كان عاجزًا عن الإحاطة بأسرار الله.

ومع ذلك، وحتّى لو كان الغموض يعقب بالضرورة هذا الإيمان الإلزاميّ، فالإيمان المسيحيّ لا يوجد في الجهل. توصّل الإنسان المسيحيّ، عبر الإيمان، إلى معرفة السرّ. توصّل الإنسان المسيحيّ إلى معرفة مضمون إيمانه، لأنّه آمن. فهناك شعاع من النور الإلهيّ ينير المسيحيّ المؤمن ويطرد ظلمة الجهل. فللإيمان المسيحيّ القدرة الذهنيّة وقدرة المعرفة في آن. الإيمان المسيحيّ رؤيويّ، تعليميّ وجازم، ويمنح الإنسان العلم السماويّ والحقائق الإلهيّة.

---

[٩٠] تأمّل أوغسطين في السرّ العظيم، سرّ الثالوث القدّوس مطوّلاً، من دون أن يتوصّل إلى فهمه. أخيرًا ذهب في نزهة على الشاطئ ليريح عقله. فرأى هناك ولدًا انتهى للتوّ من حفر فجوة صغيرة في الرمل وكان ينقل ماء من البحر في وعاء ويفرغه في الفجوة. فسأله أوغسطين: «ماذا تفعل يا ولدي؟» فأجابه الصبيّ: «أترى كلّ هذا الماء في المحيط؟ سوف أفرغه كلّه داخل هذه الفجوة». فردّ أوغسطين: «ولكن هذا مستحيل». فقال الولد: «إن كان هذا مستحيلاً فكم يكون أكثر استحالة ما أنت تحاول فعله، أن تدرك سرّ الثالوث القدّوس؟». لقد كان هذا ملاكًا بشكل بشريّ أُرسِل لكي يعلِم أوغسطين أنّ العقل البشريّ المحدود لا يستطيع أن يحتوي الله غير المحدود.

هذا الإيمان ينير العقل ويُقنع القلب بما يختصّ بطابعه وحقيقته الإلهيَّين. إنّه يصقل معرفة المرء بمقدار ما يكون إيمانه متطوّرًا ومصقولاً. من هنا فالإيمان المسيحيّ منير ويقدِّم علامات كثيرة على تألّقه. الإيمان المسيحيّ متألّق لأنّه إيمان الاعتلان الإلهيّ. ولكونه عمل الاعتلان الإلهيّ، فهو يصدر إشعاعاتِ نور تبزغ من قلب المؤمن وعقله. الإيمان بالمسيح متألّق للأسباب التالية:

١) مضمونه نورٌ ينير وينشر نورًا غزيرًا.
٢) إنّه يقود إلى معرفة الحقيقة لكونه إيمانًا منطقيًّا.
٣) إنّه ينمّي في الإنسان المسيحيّ الحبَّ المتوقّد لمضمون إيمانه.
٤) إنّه يولِّد الرجاء بالله.
٥) إنّه يجمِّل المؤمن بمواهب الروح القدس.
٦) إنّه يغدق ثمار الروح القدس بغزارة.
٧) إنّه يمتلك قدرة مجدِّدة.
٨) نوره قد انسكب على الكتاب المقدّس ويبزغ عبر عيون العقل لدى مَن يملكون قلبًا نقيًّا.
٩) إنّه ينقل للمؤمنين طريقًا حياتيًّا أخلاقيًّا وموقفًا روحيًّا.
١٠) هو رؤيويّ وباهِر.
١١) تشهد قدرة الصليب المكرّم على تألّقه.
١٢) تشهد قيامة المسيح على تألّقه.
١٣) يشهد التطوّر المعجز الذي شهده التعليم الرسوليّ على تألّقه.
١٤) إنّه يفقِّه العقل ويُقنع القلب.
١٥) وهو، لكونه نورًا، أنار العالم الذي كان معروفًا آنذاك، وعضد سلطة شرائعه.

الفصل الثاني
المسيحيّ الفاضل يشهد على تألّق الإيمان المسيحيّ

المسيحيّ الفاضل تمثالٌ رائع لأنّه نُحت على صورة خالقه ومثاله. اكتسى رداء نعمة الله وتزيّا بجماله الأصليّ المجيد، وتلقّى عطايا الله بغزارة، وتمجّد بالشركة معه.

أضحى المسيحيّ الفاضل في هناء لأنّه كثَّف في ذاته كامل غنى النعمة وضمن لنفسه الهناء على الأرض إلى الأبد. والهناء هو ثمرة نعمةِ روح الله والغنى المعنويِّ في آن، ولذا فهو ينشئ الفضيلة وحدها، وجعل مقامه داخل صدور المسيحيّين الفضلاء. وضع الله الهناء داخل قلوب المسيحيّين الفضلاء، وجعله مقتناهم الخاصّ دون سواهم، وجعله مستقلاً بالكلّيّة عن كلّ محيط خارجيّ وغير قابل للتأثّر به. فليس من أمر خارجيّ قادر على التأثير في الحالة المبارَكة التي في داخل المسيحيّ الفاضل. لذا فمَن كانوا خالين من الفضيلة ومجرَّدين من نعمة الله، مَن لا يشعرون بهذه البركة في داخل قلوبهم، بل يبحثون عنها خارج أنفسهم، هؤلاء يشبهون أشخاصًا يركضون خلف ظلالهم.

المسيحيّ الفاضل يعيش حقًّا في هناء لأنّ الله أوعب قلبه بالسعادة وروحَه بالبهجة. المسيحيّ الفاضل مبارَك إذ لكونه أصبح مغتنيًا بهذه الطريقة، فهو يعيش حياة سلاميّة، لا يقضّها إزعاج ولا تشتّت. إنّه مكتفٍ بتأدية واجباته ودوره في المجتمع. إنّه يسعى إلى الحقّ، ويعمل باسم الفضيلة والصلاح والعدل، ويكدّ فرِحًا لكي يجعلها

تنتصر. تبتهج روحه بأتعابه، وهو يجاهد من دون انقطاع لكي ينجز ما هو صالح، كما يندفع بكلِّ ما له من قوّة ليكون مفيدًا في كلّ أمر. خلب لبّه الجمالُ الأمثل ومَلَك في قلبه. إنّه يتأمّل في الفضيلة ليل نهار، وتجده، في توسّلاته إلى الله، يصلّي من أجلِ أن تسود الفضيلة. إنّه يستدعي قوّة الله لتعينه في مهمّاته لكي يتمكّن من إتمام الأعمال الصالحة بسلامة، هذه الأعمال التي يمليها عليه قلبه. إنّه يرغب بما هو صالح لأنّه ما عاد يحبّ غير ذلك. ويرغب بالفضيلة لأنّها أشبعت قلبه. إنّه يرغب بالحقيقة لأنّ الحقيقة أنارته. هذه هي طريقة حياة المسيحيّ الفاضل، وهي تشهد بتألّق قوّة الإيمان المسيحيّ المنيرة.

الفصل الثالث
النور الذي يحتويه الكتاب المقدّس يشهد على تألّق الإيمان المسيحيّ

يشهد الكتاب المقدّس، وهو اعتلان متواصل لأعمال الله وأقواله وأفعاله، على تألّق قوّة الإيمان بالمخلِّص يسوع المسيح ونورانيّتها.

وحده الإنسان الذي تعطّلت عيناه العقليّتان، وصمَّت أذناه الروحيّتان، وتحجَّر قلبه، وتخدَّرت حواسّ روحه العامّة بسبب الأهواء، يمكنه أن يبقى أعمى وأصمّ وغير مبالٍ تجاه اعتلان الله الكامن داخل الكتاب المقدّس، لأنّ هذا الاعتلان ينبِّه حواسّ الروح بقوّة. فالنور المنبعث من الكتاب المقدّس هو عظيم لدرجة أنّه يستحيل على مَن كانت حواسّ روحه سليمة، ألاّ «يعميه» هذا النور، وألاّ يعترف بالحقيقة التي في داخله، وألاّ يؤمن ويتّضع أمام الله المعتَلَن في داخل الكتاب المقدّس. فإنّنا نقع في كلّ صفحة من صفحاته على اعتلان جديد من الله للعالم. وفي كلّ صفحة نرى الله يتحدّث إلى الإنسان، إلى مَن له أذنان للسمع.

ورغم أنّ الكتاب المقدّس هو كتاب اعتلانات إلهيّة لِمَن لهم عينان للرؤية وأذنان للسمع، فإنّه يصبح سِفرًا مختومًا بسبعة ختوم (راجع رؤيا ٥: ١) لأصحاب الضمير الملتوي. ويشهد المخلِّص نفسه على هذه الحقيقة حين يوبّخ اليهود الذين يفتّشون الكتب المقدّسة التي تشهد له، ولكنّهم يبقون عاجزين عن اكتشاف ما تقوله هذه الكتب عنه. لم تكن لهم محبّة الله في ذواتهم لأنّهم كانوا شعبًا متغطرسًا

يطلبون مجدًا بعضهم من بعض، لا مجد الله (راجع يوحنّا ٥: ٣٩-٤٤). فالكتاب المقدّس مثل هذا الشعب هو مغطّى بستار سميك ونورُه المقدّس لا يشعّ لعيونهم الذهنيّة. لذا فإنّ رغبة الاستمرار في الشرّ وفسادِ القلب هي السبب الذي جعل الشعب غير مستنير بالكتاب المقدّس، وليس غياب النور الغزير الكامن في داخله.

فالكتاب المقدّس ينير أعين الشعبِ الذي يمتلك وعيًا وحسن النيّة ويبحث بصدق. والأمثلة لدينا لا تُحصى، إن في الماضي أو في الأزمنة القريبة. وأحد الأمثلة العديدة هو مثل جون ميللر الذي كان عالِمًا معاصرًا لفولتير وروسّو، حكيمًا وواسع المعرفة. لم يكن ميللر رجل دين ولا مسيحيًّا متديّنًا وممارسًا. وحين قطن في مدينة كسيل خلال العام الـ١٧٨٢، راح يدرس أَعمال مؤرّخين متنوّعين. ومنذ أن التقط الكتاب المقدّس بين يديه، ما عاد بإمكانه أن يبقى غير مبالٍ تجاه الإيمان المسيحيّ. لقد افتُتن بمجرّد قراءته. وإليكم ما كتبه في إحدى رسائله المؤرّخة في ٢٧ أيّار الـ١٧٨٢، إلى صديقه شارل بونّيه (الذي كان يعلم جيّدًا اختلاف الإيمان الذي كان يفرّق بينهما حتّى ذلك الوقت):

«صديقي العزيز والحبيب، أنت تحبّني. ولكن ألن تحبّني الآن بإفراط إذ أصبحت أكثر شبهًا بك؟ حين تعرف أنّ شيئًا لن يفرِّق بيننا من الآن فصاعدًا؟ منذ قدومي إلى كسيل عكفتُ على قراءة القدماء بالترتيب الزمنيّ، من دون استثناء، ولم أتوانَ عن تكوين مجموعة مختارة من كلّ حدث جدير بالملاحظة. ولست أعرف كيف خطر الأمر في بالي، ولكنّي قرّرت منذ شهرين أن ألقي نظرة على العهد الجديد، وكان ذلك بالحقيقة قبل أن أبلغ تلك الفترة الزمنيّة في تسلسل قراءاتي.

كيف لي أن أعبِّر عمّا اكتشفته في داخله؟ انقضت سنوات عديدة لم أقرأه في خلالها، وما أن شرعت بقراءته حتّى شعرت أنّ بي ميلاً مضادًا له. لم يكن النور الذي أعمى عيني بولس الرسول، وهو في طريقه إلى دمشق، عجيبًا واستثنائيًّا أكثر ممّا كان بالنسبة إليّ ما اكتشفته في لحظة. بكلام آخر، تحقُّقُ كلّ رجاء، وحالة اكتمال كلّ فلسفة، وتفسير كلّ الثورات، ومفتاح كلّ التناقضات الظاهرة بين العالمِ الطبيعيّ والعالم الخلقيّ، الحياة والخلود! رأيت الحدث الأكثر إذهالاً ينتج من الوسائل الأكثر تفاهة. رأيت العلاقة بين كلّ التغيّرات في آسيا وأوروبّا، إلى جانب تلك الأمّة التي يُرثى لها، التي أُعطيت المواعد لتحفظها، تمامًا كما يفضِّل أحدهم أن يودع كتاباته شخصًا أمّيًّا عاجزًا عن تزويرها. رأيت الديانة المسيحيّة تظهر في الوقت الأكثر ملاءمة لها حتّى تتأسّس، وبالوسائل الأقلّ موافَقة لها كي يقبلها الناس.

«واللافت أنّ العالم تحضَّر بشكل استثنائيّ لدعم ديانة المخلِّص؛ فإنّي أكون لا أفقه شيئًا إن لم تكن هذه الديانة من الله. لم أقرأ أيّ كتاب بهذا الخصوص. حين كنت أدرس الأحداث التي وقعت قبل تلك الحقبة، كنت ألاحظ على الدوام أنّ هناك أمرًا ناقصًا. وأمّا الآن وقد توصّلت إلى معرفة ربّنا، فقد أصبح كلّ شيء واضحًا أمام عينيّ؛ معه أنا قادر على حلّ كلّ المعضلات... اسمح لي بأن أؤدّي تحيّة إلى الشمس مثل أعمى حصل فجأة على موهبة الرؤية»[91].

هذه هي القدرة المنيرة، قدرة الإيمان بالمسيح المخلِّص. هذا المؤرّخ، الذي لم يلتقط الإنجيل بلامبالاة وحسب، بل كان أيضًا ميّالاً ضدّه (كما يعترف بنفسه)، والذي قرأ العهد الجديد بالصدفة، بدأ

[91] Έρνέστου Ναβύλλη, *Περί Αἰωνίου Ζωῆς*, σελ. 159-160.

يتحدّث عن التاريخ مثل بوسويه[٩٢] آخر.

إنّها القدرة المنيرة، قدرة الإيمان بالمسيح يسوع! إنّها تكمّل المسيحيّ المؤمن إلى درجة أنّه يقرّ بأنّه ما عادت به حاجة إلى أيّة معرفة مادّيّة أخرى. الآن تحقّقت الحقيقة في داخل قلبه وامتلأ الفراغ وما عاد يرغب بأيّ شيء آخر. غمر الإيمان كلّ شيء في داخله، وصبغه حقًّا باكتفاء كامل. نال القلب والعقل سؤالهما، وتاليًا فالإيمان الذي ينير ويعمل بهذه الطريقة هو متألّق ومشرق.

---

[٩٢] كان Jacques Benigne Bossuet (1627-1704) أسقفًا فرنسيًّا استحقّ بجدارة أن يكون أحد أعظم الخطباء في التاريخ الفرنسيّ بفضل فصاحته المنقطعة النظير وأسلوبه الأخّاذ. ويعتبر مؤلّفه العظيم *Discourse on Universal History* أحد أعماله الذائعة الصيت.

الفصل الرابع
الحبّ المتّقد الذي ينمو في داخل الإنسان المسيحيّ يشهد على تألّق إيمانه

الحبّ الذي ينمو في داخل إنسان مسيحيّ لمحتوى إيمانه يشهد على تألّق الإيمان المسيحيّ. فالمؤمن يشعر أنّ قلبه يشتعل بحبّ المسيح. فمن أين نشأ ذلك الحبّ؟ كيف يمكن لإنسان أن يحبّ اللامعلوم؟ إنّ حبّ اللامعلوم أمر مستحيل لأنّ اللامعلوم لا تأثير له على القلب. ولكي يحبّ القلبُ شيئًا ما، يتطلّب الأمر تأثيرًا معنويًّا من دونه يبقى القلب غير مبالٍ. فالحبّ هو رغبة القلب الذي تأثّر والتهب بجمال المحبوب وسحره. فمن الضروريّ أن يكون الشخص المحبوب موجودًا لكي يلمس القَلب. الحبّ هو الشرارة التي تنتج من تصادم عنصرَين.

فكيف توصّل المسيحيّ المؤمن إلى أن يحبّ المسيح الذي هو مضمون إيمانه لو لم يحصل بينهما تماس؟ كيف جُرح قلبه بحبّ المسيح لو لم يعرفه، لو لم يسمع صوته، لو لم يسحره جمال المسيح وطلاوته؟ كيف يمكن أن يحبّ المسيحَ إلى حدّ أن ينكر نفسه من أجله، وأن تلتصق روحه به، من الحبّ، الحبّ فقط، وتتبعه بحماسة وابتهاج؟ كيف يمكن أن يحبّ الإنسانُ المسيح إلى درجة أن يبذل حتّى حياته من أجله وهو مبتهج؟ كيف غزا اللامعلوم قلب الإنسان بطريقة تجعله يحتمل كلّ شيء لإسعاده؟ يستحيل أن نحبّ شيئًا غير معلوم. من هنا فمَن يحبّ معتادٌ على موضوع حبّه، وقد جُرح قلبه بهذه المعرفة. لذا فالحبّ الذي يكنّه المؤمنون للمسيح يدلّ على وجود معرفة به.

وبالمقابل تدلّ المعرفة على وجود اعتلان. وهذا يعني أنّ المسيح كشف نفسه للشخص الذي يؤمن به، وبما أنّه إله المحبّة، فقد ملأ قلب هذا الشخص بالحبّ.

ولدينا أمثلة لا عدَّ لها ولا حصر على العشق الإلهيّ المفرط للمخلِّص الذي ينتج من «ظهوره» داخل قلوب المؤمنين. وأحد النماذج الأكثر سطوعًا هو مثل الرسول بولس الذي جُرح قلبه بحبّ المخلِّص إلى درجة أنّه هتف بحماسة إلهيّة: «*مَن سيفصلنا عن محبّة المسيح؟ أشدّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟ كما هو مكتوب: «إنّنا من أجلك نُمات كلّ النهار وقد حُسبنا مثل الغنم للذبح». ولكنّنا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبّنا. فإنّي متيقّن أنّه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوّات ولا أمور حاضرة ولا مستقبَلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا*» (رومية ٨: ٣٥-٣٩)[٩٣].

ولذا كشف المخلِّص ذاته حقًّا للرسول بولس وتكلّم إلى قلبه. وبالمقابل، اختبر قلب الرسول محبّةَ الذي أحبّه والذي جعل مقرَّه في

---

[٩٣] وهناك مَثل آخر جميل جدًّا هو مَثل أغناطيوس الحامل الله بالحقيقة الذي، لكثرة ما تأمّل في قلبه اسم الله العذب مرارًا وتكرارًا، اتّقدت روحه وكلّ أعضائه الداخليّة بقوّة بالعشق الإلهيّ حتّى أصبح كالمجنون. فصار يصرخ أحيانًا: «ليس من نار أو رغبة في داخلي لمحبّة أيّ شيء من هذا العالم. ليس هناك سوى ماء إلهيّة تتدفّق في قلبي من دون انقطاع وتغلي على الدوام بالعشق الإلهيّ. ويصرخ هذا العشق الإلهيّ في داخليّ باستمرار ويقول لي: «لِمَ تبقى في هذا العالم؟ تعالَ لننطلق إلى إلهنا وأبينا!». ما عادت المآكل والملذّات الفانية في هذه الحياة الحاضرة تجتذبني، أنا بالحريّ أرغب وأتوق إلى ماء الحياة وماء الخلود، أي محبّة الله الأبديّة والحياة الخالدة». وكان القدّيس نفسه يقول أيضًا في أحيان أخرى: «لقد صُلب معشوقي، لقد مات حبّي»، مشيرًا إلى ربّنا يسوع المسيح. كانت شعلة الحبّ الإلهيّ التي لا تطفأ، المتّقدة في قلبه، تحثّه على التلفّظ بمثل هذه الكلمات. ولهذا، حين استشهد في روما، افترست الأسود كلّ أعضاء جسده ولحمه، ولكنّها لم تجرؤ على أكلّ قلبه المقدّس، بل تركته كاملاً من دون أذى. وعندها أخذه الجنود الأثمة وشقّوه إلى نصفين ويا للمعجزة! وجدوا في داخله مكتوبًا بحروف ذهبيّة يسوع من ناحية ومن الناحية الأخرى المسيح (Invisible Warfare, p. 269).

داخله. ومنذ ذلك الحين أحبّ الرسول المسيحَ مبادَلةً بمقدار القوّة المعطاة لقلبه. لذلك فمَن يحِبّ يملك المعرفة. وبما أنّ مَن يؤمن يحبّ أيضًا، ينتج من ذلك أنّ مَن يؤمن يكون يملك المعرفة. إنّه يؤمن لأنّ المسيح يكشف نفسه للذين يؤمنون به. وبالنتيجة فإنّ الإيمان المسيحيّ هو متألّق لأنّه يؤدّي إلى معرفة الله الحقيقيّة.

ويعرِّف القدّيس بولس الإيمان، وهو الذي اكتسب هذه المعرفة بخبرته الشخصيّة، على أنّه الإيقان بالأمور التي لا تُرى: «*وأمّا الإيمان فهو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى*» (عبرانيّين ١١: ١).

ويدعو القدّيس كليمنضس الإيمان «معرفة»: «الإيمان هو معرفة موجزة لأمور مُلحَّة جدًّا».

ويعتبر القدّيس باسيليوس الإيمان قبولاً مترافقًا مع ثقة: «الإيمان هو قبول بدون تمييز بالأمور التي سُمعت، وثقة بالأمور التي بُشِّر بها بنعمة الله».

توصّل المسيحيّ المؤمن بالحقيقة إلى معرفة الله. إنّه يعرفه ويعبده من أعماق قلبه. المسيحيّ المؤمن يرى الله في كلّ أعماله. إنّه يُدرك حكمة الله وعدالته وخيريّته، وهو يذيع عنايته الإلهيّة. أصبح الإيمان للمؤمن نبعًا من المعرفة والاستنارة من هنا فهو متألّق.

الفصل الخامس
الإيمان المسيحيّ متألّق لأنّه يزيّن المؤمن بمواهب الروح القدس

تشهد مواهب الروح القدس، التي تُمنح للمؤمن بالمسيح، على تألّق الإيمان المسيحيّ. ونجد هذه المواهب الإلهيّة انهمرت بغزارة على المؤمن الذي اعتمد على اسم المخلِّص يسوع المسيح. مَن كان في السابق أمّيًّا فإنّه يصبح ممتلئًا من الروح القدس ويحلّ عليه روحُ الحكمة والفهم. كان البارحة غير متميِّز، وواحدًا من الجمع الغفير، ولكنّه اليوم شخص مهمّ يملك المعرفة، وواحد من القلّة المعَدّة لملكوت السماء. كان البارحة جاهلاً ولكنّه اليوم ممتلئ من الفهم والحقّ. البارحة كان ضائعًا وسط نشاطاته وأمّا اليوم فمُنح الهدف والقوّة. كان البارحة غافلاً عن الله ولكنّه اليوم ممتلئ من معرفة الله ومخافته.

وعن مواهب الروح القدس يقول الرسول بولس: *«ولكنّه لكلّ واحد يُعطى إظهار الروح للمنفعة. فإنّه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمةٍ ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد. ولآخر إيمان بالروح الواحد، ولآخر مواهبَ شفاء بالروح الواحد. ولآخر عمل قوّاتٍ ولآخر نبوءة ولآخر تمييز الأرواح ولآخر أنواع ألسنة ولآخر ترجمة ألسنة. ولكن هذه كلّها يعملها الروح الواحد بعينه قاسمًا لكلّ واحدٍ بمفرده كما يشاء»* (١كورنثوس ١٢: ٧-١١). من هنا، فإذ نحن أعضاء في جسد المسيح الواحد نفسه، فبإمكان كلّ إنسان أن يسهم إفراديًّا في

كامل جسد الكنيسة الوظيفيّ.

فكيف لأحدهم أن يرى هذا الإيمان المتألّق والمنير سوى كنهار مشمس يضيء الكون؟ فالرسول بطرس يحثّ المؤمن الذي تلقّى مواهب إلهيّة بهذه الطريقة: *«ليكن كلّ واحدٍ بحسب ما أخذ موهبة يخدم بها بعضكم بعضًا كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوّعة»* (١بطرس ٤: ١٠). وهذا ما دعا تاليًا الأمم إلى الإيمان بالمسيح. هذه هي العلامة التي أُعطيت لهم. هذا هو الشعاع الساطع الذي ينير فكرهم. هذه هي النار التي تشتعل في قلوبهم. كانت الكنيسة كلّها، وشركة المؤمنين كلّها، حاملةً لله. كان فيها رسل؛ كان فيها أنبياء؛ كان فيها معلّمون؛ كان فيها قوّات؛ كان فيها مواهب أشفية، ومعاونون وألسنة متنوّعة (راجع اكورنثوس ١٢: ٢٨). هذا هو نور الإيمان الذي يجعل الإيمان المسيحيّ متألّقًا.

الفصل السادس
قيامة ربّنا يسوع المسيح تشهد على تألّق الإيمان

يستفيض أبونا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم بالشرح في عظته «حقيقة التبشير الرسوليّ الذي يشعّ من قيامة الربّ» (١كورنثوس، الموعظة ٥)، مستعملاً براهين وأفكارًا باهرة. وهذه النقاط تكفي وحدها لتشهد على تألّق قدرة الإيمان المسيحيّ وإشراقها. ويقول، من جملة أمور أخرى:

«كيف صمَّم أحد عشر صيّادًا أمّيًّا على الشروع بمثل هذه الرّحلة؟ كيف صمّموا على أخذ العالم بأسره على عاتقهم؟ كيف تمكّن هؤلاء الذين لم يستطيعوا الصمود أمام ضرواة اليهود حين كان معلّمهم ما يزال حيًّا، أن ينظّموا صفوفهم ضدّ هذا العالم الواسع؟ لَمِ لم تثبط عزيمتهم عند موت معلّمهم؟ كيف أملوا أن يكتسبوا اَلعالم لو لم يعاينوا الربّ يسوع قائمًا من بين الأموات؟ ألعلّهم فقدوا عقولهم حتّى يفكّروا في ذلك الأمر بخفّة؟ حقًّا إنّ ارتجاء تحقيق مثل هذا المشروع العظيم من دون النعمة الإلهيّة هو أمر يفوق كلّ جنون. فكيف تمكّنوا من تحقيق مثل هذا الأمر بمفردهم لو كانوا مختلّي العقل ومجانين؟ ولكنّهم كانوا يتمتّعون بحواسّهم الواعية، كما أظهرت الأحداث بالحقيقة، فكيف احتملوا المضيّ قدمًا إلى تلك الحروب الهائلة، مجازفين ضدّ الأرض والبحر، منطلقين بهدف تبديل أمم الأرض كلّها، ومناضلين بشجاعة عظيمة من دون أن يحصلوا على عهود موثوقة من السماوات أو معونة من العلاء؟

«ومع ذلك يبقى الأمر الأعظم أنّهم كيف توقّعوا أن يقنعوا المستمعين الذين كانوا يدعونهم إلى السماء وإلى نمط حياة في العلاء؟ لو أنّهم امتلكوا المقام الرفيع والقوّة والثراء وسعة المعرفة، فلربّما كان هناك أساس ما لتوقّعاتهم ـ ولو أنّهم رغم ذلك ما استطاعوا تجاوز ذلك الكمّ من الحواجز. ولكنّ بعضًا منهم عملوا بالصيد وبعضهم الآخر بجلود الحيوانات وغيرهم بالضرائب. وليس هناك أبعد من هذه المشاغل عن الفلسفة ولا أقلّ ملاءمة للمهمّة التي كانوا على وشك الشروع بها، وبخاصّة حين لا يكون أمام المرء مثال سابق يحتذي به.

«في الواقع لم يكن أمامهم أمثلة مشابهة تدلّ على إمكانيّة نجاحهم في مثل هذا المسعى، وليس هذا فحسب، بل على العكس، كان معروفًا أنّهم لن يحقّقوا شيئًا. فما أكثر الذينٍ انطفأوا ممَّن حاولوا إحداث ابتكارات، وليس بمعيّة اثني عشر رجلا، بل بصحبة حشد كبير من الأتباع... هكذا هلك ثوداس ويهوّذا مع تلاميذهما رغم أنّهما كانا يملكان أعدادًا عظيمة من الرجال. وكان هذا الخوف وحده كافيًا لتعليمهم. وعندها لم يحاولوا القيام بأيّ شيء لو لم يقتنعوا بأنّ القدرة الإلهيّة سوف تعضدهم في هذا المشروع العظيم.

«لو لم يكونوا يتوقّعون النجاح، ولو لم يكونوا يتطلّعون إلى الجوائز المستقبلة فبأيّ رجاء قبلوا تلك المخاطر؟ ماذا كانوا يأملون أن يحقّقوا بقيادة الأمم إلى الإيمان بمعلّمهم الذي لم يقم من بين الأموات؟ إن كان الشعب المؤمن بالمسيح لا يقبل أن يخوض مخاطر مقابل ملكوت السماوات ووفرةٍ من الخيرات إلاّ بصعوبة بالغة، فكيف احتملوا أمورًا عديدة بلا جدوى، وبالحريّ على حسابهم؟ لو لم تحصل الأمور التي بشَّروا بها، ولو لم يصعد المسيح إلى السماء، بل

قاموا بكلّ هذه الأمور وحاولوا أن يقنعوا الآخرين بهدف الحصول على التكريم، لكانوا سيثورون على الله، ولكان عليهم أن يتوقّعوا أن يضربهم بالرعد مرّات لا تحصى. وعلاوة على ذلك، لو أنّهم كانوا يملكون تلك الغيرة حين كان المسيح حيًّا، لكانوا «فقدوها» بعد موته. لو لم يقم من بين الأموات لكانوا اعتبروه مضلِّلاً ومزيّفًا. ألا تعلمون أنّه طالما أنّ القائد والملك حيان فإنّ الجيش يبقى مجتمعًا، حتّى ولو كان الجنود ضعفاء ولكن حين يموت هذان فالجيش يتشتّت، حتّى ولو كان الجنود أقوياء. فقولوا لي إذًا ماذا يمكن أن تكون الأسباب التي جعلتهم يخرجون ويبشِّرون العالم بأسره؟ كم عدد الحواجز التي أعاقتهم؟ لو أنّهم كانوا مجانين لما حقّقوا شيئًا لأنّ أحدًا لا يصغي إلى رجل مختلّ العقل. ولكن، على العكس، لو أنّهم نجحوا (وقد نجحوا في الحقيقة بحسب النتيجة النهائيّة)، إذًا كانوا أكثر حكمة من جميع الباقين. وإن كانوا أكثر حكمة من جميع الشعوب الأخرى فمن الظاهر إذًا أنّهم لم يبدأوا التبشير بالصدفة.

«من أين اكتسبوا العقائد السامية؟ ماذا كانوا يقولون أثناء التبشير؟ إنّ المسيح قد صُلب؟ كان الجميع على علم بذلك. إنّه قام من بين الأموات؟ ولكن مَن الذي رآه؟ مَن كان ليصدِّقهم؟ كان الجميع يتناقلون إشاعة تقول إنّ المسيح دُفن. وكان الجنود يقولون، وجميع اليهود معهم، إنّ تلاميذه سرقوا جسده[٩٤]. لم يكن أحد قد رأى

---

[٩٤] يفسّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في موعظة أخرى استحالة أن يكون جسد المسيح قد سُرق، ويطرح الأسئلة التالية: «ألَم يكن هناك العديد من الحرّاس والجنود واليهود المتمركزين حول القبر؟ ألَم يشتبه هؤلاء الرجال بهذا الأمر بالتحديد، وصبّوا اهتمامهم على حراسة القبر بعناية؟ كيف أخلد جميع الجنود للنوم في وقت واحد، رغم أنّهم كانوا يعرفون تمامًا أن القانون الرومانيّ يعاقب على مثل هذا الإهمال بالموت؟ (راجع أعمال ١٢: ١٨-١٩، ١٦: ٢٧). كان على باب القبر حجر عظيم يتطلّب تحريكه وجود أشخاص عدّة. فكيف دفع الرسل الحجر عن

قيامته عدا الرسل. فكيف توقّعوا أن يُقنعوا العالم بهذا؟ إن كان الجنود الذين عاينوا عجائب مستعدّين ليدلوا بشهادة معاكسة، فكيف توقّع الرسل أن يبشّروا ويقنعوا كلّ الناس في البرّ والبحر بالقيامة من دون أن يجترحوا عجائب ومن دون أن يملكوا ولا قرشًا واحدًا؟ لو أنّهم قاموا بذلك رغبة بالمجد إذًا لنسبَ كلّ واحد منهم العقائد إلى نفسه أكثر ممّا إلى ذاك الذي مات. وفي جميع الأحوال لما صدّقهم الناس، فكيف يؤمنون؟ بسماعهم عن ذاك الذي قُبض عليه وصُلِب، أو عن أولئك الذين فرّوا من أيدي اليهود؟

«قولوا لي، لماذا لم يغادروا اليهوديّة في الحال ويهربوا إلى المدن المحيطة، بل مكثوا وبشّروا في عاصمة اليهوديّة ذاتها؟ كيف أقنعوا اليهود واليونانيّين لو لم يجترحوا المعجزات؟ وإن كانوا قد اجترحوا المعجزات، فما حصل كان بقوّة الله. ولكن إن كانوا لم يجترحوا معجزات ورغم ذلك اكتسبوا أرواحًا، فما حدث كان عجائبيًّا أكثر. أتراهم لم يكونوا على علم باليهود وبقلوبهم الممتلئة حسدًا؟ فاليهود رجموا موسى بعد عبورهم البحر الأحمر وتلقّيهم المنّ، وبعد أن تدفّقت المياه من الصخر، وبعد كمّيّة العجائب التي لا عدّ لها ولا حصر في مصر والبحر والصحراء. رموا إرميا في جبّ وقتلوا العديد من الأنبياء. فإن كانوا قد قتلوهم، فلِمَ يشفقون علَى الرسل؟ كانوا أكثر حقارة

مدخل القبر من دون أن يلاحظهم أحد؟ لو أنّ جسد المسيح قد سُرق فكيف وُجدت الأكفان التي لُف بها جسد المسيح في القبر؟ إنّ المرّ والحنوط سائلان يلتصقان بالجسد ويعلقان بالثياب. ألعلّهم قاموا بغلي الماء لكي ينزعوا الأكفان عن جسد المسيح؟ وإن كان الجنود نيامًا، فكيف رأوا الرسل يسرقون الجسد؟ كما تقول ترنيمة من صلاة غروب السبت باللحن الخامس: «إنّ الأئمة همسوا في آذان الحرّاس قائلين: «أخفوا قيامة المسيح وخذّوا فضّةً. قولوا إنّ الميت قد سُلب ونحن نيامٌ». فمَن رأى أو مَن سمع في وقت من الأوقات أنّ ميتًا سُرق ولا سيّما ميت محنّط عريان ترك جهازه في القبر؟».

من الباقين، وراحوا يبشِّرون بأمور جديدة. صلبوا معلِّمهم بسبب هذه التعاليم الجديدة. فكيف كانوا يأملون إذًا بتحقيق مهمّتهم؟ كان الأحرى بهم أن يفقدوا كلّ أمل لو لم يقم المسيح من بين الأموات، كانت أمامهم ألوف من الحواجز التي تجعلهم يفقدون الشجاعة.

«لو لم يروه بعد أن قام من الموت فما كان ليقودهم إلى مثل هذه الحرب؟ ما كان ليحول دون فقدانهم الشجاعة؟ قال لهم يسوع إنّه سيقوم بعد ثلاثة أيّام ووعدهم بملكوت السماوات. قال إنّهم سوف يسيطرون على العالم بعد نيلهم الروح القدس. وإلى ذلك فقد قال ألوف الأشياء الأخرى التي تتخطّى الطبيعة. وهكذا، فلو لم تتحقّق تلك الأمور ومع ذلك آمنوا به حين كان حيًّا، لما عاد أحد يؤمن به من بعد موته، إلاّ إذا رأوه قائمًا من الموت. لأنّهم كانوا استنتجوا الآتي: «قال لنا إنّه سيعود إلى الحياة مجدّدًا بعد ثلاثة أيّام، ولكنّه لم يقم. لقد وعد بإرسال الروح من عند أبيه السماويّ ولكنّه لم يرسله. فكيف نصدّقه إذًا بخصوص المستقبل حين يشير الحاضر إلى العكس؟»».

«لماذا بشّروا بأنّه قام من بين الأموات لو لم يروه قائمًا؟ لأنّهم أحبّوه؟ على العكس. كان الأولى بهم أن يحتقروه كمضلِّل وخائن، لأنّه أفعم أحلامهم بألوف الوعود وفصلهم عن عائلاتهم وأهلهم وكلّ شيء بشكل عامّ، وجعلهم أعداء للأمّة اليهوديّة بأسرها، وفي النهاية خدعهم. لو كان هذا الحدث نتيجة الضعف، لكان المسيح مستحقًّا المسامحة. ولكنّه يُعتَبر، في هذه الحالة، كنتيجة خبث كبير، إذ كان عليه أن يطلعهم على الحقيقة لا أن يعدهم بالسماء، لو أنّه مجرّد رجل مائت. لذا فقد كان الأرجح أنّهم سيفعلون العكس: أن ينادوا بالخدعة ويعلنوا أنّه مخادِع ودجّال. ولكانوا بهذه الطريقة قد حرّروا

أنفسهم من كلّ المخاطر وأوقفوا اضطهاد اليهود لهم في آن.

«إن كان اليهود أعطوا فضّة للجنود لكي يقولوا إنّ الجسد سُرق، فأيّ شرف كان سيناله الرسل لو أنّهم ظهروا وقالوا: لقد سرقنا الجسد، إنّه لم يقم؟ لكان باستطاعتهم عندها أن يحصلوا على التكريم ويتكلّلوا. فلِمَ استبدلوا كلّ ذلك بالشتائم والأخطار، لو لم تقنعهم قوّة إلهيّة أقوى من كلّ تلك الأمور؟

«إن لم تقتنعوا حتّى الآن، ففكّروا بهذا أيضًا: لو لم يكن الأمر كذلك، وحتّى لو أنّهم كانوا منظّمين إلى درجة كبيرة، فإنّهم ما كانوا سيبشّرون بقيامته، بل لكانوا مقتوه، لأنّكم جميعكم تعرفون أنّنا لا نريد حتّى أن نسمع أسماء هذا النوع من المضلّلين. فلِمَ بشّروا إذًا باسمه؟ هل كانوا يتوقّعون أن يملكوا بهذا الاسم؟ ومع ذلك، فكان الأجدر بهم أن يتوقّعوا العكس إن كانوا سيملكون بإدخال اسم شخص مضلّل في وسطهم».

الفصل السابع
سرعة تأسّس الكنيسة تشهد على تألّق الإيمان المسيحيّ

الإيمان المسيحيّ مشعّ لأنّه رؤيويّ وموثوق في آن. والنور الموجود في داخله متألّق إلى درجة أنّه يُذهل ويبهر حتمًا المراقِب اليقظ. جذبت رهبته الأمم إلى الإيمان خلال القرون الأولى لوجوده. فأقنعهم هذا الإيمان بالتخلّي عن معبوداتهم وباستقباح آلهتهم، عبادةِ أسلافهم، وباتّباع مبشّري الإنجيل. وهذا ما قاد الأمم إلى الشهادة من أجل المسيحيّة. هذا ما جعل أعضاء البشريّة إخوة، وعلَّم الأمم أن يحبّوا ليس فقط إخوتهم بل أعداءهم أيضًا. أسَّسَ تألّقُ الإيمان كنيسة المسيح وسط الأمم، ويوشك نوره أن يضيء العالم بأسره.

ويشهد إنجاز تلاميذ المسيح بشكل قاطع على تألّق الإيمان المسيحيّ. فبالحقيقة كيف استطاع تلاميذ المسيح القليلو العدد، الذين ما عرفوا إلاّ يسوع المصلوب، أن يتغلّبوا على حكمة العالم ويجتذبوا الأمم إلى الإيمان؟ كيف استطاع التلاميذ أن يقنعوهم بحقيقة تبشيرهم وألوهةِ الكلمة وربوبيّةِ المصلوب، اللهِ الذي اعتلن، وبسرّ الفداء، والتعليم الجديد؟ أيّة قدرة هي التي أقنعت الأمم أن يتبعوا الصيّادين وينكروا مبادئهم الخاصّة وقناعاتهم؟ أيّة قدرة هي التي أقنعت الشعب الذي كان عائشًا قبلاً في المتعة والشهوات، أن يحتقِر ملاذ العالم ويمارس الزهد والتعقّل والاستقامة، ويعتمد دربًا روحيّة في الحياة؟ أيّة قدرة هي التي شجّعت مَن كانوا قبلاً يحبّون العالم، على أن يكابدوا الموت والشهادة؟ وأيّة قدرة هي التي صيَّرت مَن كانوا واهنين، شجعانًا لا

يُقهرون لدرجة أنّهم وبّخوا بجرأة ملوكًا وطغاة؟

كيف حدث أنّ معلّمي الوثنيّين المكرّسين، وقضاتهم وخطباءهم وكتبتهم، وكلّ مَن تبقّى من مجلسهم الكهنوتيّ الدينيّ المتوارث، عجزوا عن الاحتفاظ بأتباعهم السابقين وإقناع الذين أنشأوهم وربّوهم بتعليمهم منذ الطفولة، على الاستمرار في ديانتهم؟ كيف وهنوا وتركوا ساحة المعركة لرسل يسوع الذين اقتسموا الأمم والشعوب مثل غنائم؟ كيف انتشرت ديانة ممنوعة (religio illicita) داخل الإمبراطوريّة الرومانيّة؟ كيف تغلّب رسل المصلوب العزّل والوضيعون، على سِلاحَي الكبرياء والإسراف اللذين كانت تمتلكهما روما؟ وكيف خفّضوا مادّيّة الفلسفة اليونانيّة المغرورة؟

كيف روّضوا تعصّب اليهود الدينيّ؟ وكيف حدث أنّ الاضطهادات التي لا عدَّ لها لم تُبِدْ المسيحيّة؟ كيف تقوّضت واندثرت الديانات التي كانت تحظى بحماية الدولة والإكليروس في آن، بينما الديانة الجديدة التي اضطهدتها كلّ السلطات، والقادة الدينيّون، اكتسبت العالم؟ لاحظوا أنّ الجحيم استعمل كلّ الأسلحة لإبطال عمل الرسل الخلاصيّ ومنع انتقال الإنجيل، ولكنّه رفس مناخس. كلّ العناصر تآمرت على الكنيسَة التي تأسّست حديثًا لإزالتها من العالم، ولكن هذه العوامل تحطّمت على صخرة تأسُّسها الصلبة، التي هي المسيح.

قال الرسول الإلهيّ بولس، بعد أن شهد التقدم الاستثنائيّ الذي أحرزه الإنجيل، وإنتاجيّتَه، وفعاليّة التبشير الرسوليّ، وهو يتأمّل الانتصارات التي حقّقها خلال رحلاته الرسوليّة، رغم ضعفاته ـ قال في انذهال: «*اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء واختار الله ضعفاء*

العالم ليخزي الأقوياء واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود لِيُبطل الموجود لكي لا يفتخر كلّ ذي جسد أمامه» (١كورنثوس ١: ٢٧-٢٩). لذا فإنّ قدرة إلهيّة هي التي أتمّت هذه المعجزات، ويمين الربّ أسَّست كنيسة المسيح على أنقاض معابد الوثنيّين. أذهلت هذه القدرة الإلهيّة الأممَ والشعوب ودعت جميع البشر للإيمان بالمسيح، وعملت عبر الرسل وأنارت العيون الذهنيّة للأنفس وأشرقت على عيون الشعب الفكريّة.

إليكم ما يكتب بونيّه عن انتشار الإنجيل في مقالته المعبِّرة «*Recherches Philosophiques sur le Christianisme*»: «كيف أصبح الصيّادون رسلاً؟ كيف أقنعوا اليهود بأنّ كامل عِبادتهم الخارجيّة العظيمة الغابرة والموقّرة، ما عادت مرضيّة لله، بل أُلغيت إلى الأبد؟ وبأنّ كلّ طقوسهم الأسراريّة ما هي سوى ظلّ للأمور التي أُعلِنت الآن في تمامها؟ كيف أقنعوا اليهود بأنّ التقاليد التي تشغلهم هي مراسيم بشريّة تتناقض والشريعة الإلهيّة؟ بأنّ «النكرة» الذي حكموا عليه وأسلم النفَس الأخير على الصليب كان المخلِّص العظيم المنتظَر الذي بُشِّروا به؟ كيف أقنعوهم بأنّهم ليسوا وحدهم موضوع النِعَم العجائبيّة، نِعَم العناية الإلهيّة، بل إنّ كلّ أمم الأرض دُعيت لتشارك في فرحتها؟

«كيف تمكّن الصيّادون من إقناع الأمم التي تعبد آلهة متعدّدة، بوجود إله واحد فقط؟ كيف تمكّنوا من أن يطهِّروا أفكار الوثنيّين ويصيِّروهم روحانيّين، ويحرّروهم من المادّة الميتة التي كانوا ملتصقين بها، ويعيدوهم إلى الإله الحيّ؟ كيف أبعدهم الرسل عن ملذّات الحواسّ الخادعة، ونظّفوهم من كلّ الأهواء، وجعلوهم أكثر حكمة من

الحكماء؟ وبشكل خاصّ، كيف أقنعوهم بعبادة رجل أُهين بموتٍ على الصليب وحوَّلوا حماقة الصليب أمام عيونهم إلى حكمة؟ كيف أقنع نذراء المصلوب أتباعهم الجدد بإنكار اهتماماتهم العالميّة وبالعيش في الازدراء والمهانة والسخريّة؟ كيف أقنعوهم بأن يتغاضوا عن كلّ أنواع الآلام والعقوبات ويتمسّكوا حتّى الموت بتعليم حُفظت مكافآتُه للحياة الثانية؟ كيف أصبح صيّادو الأسماك صيادي ناس؟ كيف اعتنقت أمم متنوّعة وكثيرة هذا التعليم الجديد في فترة زمنيّة تقلّ عن خمسين سنة؟ كيف أصبحت حبّة الخردل تلك الشجرة الهائلة؟ وكيف ظلّلت هذه الشجرة العديد من المناطق؟».

ليُجبْ على هذه الأسئلة الذين لا يرون نور الإيمان المسيحيّ المتألّق. وبما أنّهم يلازمون الصمت، فنحن نؤكّد أنّ القدرة الإلهيّة هي التي حقّقت كلّ تلك الأمور فقد أذهلت العالم وأنارته وجذبته وغلبته. ويسعى ظلّ تلك الشجرة للتظليل على وجه الأرض كلّها.

أذهل انتشار الإنجيل العجائبيّ مراقبين عديدين، ومن بينهم المغبوط أوغسطينوس الذي يهتف: «يا إلهي! حين أرى هذه الشرارة التي تحرق العالم بأسره، حين أرى حبّة الخردل هذه تنمو وتسيطر على تلك البلدان؛ بكلمة، حين أرى الرسل الوضيعين يحقّقون مثل هذا الكَسب في رحلاتهم الرسوليّة... وفي فترة أشهر قليلة، أو بالأكثر سنوات قليلة، مشيّدين الهياكل، مؤسّسين الكنائس، ومكثّرين قطيع المسيح يسوع في كلّ مكان، حين أرى كلّ هذه المعجزات، لا يمكنني سوى أن أهتف: «يا إلهي، أنت وحدك حقّقت تلك الأمور!».

وبالمثل يعلّق القدّيس إيرونيموس بالقول: «صُلب المعلِّم وقُتل الرسل؛ جُلد التلاميذ ورُجموا؛ وقُتل أتباع هذه الديانة كافّة وعُذّبوا

بشتى الطرائق؛ ورغم ذلك يتعاظم هذا الإيمان يومًا بعد يوم ويزهر أكثر فأكثر».

ويقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم بخصوص القدرة المنيرة للمسيحيّة: «لم يستعمل الرسل القدّيسون الأسلحة ولا صرفوا الأموال، شأنهم شأن كلّ جوق القدّيسين. ما كانوا يتمتّعون بقوّة جسديّة ولا امتلكوا حشدًا من الجنود أو أيّ أمر مشابه. بل استعملوا بالحريّ كلمات بسيطة كانت تحوي قدرة عظيمة. لا شكّ في أنّ قدرةً تفوق الوصف قد خوّلت الصيّادين وجابي الضرائب وصانع الخيام، بأوامر بسيطة، أن يقيموا الأموات ويطردوا الشياطين ويصدّوا الموت ويكمّوا أفواه الفلاسفة، ويختموا شفاه الخطباء، وينتصروا على الملوك والحكّام، ويسودوا على البرابرة واليونانيّين وكلّ أمّة».

وعن الانتشار العجائبيّ للإيمان المسيحيّ الذي أنار أقاصي الأرض، يقول القدّيس غريغوريوس النيصصيّ: «ولكن، كما يذكر الرسول، منذ أن *«ظهر نعمة الله المخلّصة لجميع الناس»* (تيطس ٢: ١١)، وحلَّ بيننا بطبيعته البشريّة، تلاشت كلّ هذه الأمور كالدخان في العدم. انقطعت حماقة منجّميهم ونبوءاتهم؛ انتهت مهرجانات أرتميس السنويّة والنجاسات الدمويّة؛ وتلاشت، في الوقت عينه، في معظم الأمم هياكلُ بكاملها ومعها الميادين والغيضات والمقامات. كما انتهت كلّ الطقوس المتعلّقة بها، تلك الطقوس التي كان يمارسها الكهنة، خدّام هؤلاء الشياطين، الأمر الذي خيّبهم وخيَّب جميع الذين كانوا يتبعونهم. وهكذا فلسنا نجد في العديد من هذه الأماكن ذكرى واحدة تدلّ على أنّ هذه الأمور وُجدت يومًا. وعوضًا عنها ظهرت، باسم يسوع، في كلّ أقطار العالم، كنائسُ وهياكل وكهنوتٌ مقدّس غير

دمويّ، وفلسفةٌ سامية تعلِّم، بالفعل والمثال أكثر ممّا بالكلام، تجاهلَ هذه الحياة الجسديّة واحتقارَ الموت. هذا الاحتقار الذي أظهره بشكل واضح مَن حاول الطغاةُ أن يجعلوهم يرتدّون عن الإيمان، فكانوا لا يعيرون اهتمامًا للفظاعات الوحشيّة التي يُلحِقونها بأجسادهم أو لموتهم الوشيك. ورغم ذلك، فمن المستبعد حتمًا أنّهم كانوا سيرضخون لمثل هذه المعاملة لو لم يمتلكوا برهانًا ناصعًا لا يقبل الجدل عن السكنى الإلهيّة وسط البشر.

«وإلى كلّ ذلك، فما سنذكره الآن يشكِّل بيّنة كافية تناقض اليهود وتؤكّد أنّ مسيّا المنتظَر قد حضر في ذاك الذي يجحدونه. فحتّى زمن اعتلان المسيح، كانت القصور الملَكيّة في أورشليم تتألّق بكلّ روعتها، وكان معبدهم ذائع الشهرة، واستمرّت الدورة السنويّة لطقس الذبيحة. وحتّى تلك اللحظة منِ الزمن، لم تتوقّف كلّ تلك الأمور التي عبَّرت عنها الشريعة برموز لمَن عرفوا قراءة أسرارها، بل تتابعت مراعاتها من دون انقطاع بحسب شكل العبادة القائمة منذ البدء. ولكن ما أن رأوا بوضوح مَن كانوا يبحثون عنه، ومَن سمعوا عنه من أنبيائهم والشريعة، وحين فضَّلوا، على الإيمان به (مَن أعلن عن ذاته بشكل عظيم) ما أصبح في ما بعد مجرّد خرافة منحطّة، لأنّهم فهموها بشكل مغلوط، وتشبّثوا بكلمات الشريعة فحسب طاعة منهم لأوامر التقليد أكثر ممّا للفكر، فحين رفضوا النعمة التي ظهرت، عندها بادت حتّى تلك الأماكن المقدّسة الخاصّة بديانتهم وما بقي لها وجود، مثلهم، سوى في التاريخ. لأنّه ليس هناك أثر ولا حتّى من هيكلهم يمكن أن يتعرّف إليه المرء. وتحوّلت مدينتهم الرائعة إلى أنقاض لدرجة أنّه لم

يبقَ لليهود شيء من المؤسّسات القديمة في حين أن أرض أورشليم ذاتها، التي وقَّروها كثيرًا، هي ممنوعة عليهم بأمر الذين يحكمونهم[٩٥].

---

[95] *Nicene & Post Nicene Fathers,* 2nd Series, Vol. 5, pp. 490 – 491.

الفصل الثامن
كنيسة المسيح تشهد على تألّق الإيمان المسيحيّ

كنيسة ربّنا يسوع المسيح المقدّسة الإلهيّة، التي أسّسها لخلاص الجنس البشريّ، تشهد على شخصيّته الإلهيّة. فقد جعل المخلِّص الكنيسة أداةً لحبّه للإنسان ونيّته الحسنة تجاهه، اللذين لا حدود لهما. فهي الناقلة الأبديّة للنعمة الإلهيّة، وهي تُتمِّم خلاص البشريّة الأبديّ.

ربّنا يسوع المسيح، مُبدع البشريّة ومكمِّلها (راجع عبرانيّين ١٢: ٢)، الذي يخلِّص كلّ الذين يؤمنون به على مرّ العصور، والذي هو نفسه لا يتغيَّر، لا يمكن أن يكون سوى الله. وحده الله يبقى على مرّ الدهور، وهو وحده القادر على خلاص البشر منذ الابتداء وحتّى نهاية الزمان. هو وحده القادر على تأسيس كنيسةٍ أبديّة تضمّ المؤمنين على مرّ الزمن. وهو وحده القادر على أن يكون رأسها، وأن يحفظها حيّةً ونشيطة، ويعضدها إلى نهاية الدهور. يسوع المسيح، لكونه رأس الكنيسة الواحدة المقدّسة، كان أيضًا رأس الكنيسة في عدن، ومركزَ كنيسة رؤساء الآباء، ومحتوى شريعة موسى (التي وصفت كنيسة المسيح عبر الرموز). كان وما زال الآن أيضًا رأسَ كنيسة العهد الجديد. إنّ كنيسة المسيح الواحدة المقدّسة الجامعة والرسوليّة كانت معدَّة منذ بدء العالم لتخلّص الإنسان، وتأسّست لتدوم إلى نهاية الدهور.

ويتكلّم القدّيس إبيفانيوس في مؤلّفه عن الكنيسة ويخلص إلى أنّ: «الكنيسة صيغت مع آدم؛ وبُشِّر بها لرؤساء الآباء قبل إبراهيم؛ ثمّ عُهد بها إلى إبراهيم؛ وأُعلِنت عبر موسى؛ وتنبّأ بها أشعياء؛

وتمجَّدت في المسيح وهي توجد في الوقت عينه مع المسيح؛ وبعد ذلك تُمتدح من قِبَلنا». كما يقول القدّيس نفسه في الفصل الثامن عشر من شرحه الموجز «في الإيمان الجامع» ما يلي: «هذا هو طابع الكنيسة: إنّها تضمّ الشريعة والأنبياء والرسل والإنجيليّين». ويقول القدّيس كيرلّلس الأورشليميّ إنّ الذين آمنوا بالمسيح قبل مجيئه هم أعضاء في كنيسة المسيح: إنّهم يؤلّفون كنيسة العهد القديم. فقد تمّ توجيهها، خلال حقبة رؤساء الآباء، بمواعيد غير مكتوبة، وأعلنت الإيمان. كما تمّ توجيهها، خلال عهد موسى والأنبياء، بالشريعة المكتوبة والنبوءات. الكنيسة هي ملكوت الله المؤسَّسُ على الأرض.

ويقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم عن الكنيسة: «إنّها مكان يضمّ ملائكة، مكان يضمّ رؤساء ملائكة، إنّها ملكوت الله. الكنيسة هي السماء نفسها». فالروح القدس الذي حلّ عليها يبقى معها إلى نهاية الدهور. وقد وعد المخلّص تلاميذه قائلاً: *«وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنّه لا يراه ولا يعرفه. وأمّا أنتم فتعرفونه لأنّه ماكث معكم ويكون فيكم»* (يوحنّا ١٤: ١٦-١٧). حين حلّ الروح القدس، أسبغ على الكنيسة بوفرة كلّ المواهب الإلهيّة. فحصلت على سلطان ربط الخطايا وحلّها، والتبشير بالإنجيل، ودعوة الأمم إلى الخلاص. حصلت على مقدرة تجديد الشعب الفاسد خلقيًّا، وتحويلهم إلى صوَر لله بمنحهم صورته ومثاله. إنّها تصالح الناس مع الله، وتجعلهم شركاء في النعمة الإلهيّة. إنّها توحّد الناس بالمخلّص وتمنح الروح القدس للذين يُقبلون إليها، وتحوّلهم إلى أبناء لله. ورثت قدرة التغلّب على جميع أعدائها، وقدرة البقاء غير منهزمة على مدى الدهور، وقدرة

قهر المعارضة مع البقاء حصينة منيعة.

ويعتبر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم أنّ الكنيسة تتغلّب حين تُهاجَم، تنتصر حين تحاك ضدّها المؤامرات، تصبح أكثر إشعاعًا حين تُشتَم، تتلقّى الجروح والخسائر ولكنّها لا تتداعى، تقاتل ولكنّها لا تنهزم، تتقاذفها الأمواج ولكنّها لا تغرق. إنّها تتجاوز العواصف ولكنّها لا تتحطّم.

بالحقيقة، عظيمة هي العلامة وواضح الدليل على الصفة الإلهيّة للمسيح الذي أسّس وأقام الكنيسة. فمَن غير الله كان قادرًا على إنشاء مثل هذه الكنيسة التي لا يستطيع أيّ عدو أن يغلبها، ولا حتّى أبواب الجحيم التي انفتحت ضدّها؟ وحدها قدرة الله الإلهيّة كانت قادرة بالحقيقة على تشييد كنيسته على صخرة لا تتزعزع. إنّ كنيسة مخلّصنا يسوع المسيح هي بالحقيقة ملكوت السماء على الأرض. فالمحبّة والسعادة والسلام تسود فيها. وعبر الحسّ الدينيّ وثقة القلب، يتطوّر الإيمان بالله في الكنيسة إلى معرفة إلهيّة، ووعي أسرار مخفيّة، وإدراك حقائق معلَنة. فيها الرجاء أكيد وثابت. بها يتمّ بلوغ الخلاص. فيها ينزل الروح القدس ويسبغ بغزارة أثمار المعزّي. فيها ينمو العشق الإلهيّ لله، الحبّ الكامل والتكرّس لله، والرغبة المتواصلة بالاتّحاد الأبديّ بالخالق. وكما يشتاق الأيّل إلى ينابيع المياه، هكذا تتوق الروح المُحِبّة لله بالحقيقة، إلى جماله الإلهيّ. وتهتف هذه الروح إلى الله من أعماق قلبها، على غرار النبيّ والملك داود: *«فمتى أجيء وأظهر قدّام الله؟»* (مزمور ٤١: ٢). إنّ سعادة المؤمن الوحيدة هي في درس وصايا الشريعة الإلهيّة ليل نهار. فليست له رغبة أو اشتياق سوى أن تتّحد إرادته الخاصّة بالإرادة الإلهيّة، لأنّه أدرك أنّ الإرادة الإلهيّة هي

بالحقيقة مراده الوحيد: الشريعة المكتوبة داخل قلبه.

في كنيسة الله تسمو الفضيلة الخلقيّة إلى أعالي كمالٍ بشريّ ممكن البلوغ. فمَن كان من قبل ذا ذهن مظلم وقلب متحجّر ينال، بسرّ العماد المقدّس، فكرًا مستنيرًا وروحًا متجدّدة. إنّه يكتسب سجيّة أخلاقيّة جديدة بالكليّة، مقيمًا على درب الفضيلة بحماسة وتفانٍ. إنّ فضائل الملَكة الإدراكيّة، أي التعقّل، التي منها تتدفّق الحكمة والفهم والمعرفة والحقيقة والرغبة، تنبعث في جمال بديع وتزيّن الرجل الجديد الذي وُلد ثانية في الكنيسة. كما أنّ الفضائل التي تنبع من ملَكة النفس الغضبيّة، وبالتحديد الشجاعة المعنويّة والصبر والشهامة والكرَم والوقار والقوّة والجرأة، تشكّل شبكة بديعة من الفضائل المتشابكة وتزيّن الإنسان الذي أعيدت صياغته في الكنيسة. كما أنّ فضائل الرغبة، وبشكل أخصّ العفّة والنقاوة والبتوليّة، ترسم صورة رائعة يُشعل جمالُها النقيّ الروحَ. الكنيسة تجدّد شباب الإنسان وتعيد صوغه وتحوّله إلى إيقونة حقيقيّة لله. فإنّ هيكل الكنيسة المقدّس هو في الحقيقة مائدة سماويّة تغذّي المؤمنين بالخبز والمشروب السماويَّين، وتصبغهم بالحياة الأبديّة. الذين يأكلون من هذا لا يموتون. والهيكل المقدّس، الموضوع في وسط كنيسة المسيح، هو مائدة علويّة تقتبل خيرات أرضيّة وترسلها إلى السماوات؛ وبعد ذلك تقتبل أشياء من العلاء وتنقلها إلى العالم. إنّه موجود على الأرض ويقف في الوقت عينه بجانب العرش السماويّ. هذا الهيكل مرهوب حتّى للملائكة الذين يحلّقون فوق القبّة السماويّة. الكنيسة هي الرجاء والملجأ والتعزية لكلّ الذين يؤمنون بالمسيح.

ويقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: «كموانئ في المحيط، هكذا

أقام الله كنائس في المدن، حتّى إنّنا نهرب من تشويش أمور الحياة وننعم بالسكينة التي فيها. هنا حين ننشد، يزول الخوف من أن تلاحقنا الأمواج أو أن يعتدي علينا المجرمون أو أن تكيد لنا الوحوش. إنّه ميناء خالٍ من كلّ أشباه هذه الأمور. وتاليًا فالكنيسة هي ميناء للنفوس. لقد رَوّضت كلّ الوحوش. حين نصغي إلى الكتاب المقدّس، فكأنّ هناك لحنًا سماويًّا يدخل من آذاننا إلى روح كلّ منّا ويسكّن أهواءنا اللاعقلانيّة». ويقول مرّة أخرى: «لا تبتعدوا عنً الكنيسة، فليس أقوى منها. إنّها أصلب من صخرة، وأعلى من السماوات. إنّها أوسع من الأرض. ما لم تستطع السماوات والأرض أن تسعه، قد وسعه رحِمٍ بسهولة. إنّها لا تشيخ، بل هي فتيّة على الدوام. لَمَ دُعيت جبلاً في الكتاب المقدّس؟ بسبب ثباتها. كما دُعيت صخرَة بسبب عدم قابليّتها للفساد». ما ذكرناه أعلاه يشهد بالطابع الإلهيّ لمؤسّسها.

ويعلن القدّيس غريغوريوس النزينزيّ اللاهوتيّ، في أوّل موعظة له ضدّ يوليانوس حول الكنيسة: «أنت تقاوم ميراث المسيح العظيمَ الذي لا ينقطع... الذي خلقه كإله وورثه كإنسان. الشريعة وصفتها، والنعمة ملأتها، ويسوع جدَّد شبابها. الأنبياء جمعوها، والرسل وحَّدوها، والإنجيليّون نسّقوها».

كما يقول القدّيس إبيفانيوس القبرصيّ في مقالته «في الإيمان الجامع»: «الكنيسة هي أمّنا. إنّها العروس الكلّيّة الصلاح والطاهرة من لبنان، فردوسُ الفنّيِّ العظيمَ، مدينةُ الملكِ القدّوس، عروس المسيح النقيّ، العذراء النقيّة التي زُفَّت لرجل واحد فقط. إنّها شفّافة وتبزغ كشروق الشمس. إنّها بجمال القمر، ومميّزة كالشمس. هي أمدوحة الملوك وتقف عن يمين الملك».

الكنيسة هي الظهور الإلهيّ الأبديّ للعالم. فيها اعتلن الله بطرائق وأساليب عديدة، مُثبّتًا حضوره عبر قواه الإلهيّة. ويقول الرسول بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين، عن الكنيسة التي أسّسها مخلّصنا يسوع المسيح: *«وضع الله أناسًا في الكنيسة أوّلاً رسلاً ثانيًا أنبياء ثالثًا معلّمين ثمّ قوّاتٍ وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانًا تدابير وأنواع ألسنة. ألعلّ الجميع رسلٌ؟ ألعلّ الجميع أنبياء؟ ألعلّ الجميع معلّمون؟ ألعلّ الجميع أصحاب قوّات؟ ألعلّ للجميع مواهب شفاء؟ ألعلّ الجميع يتكلّمون بألسنة؟ ألعلّ الجميع يترجمون؟ ولكن جدّوا للمواهب الحسنى، وأنا أريكم طريقًا أفضل»* (١كورنثوس ١٢: ٢٨-٣١).

مَن غير الإله الواحد الحقيقيّ كان ليستطيع أن يشيّد مثل هذه الكنيسة ويغدق عليها مثل هذه المواهب بغزارة ويقودها على هذا النحو ويوجّهها ويحميها على مرّ العصور؟ مَن غير كائن سرمديّ كان ليستطيع أن يخلق عملاً أبديًّا؟ فالكنيسة التي جدّدها ربّنا يسوع المسيح بدمه الخاصّ هي الأعجوبة الأبديّة التي تعلن على الدوام الطابع الإلهيّ لمؤسّسها الإلهيّ. فكنيسة المسيح، في كامل حقائقها وشرائعها وأسرارها وتعاليمها وقواها ووصاياها وقوانينها هي المؤسّسة الإلهيّة التي أنشأها ربّنا يسوع المسيح، وافتتحها بحلول الروح القدس يوم العنصرة المقدّسة. حصر خلاصَ الجنس البشريّ داخل الكنيسة حتّى يتمّ فيها تجدّد الإنسان وإعادة ولادته وكماله. مَن غير الروح القدس كان ليخوّل الكنيسة أن تنتج رسلاً ممتلئين من النعمة الإلهيّة والقدرة والنشاط؟ مَن غير الروح القدس كان لينتج أنبياء سبقوا وأعلنوا المستقبل كما لو أنّهم يروون الماضي؟ مَن كان لينتج لغويّين

أشدّاء ومعلّمين في الكنيسة، ووعّاظًا للحقّ رائعين، اجتذبوا الجموع إليهم بفصاحة كلماتهم الإلهيّة وحدها، وقادوهم إلى المسيح؟ من أين انبعثت المعجزات التي اجترحها خدّام الكنيسة؟ ما مصدر مواهب الشفاء إن لم يكن ذلك من الله؟ من أين جاء المعاونون؟ (١كورنثوس ١٢: ٢٨). من أين الحبّ الأمثل الذي يوحي للإنسان بأن ينكر ذاته بحماسة لكي يساعد ويحمي الأرامل واليتامى والمرضى وغيرهم من المعوزين والمحتاجين لهذا الغوث، والذي استُخدم لتولّي أمور الكنيسة وإدارتها كما يجب؟ من أين تنوّع الألسنة التي مُنحت للأمّيّين وغير المتعلّمين؟ (راجع ١كورنثوس ١٢: ١٠). لا شكّ في أنّ الروح الكلّيّ القداسة الذي حلّ عليها والذي يبقى معها على مرّ الأجيال، الينبوعَ الدائم التدفّق من النعم الإلهيّة، هو يمنح كلّ شيء. هذا يثبت الطابع الإلهيّ لمخلّصنا يسوع المسيح وعمله الإلهيّ.

ماذا بإمكاننا أن نقول عن الأسرار المقدّسة التي تُقام في الكنيسة منذ تأسيسها؟ ماذا بإمكاننا أن نقول عن العِماد الذي يطهِّر الإنسان سرّيًّا من خطاياه الشخصيّة ومن الخطيئة الأصليّة في آن[96]، ويصالحه مع الله؟ الذي يطعِّم الإنسان سرّيًّا ويحوِّله من غصن زيتونة برّيّة إلى زيتونة صالحة؟ ماذا بإمكاننا أن نقول عن سرّ مسحة الميرون؟ فعبر ختم المسيح هذا، تمنحُ الكنيسة الإنسان الميرون الذي يكمِّله، ويصيِّره عطِرًا ويُتحِده بالروح المطيع. ماذا بإمكاننا أن نقول عن الإفخارستيّا، طعام المؤمنين الروحيّ الذي يحيي الروح ويقود الإنسان إلى الاتّصال

[96] يقول القدّيس بولس في رسالته إلى أهل رومية (٣: ٢٣) ما معناه أنّ خطيئة آدم انتقلت بالولادة إلى كلّ ذرّيّته، وكانت نتيجة هذه الخطيئة الموت. ويُقصَد هنا بـ«الخطيئة الأصليّة» أنّها الحالة التي وصلت إليها الطبيعة البشريّة بعد السقوط، وميل الإنسان إلى ارتكاب الشرّ بسبب انفصاله عن الإرادة الإلهيّة (المترجم).

المباشر بالله؟

ماذا بإمكاننا أن نقول عن الكهنوت، هذا السلك والخدمة الإلهيَّين المجيدَين؟ فعبر هذا السرّ، يُصطفى أحدهم من بين البشر ويُرفع في العلاقة مع الله والسيامة. وكسرٍ، تصيِّر السيامة الكاهنَ ملقِّنًا للنعمة الإلهيّة، وخادمًا للأسرار الإلهيّة، ومعلّمًا للتقوى، ووسيطًا مقبولاً بين الله والبشر؛ لكي يستطيع، كملاك لله، أن يرسل معليًّا إلى الله صلوات المؤمنين وتوسّلاتهم، وأن يستنزل من السماء المواهب الإلهيّة. ويدعو القدّيس ذيونيسيوس الأريوباغيّ الكهنوت خدمة مقدّسة، ورمزًا إلى التراتبيّة الفائقة الطبيعة، وملكوتًا مقدّسًا ومكرّسًا، لأنّه يحدث على الأرض ولكنّه كائن وسط جماعة المراتب السماويّة. كما يخبرنا أبونا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم عن قدرة الكهنوت الفعّالة ويوصينا أن: «لاحظوا مقدار القدرة التي يملكها الكهنة. تفكّروا في العماد، ومغفرة الخطايا، والبنوّة، والأسرار، وآلاف الأمور الأخرى الجيّدة التي تحصلون عليها بابتهالات هؤلاء الكهنة ووضع أيديهم عليكم. عبر الكهنوت يُعبد الله وتتزيّن الأرضيّات كأنّها سماويّة».

ماذا بإمكاننا أن نقول عن سرّ التوبة والاعتراف؟ فعبر هذا السرّ تُمارس الكنيسة قدرتها الإلهيّة والسلطان الذي يعود لله الحقيقيّ وحده: سلطان مغفرة الخطايا. فتمارس الكنيسة سلطتها وتغفر للخاطئ وتحرّره من وزر التعدّي وتصالحه مع الله وتقدِّمه إليه. ماذا بإمكاننا أن نقول عن سرّ المسحة المقدّسة؟ فالكنيسة تشفي، بصلواتها المجتمعة، المرضى بالجسد والروح في آن. إنّها تنهضهم من سرير المرض وتعيد إليهم صحّتهم الجسديّة والروحيّة معًا. وإلى ذلك ماذا بإمكاننا أن نقول عن سرّ الزواج المقدّس الذي به تجدّد الكنيسة البركة الممنوحة

للجنس البشريّ في الفردوس؟ فالكنيسة التي تمتلك مثل هذه الأسرار الإلهيّة، والتي عبرها تعمل النعمةُ الإلهيّة سرّيًّا بطرائق متنوّعة وتوزّع المواهب السماويّة على الذين ولدوا فيها، هي حقًّا مؤسّسة إلهيّة. فكلّ ما سبق يعلن ويهتف ويشهد بنشأتها الإلهيّة ويعظّم الطابع الإلهيّ لمؤسّسها. حقًّا إنّ مؤسّس تلك الكنيسة هو الله الحقيقيّ الذي أتى إلى العالم لخلاص الإنسان.

إنّه حقًّا الألف والياء، البداءة والنهاية (راجع رؤيا ١: ١١). كلّ شيء به خُلق ولم يُخلق شيء واحد من دونه. لقد وجّه الإنسانيّة، وظهر لإبراهيم، وأعطى الشريعة. وفي نهاية الأزمنة، حين حان ملء الزمان، أصبح هذا الإله التامّ إنسانًا تامًّا، وأتمّ الشريعة والأنبياء وأسّس كنيسته جديدةً لكي تبقى إلى دهر الداهرين.

الفهرس

سلسلة
«تعرّف إلى كنيستك»

١- آراء أرثوذكسيّة في الكنيسة	مجموعة من المؤلّفين
٢- الأرثوذكسيّة في الكراسي الشرقيّة	جورج خضر
٣- الكنيسة والدولة	خضر/ ترويتسكي
٤- الرؤية الأرثوذكسيّة لله والإنسان	جورج خضر
٥- العبادة الفرديّة والعبادة الجماعيّة	جورج فلورفسكي
٦- الفقر والغنى في الكتاب المقدّس وعند الآباء	جورج خضر
٧- العائلة... كنيسة	إفدوكيموف/ بندلي
٨- كن كاهني	ليف جيلله
٩- آراء أرثوذكسيّة في والدة الإله	مجموعة من المؤلّفين
١٠- الكنيسة الأرثوذكسيّة، في الماضي والحاضر	كاليستوس وير
١١- الكنيسة الأرثوذكسيّة، إيمان وعبادة	كاليستوس وير
١٢- زمن التريودي	هزيم/ جيلله/ توراي
١٣- الكتاب المقدّس وحياتنا الشخصيّة	مجموعة من المؤلّفين
١٤- من أجل فهم أفضل للقدّاس الإلهيّ	ليف جيلله
١٥- الروح القدس	مجموعة من المؤلّفين
١٦- الأسقف في الكنيسة	مجموعة من المؤلّفين
١٧- الحياة الرهبانيّة – في حياة التوحّد	رهبنة دير الحرف
١٨- زاد الأرثوذكسيّة	أنطونيوس آليفيزوبولوس
١٩- المفهوم الأرثوذكسيّ للحقّ القانونيّ	سمير غلام

٢٠- كنيسة الروح القدس	نيقولا أفانا سيف
٢١- مدخل إلى العقيدة المسيحيّة	بندلي/ مجموعة من المؤلّفين
٢٢- الفكر الكنسيّ الأرثوذكسيّ	إيروثيوس فلاخوس
٢٣- الكتاب المقدّس والكنيسة والتقليد	جورج فلوروفسكي
٢٤- الرؤية الأرثوذكسيّة للإنسان	عدنان طرابلسيّ
٢٥- اللاهوت الصوفيّ للكنيسة الشرقيّة	فلاديمير لوسكي
٢٦- كنيسة المشرق العربيّ	جان كوربون
٢٧- إيمانك خلّصك	جان بونفيس
٢٨- الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة الجزء الأوّل	كريستين شايّو
٢٩- الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة الجزء الثاني	كريستين شايّو
٣٠- يسوع المسيح المخلّص والإله الحقيقيّ	القدّيس نكتاريوس العجائبي


تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع
AN-NOUR COOP